المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى/ مكة المكرمة
كلية التربية
قسم التربية الاسلامية والمقارنة



المفاهيم التربوية عند الإمام فخر الدين الرازي من خلال كتابه (التفسير الكبير) المسمى (مفاتيح الغيب)

***

إعداد

الطالب / على حسين فهد غاصب

***



إشراف

الدكتور / ماجد عرسان الكيلاني

***

بحث مكمل لنيل درجة الماجستير في التربية الإسلامية والمقارنة

عام ١٤١١هـ /١٤١٣ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

جامعة أم القرى
كلية التربية بمكة المكرمة
الدراسات العليا

نموذج رقم (٨) *

اجازة أطروحة علمية في صيغتها النهائية
بعد اجراء التعديلات المطلوبة

الاسم الرباعي : على حسين فهد غاصب
القسم : التربية الاسلامية والمقارنة
الدرجة العلمية : ماجستير
التخصص : تربية اسلامية
عنوان الاطروحة : المفاهيم التربوية عند الامام فخرالدين الرازى من خلال كتابه (التفسيرالكبير) المسمى (مفاتيح الغيب) .

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين وبعد ،،

فبناء على توصية اللجنة المكونة لمناقشة الاطروحة المذكورة عاليه والتي تمت مناقشتها بتاريخ ٥ / ٦ / ١٤١٣هـ بقبول الاطروحة بعد اجراء التعديلات المطلوبة ، وحيث قد تم عمل اللازم

فان اللجنة المذكورة توصي باجازة الاطروحة في صيغتها النهائية المرفقة كمتطلب تكميلي للدرجة العلمية المذكورة أعلاه والله الموفق .

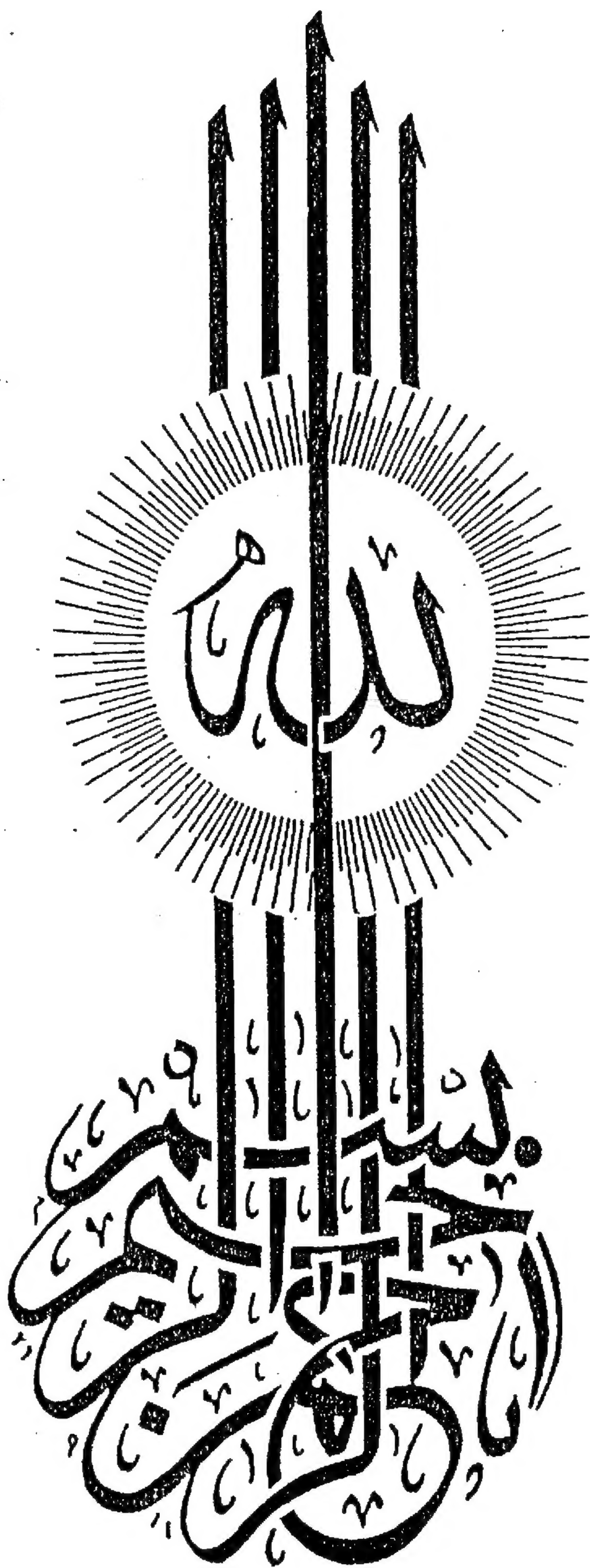
اعضاء اللجنة

	المشرف	مناقش من القسم	مناقش من خارج القسم
الإسم :	د. ماجد عرسان الكيلاني	د. محمود محمد كسناوي	د . بركات عبد الفتاح دويدار
التوقيع :			

رئيس قسم التربية الاسلامية والمقارنة

د. محمود محمد عبد الله كسناوى

* يوضع هذا النموذج أمام الصفحة المقابلة لصفحة عنوان الاطروحة في كل نسخة


الله
بسم الله الرحمن الرحيم

ملخص البحث

عنوان البحث : المفاهيم التربوية عند الإمام فخرالدين الرازي من خلال كتابه (التفسيرالكبير) المسمى (مفاتيح الغيب) ٠

اسم الباحث : علي بن حسين فهد غاصب ٠

أهداف البحث : التعرف على حياة الإمام فخرالدين الرازي ، وعصره الذي عاش فيه ، والتعرف على المفاهيم التربوية التي ضمنها كتابه (التفسير الكبير) ، ثم تقويم تلك المفاهيم وبيان مدى اتفاقها مع توجيهات القرآن والسنة ، وبيان مدى قدرتها على تأصيل التربية في المجتمعات الإسلامية في العصر الحاضر ٠

منهج البحث : المنهج التاريخي ، والمنهج الاستنباطي ٠

فصول البحث : الفصل الأول ويشتمل على خطة البحث ، الفصل الثاني : سيرة الإمام فخرالدين الرازي ، الفصل الثالث ، ملامح عصر الإمام فخرالدين الرازي (السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والعلمية) ، الفصل الرابع : الطبيعة الإنسانية عند فخرالدين الرازي ، الفصل الخامس : الأصول العقدية والاجتماعية والكونية عند الرازي ، الفصل السادس : المعرفة (أدواتها ، شروطها) ، الفصل السابع : العلم (مفهومه ، فضل العلم والعلماء)، الفصل الثامن : آداب العالم والمتعلم ، أساليب التعليم والتعلم ، الفصل التاسع : تقويم المفاهيم التربوية عند فخرالدين الرازي ، وإلى أي مدى يمكن الاستفادة منها في الوقت الحاضر ، ونتائج البحث وتوصياته ٠

نتائج البحث : أكد البحث على مجموعة من النتائج من أبرزها ٠

١ - أن التربية الإسلامية هي السائدة في عصر الرازي ، وأن علماء الإسلام هم القائمون على التربية ٠

٢ - خلو التربية الإسلامية من أي فكر دخيل بعكس تربية العصر الحديث ٠

٣ - قدرة التربية الإسلامية على الإبداع والبناء الحضاري ٠

٤ - التربية الإسلامية ذات تميز واستقلالية فلاتنمحي شخصيتها ولاتذوب في أي فكر آخر ٠

٥ - المفاهيم التربوية عند الرازي تعطي دلالة على أن تراث المسلمين زاخر بالفكر التربوي ٠

توصيات البحث : اقترح الباحث عدداً من التوصيات منها :

١ - توصية الأسرة بالاستفادة من التربية عند الرازي في تربية الأولاد ، والتزام الأسرة بما فيها من قيم وآداب ٠

٢ - المعلمون محتاجون إلى الاستفادة من التراث التربوى لعلماء المسلمين ، وفي هذا البحث دروس يوصيهم الباحث بالاستفادة منها ٠

٣ - يدعو الباحث الدول الإسلامية والمؤسسات التربوية إلى البحث في التراث الإسلامي لاستخلاص الفكر التربوى منه وتشجيع العلماء والباحثين في هذا السبيل ٠

اعداد الطالب	المشـرف	عميد الكلية
علي حسين فهد غاصب	د٠ ماجد عرسان الكيلاني	د٠ هاشم بكرحريري

الإهـــــــداء

* إلى والدي اللذين ربياني صغيراً ٠
* وإلى اساتذتي الذين علموني ٠
* إلى كل زميل وباحث ٠

أهدي هذا البحث المتواضع ٠

سائلا الله الكريم أن ينفع به وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم٠

والحمد لله الذي بشكره تتم الصالحات ٠

والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ٠

الباحث

" شكـــر وتقـــديـــر "

****

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف الانبياء والمرسلين نبينا محمد وعلى آله وصحبه .. وبعد :

يسرني ويعدني أن أقدم شكري وتقديري لمعالي مدير جامعة أم القرى الدكتور راشد الراجح الذى يبذل جهوده المتواصله لاعداد شباب هذه الجامعة وتمكينهم من العلم النافع الذى يعود عليهم بالخير فى الدنيا والاخرة فجزاه الله خير الجزاء .

وأشكر سعادة عميد كلية التربية الدكتور هاشم بكر حريرى على جهوده ومتابعته وتوجيهاته لابنائه الطلاب مما كان له أثره الواضح على مستواهم العلمى والعملي .

وأقدم شكري وتقديري وعرفاني بالجميل لاستاذى والمشرف على رسالتي سعادة الدكتور ماجد عرسان الكيلاني الذى ذلل لي الصعوبات وأنار لي الطريق بتوجيهه وارشاده ومتابعته المستمره أثناء خطوات البحث حتى تمكنت من انجازه ، فجزاه الله عني خير الجزاء وبارك في جهوده التي يبذلها في سبيل العلم وطلابه .

وأسجل شكري الجزيل لكل من سعادة الدكتور / محمود محمد كسناوي رئيس قسم التربية الاسلامية والمقارنه وسعادة الدكتور / بركات عبد الفتاح دويدار لمناقشتهما هذه الرسالة ولما أبدياه من توجيهات قيمة فجزاهما الله خير الجزاء .

ولايفوتني أن أشكر الاساتذة والاخوة والزملاء الذين قدموا لي العون والمساعدة .

ومن الله تعالى أستمد العون والتوفيق وله الحمد والشكر من قبل ومن بعد .

محتويات البحث

رقم الصفحة

(١)

الفصل الأول : (الفصل التمهيدي)

خطة البحث :

١- المقدمة ٠

٢- أهمية الدراسة ٠

٣- منهج الدراسة ٠

٤- أهداف الدراسة ٠

٥- تساؤلات الدراسة ٠

٦- حدود الدراسة ٠

٧- معاني المصطلحات ٠

٨- الدراسات السابقة ٠

المقدمـــــــة

الحمد لله الذى علم بالقلم علم الانسان مالم يعلم ، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد الأمين الذى أدبه ربه فأحسن تأديبه ، وبعثه معلما ليتمم مكارم الأخلاق ، وليخرج الناس من الظلمات الى النور ، وجعله رحمة للعالمين •

وبعـــــد :-

لقد أرسل الله الرسل وأنزل الكتب لدعوة البشرية إلى عبادة الله وحده ولاقامة حياتهم على النظام الحق والسلوك السوي •

وكان آخر الكتب السماوية وأكثرها شمولا هو القرآن الكريم الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه ، أنزله الله على محمد صلى الله عليه وسلم للناس كافة ليخرجهم من ظلمة الجهل والكفر الى نور العلم والايمان والمعرفة ، فلا غرابـــة - اذن - أن أصبح القرآن والسنة هما الأساس والأصل لعلوم اسلامية كثيرة ومعرفة واسعة ، ومنها : المفاهيم التربوية الاسلامية التي تهدف الى اخراج الانسان الصالح في عقله وجسمه وروحه ، الانسان الذى تتخذ العبودية والطاعة لله - عز وجل - في حياته مظاهر شاملة متكاملة •

يقول ماجد الكيلاني (١٤٠٩هـ) : << مفهوم العبادة في التربية الاسلامية يشتمل على مظاهر : مظهر ديني ، ومظهر اجتماعي ، ومظهر كوني ، وانطلاقا من هذا المفهوم للعبادة تتفرع علوم كثيرة لاحصر لها ، وكلها مما أمرت به أصول التربية الاسلامية لأن ثمرتها مجتمعة تخريج علماء يحبون الله محبة كاملة ويطيعونه طاعة كاملة ويدعون باقي البشرية لمحبته وطاعته >> ص ٨٥ - ٩٧ •

وهذه الأمور لاتتحقق الا بطلب العلم النافع ، فبالعلم النافع يعرف الانسان كيف يتعامل مع الله تعالى وكيف يتعامل مع مظاهر الكون الذى يحيط به وكيف يتعامل مع مجتمعه ويعلمهم ويدعوهم إلى مايجلب لهم السعادة في الدنيا والآخرة •

وقد استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يربي أصحابه تربية إسلامية شاملة ذات نظرة متكاملة للإنسان والكون والحياة واستوعب أصحابه -رضوان الله عليهم-هذا المفهوم فكانت تربيتهم أنموذجاً حياً في العقيدة والسلوك والتطبيق العملي.

والتربية ذات تأثير بالغ في حياة الأمم ، فهي تنعكس على جوانب الحياة المختلفة من سياسية واقتصادية واجتماعية وثقافية ، وقد كان هذا واضحا جليا في استهلال الوحي الذى بدأ ب(إقرأ) وفي حياة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وفي حياة الصحابة والسلف الصالح حيث شيدوا حضارة إسلامية أساسها المعرفة التي تستهدف بقاء النوع البشرى ورقيه . ولقد أدرك مفكرو الاسلام وعلماؤه أهمية التربية في بناء الأمم وبعث الحياة فيها ونموها وتغييرها نحو الأفضل ، فالتربية تغيير لما بالأنفس ، هدفه تغيير حال الأمة إلى الصلاح ، فاذا أهملت التربية ساءت حالة الأمة وأدى ذلك إلى تخلفها وضياعها ثم فنائها .

ولإدراك العلماء والمفكرين الإسلاميين لأهمية التربية الإسلامية لم تخل مؤلفاتهم باختلاف ميادينها وتخصصاتها من المفاهيم والافكار التربوية التي بنوا على أساسها أفكارهم واسلوبهم في التأليف والتعليم ، والممارسات التربوية التي كانوا يقومون بها .

ولكن هذا الفكر التربوي - عند مفكري المسلمين - مازال متفرقاً متناثراً في ثنايا كتب التراث ، ويحتاج من الباحثين والدارسين الى دراسته وتحليله وكتابته باسلوب مناسب يجمع بين الاصالة والمعاصرة ليزود الأجيال المسلمة بالمفاهيم التربوية اللازمة لبناء نظم تتفق مع روح الإسلام .

من هذا المنطلق يرى الباحث أن المجال مازال واسعا للبحث في الفكر التربوي عند علماء المسلمين للاسهام في تطوير نظرية تربوية إسلامية يكون بعض دعائمها المفاهيم التربوية التي اسهم بها مفكرو الاسلام الأوائل .

ولما كان كتاب التفسير الكبير لفخر الدين الرازى يزخر بالمفاهيم التربوية المتناثرة في كل أجزائه فقد وجد الباحث انها جديرة بأن يلم شتاتها وتدرس وتحلل وتصاغ صياغة جديدة ليستفاد منها في واقعنا المعاصر ٠

فالامام فخر الدين الرازى يشير كثيرا في تفسيره الى أثر العقيدة والقرآن في سلوك المسلم وكذلك أثر الرسول صلى الله عليه وسلم باعتباره (القدوة الحسنة) كما تحدث عن الطبيعة الانسانية ، وعن العلم وفضل العلماء ، وعن وسائل المعرفة ، وذكـر بعض الآداب والأساليب التي ينبغي أن يلتزم بها العلماء والمعلمون ، وتحدث أيضا عن عجائب قدرة الله تعالى التي تتجلى فى آيات الآفاق والأنفس ، وما لذلك من أثر عظيم فى تعميق الايمان بخالق الكون والانسان والحياة ، وأثر ذلك في تحقيق العبودية لله ، وغير ذلك من الأفكار التربوية الأخرى ٠

ولعل الباحث يستطيع أن يسهم في هذه الدراسة فيما يتطلع اليه أولئك الذين يعملون على اسلمة المعرفة والباسها الصبغة الاسلامية وتخليصها من الأفكار العلمانية لتكون - بحق - تربية إسلامية في أهدافها ومنهجها ومحتواها ٠

راجيا من الله العون والتوفيق والسداد ٠

أهميـــة الدراســـة

من علماء المسلمين الذين لهم باع في مجال التعليم والتأليف في شتى ألوان المعرفة الامام فخر الدين الرازى الذى عاش في الفترة مابين عام ٥٤٤ وعام ٦٠٦هـ •

وهي فترة تعددت فيها المدارس التربوية واشتدت الحاجة الى بلورة الآراء التربوية وسعى المربون المستنيرون ليتحقق التكامل بين هذه الآراء لايجاد نظرية تربوية إسلامية شاملة تجمع بين مختلف الاتجاهات العلمية وتحقق التكامل بدل الاختلاف •

وقد تفاعل الرازى مع اتجاهات عصره العلمية والتربوية وكان له تأثيره في تلاميذه وله فكره التربوي الذى ضمنه كتبه ، وأكثر مايبرز ويتضح هذا الفكر التربوي في كتابه المشهور التفسير الكبير •

وإذا كان من شأن كليات التربية في العالم الاسلامي الاهتمام بتأصيل التربية الاسلامية بالرجوع الى منابعها الأصيلة فان مما يساعد على ذلك بذل دراسات جادة من أجل ابراز الفكر التربوى لمفكري الاسلام والتعمق في ذلك الفكر وسبر غوره في كتب التراث التي ألفها هؤلاء العلماء وهى - لا شك - تحتوى على آراء تربوية قيمة أُهملت مدة طويلة من الزمن ، ومن هؤلاء الأعلام الإمام فخر الدين الرازى الذى سيتناول البحث فكره التربوى •

وتكمن أهمية هذه الدراسة في النقاط التالية :-

١ - مساعدة المهتمين بأحياء التراث وتنقيته واستخلاص الدروس المفيدة التي قد تسهم في أسلمة للمعرفة وتطوير محتوى الكتاب الدراسي ليتفق مع روح الاسلام في مختلف التخصصات ، فالرازى في مفاهيمه التربوية المختلفة لايخرج عن المفهوم العام الإسلامي للتربية •

٢ - يمكن أن تقدم هذه الدراسة للمهتمين بتكوين نظرية تربوية إسلامية مايفيدهم في بناء هذه النظرية ، فمفهــوم الرازى للتربيــة يعد جزءاً من المفهوم

العام للتربية الاسلامية ، فإذا أضيف إلى غيره من الأفكار والمفاهيم التربوية عند علماء المسلمين فقد يؤدي ذلك الى نظرية إسلامية متكاملة .

٣ - الإسهام فيما يتطلع اليه المختصون في بناء المنهج التربوي الاسلامي من حيث تأصيل أسس المناهج واسلمتها ، فبامكانهم الاعتماد على منهج الرازي المتميز بالاضافة الى المناهج الاخرى عند علماء المسلمين فيتكون من ذلك منهج اسلامي تربوى متكامل يغني عن أى منهج لايتفق مع روح الاسلام .

٤ - الذين يقومون على تربية النشء من المدرسين والمديرين وغيرهم قد يستفيدون من هذه الدراسة في تطبيقاتهم وأساليبهم التربوية ، والمتتبع للأساليب والطرق التي يستخدمها الرازى في دروسه ومحاضراته وادارته لمجلسه العلمي سيجد أن فى ذلك مايفيد في تطوير الأساليب التربوية في العصر الحديث .

منهـــج الدراســة

١- المنهج التاريخـــي :

يهتم المنهج التاريخي بالتعرف على الماضي وماحدث فيه ، قال الله تعالى :
[فاقصص القصص لعلهم يتفكرون] الأعراف ١٧٦ وقال تعالى : [لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب] يوسف ١١١.
يقول ذوقان عبيدات وزميلاه (١٩٨٨م)"الأسلوب التاريخي يستخدم في دراسة الظواهر والأحداث والمواقف التى مضى عليها زمن طويل ، فهو مرتبط بدراسة الماضي وأحداثه" ص ١٧٢ .

وهذه الدراسة تتعلق بمفكر عاش في الماضي وتأثر بماجرى في عصره.
وسيحاول الباحث استخدام هذا المنهج لمعرفة سيرة فخر الدين الرازى وتتبع الفترة التى عاش فيها لمعرفة الظروف السياسية والاقتصادية والإجتماعية والثقافية ، ومعرفة إلى أى مدى تأثر بها في إتجاهاته التربوية وإلى أى مدى أثر هو فيها ، ويتم ذلك بتتبع ماكتب عن هذا العصر في المصادر الأولية والثانوية ، وماكتب عن فخر الدين الرازى بشكل خاص .

ويتضح من هذا أن تطبيق المنهج التاريخي هو المناسب لهذا الجانب من الدراسة .

٢- المنهج الإستنباطي :

وهذا المنهج مفيد في استخلاص المبادىء والمفاهيم التربوية من خلال الكتب التى تحتوى على تلك المفاهيم ولاسيما في مجال التربية الإسلامية التي تهدف إلى إستنباط الأفكار التربوية وتحليلها للوصول إلى مبادىء ومفاهيم تربوية واضحة .

ويرى عبدالرحمن ، وحلمي فوده (١٤٠٢هـ) :-

<< أن طرق البحث المستخدمة لاتعترف إلا بطرق البحث التاريخية والوصفية ، والتجريبية غير أن الباحثين في مجال التربية الإسلامية لايجدون بغيتهم في هذه الطرق فالباحث الذي يهـدف مثلاً إلى تقصي مبادئ التربية العقلية في كتـــاب ابن حبان

(روضـــة العقلاء ونزهـــة الفضلاء) فى حاجة الى طريقة تضبط له تحليل النصوص واستخلاص المبادئ التربوية منها وتلك هي الطريقة الاستنباطية التي طبقها الفقهاء لاستخلاص الاحكام من مصادر التشريع » (ص ٤٢) ٠

اذن فالمنهج الاستنباطي هو الذى يتمكن الباحث على ضوئه - هنا - أن يستنبط المفاهيم التربوية من كتاب التفسير الكبير لفخر الدين الرازى ويدرسها ويحللها ليخرج من ذلك - ان شاء الله - بمفاهيم تربوية اسلامية واضحة ٠

أهـداف الدراسـة

سيحاول الباحث في هذه الدراسة تحقيق الأهداف التالية :-

١ - التعرف على حياة الامام فخر الدين الرازى ، وعصره والعوامل المؤثرة في فكره وثقافته •

٢ - التعرف على المفاهيم التربوية التي اشتمل عليها كتابه التفسير الكبير •

٣ - تقويم المفاهيم التربوية عند فخر الدين الرازى •

٤ - التعرف على مدى اتفاق تلك المفاهيم التربوية مع توجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية •

٥ - تبيان مدى الاسهام الذى يمكن أن تقدمه المفاهيم التربوية عند فخر الدين الرازي للجهود الرامية الى تأصيل التربية في المجتمعات الاسلامية المعاصرة •

تساؤلات الدراسة :

تحاول هذه الدراسة الاجابة على التساؤل الرئيسي الآتي :-

ما المفاهيم التربوية عند الامام فخر الدين الرازى التي عالجها في كتاب التفسير الكبير ، ويتفرع من هذا السؤال الأسئلة الفرعية الآتية :

١ - الى أي مدى تأثرت هذه المفاهيم التربوية بالقرآن الكريم ؟

٢ - الى أي مدى تتقارب المفاهيم التربوية عند فخر الدين الرازى مع الفكر التربوى المعاصر •

٣- مامدى الاستفادة من المفاهيم التربوية عند فخر الدين الرازى في بناء التربية الاسلامية في العصر الحاضر ؟

حـدود الدراسـة :

ستكون الدراسة في حدود كتاب التفسير الكبير للامام فخر الدين الرازى والاقتصار على المفاهيم التربوية التي وردت فيه ، علما بأن عدد أجزاء الكتاب ٣٢ جزءا •

معانـي المصطلحـات :

١ - الأصالـــة :

الأصالة في هذا البحث تعني مدى الالتزام بالأسس التربوية المتضمنة في القرآن الكريم والسنة المطهرة •

٢ - المعاصـــرة :

المعاصرة فى هذا البحث تعني تلبية الأفكار التربوية لحاجات العصر الذى نشأت فيه ومواجهة التحديات التي جاء بها •

الدراســـات السابقـــــة :

لم يعثر الباحث - في حدود بحثه - على دراسات سابقة تتعلق بالفكر التربوى عند فخر الدين الرازي سوى بحث مختصر تقدم به رشيد عبدالرزاق الصالحي ونشره مكتب التربية العربي لدول الخليج في كتاب (من أعلام التربية العربية الاسلامية ١٤٠٩هـ بعنوان الامام فخر الدين محمد بن عمر الخطيب الرازى) ، اشتملت هذه الدراسة على النقاط التالية :-

١ - السيرة الذاتية لشخصية الفخر الرازى •

٢ - البيئة الحضرية التي عاش فيها •

٣ - الانتاج الفكرى له •

٤ - بعض الاستنتاجات عما يدعو اليه والمستخرجة من انتاجه الفكرى الوارد فى بعض ماتيسر من مصادر •

وقد اشتمل هذا البحث على نبذة مختصرة عن فخر الدين الرازى وشيوخه وعلمه ومؤلفاته وشخصيته وانتاجه الفكرى عموما ، وأخيرا بعض آرائه التربوية والعلمية •

وهذا البحث مختصر جدا في حدود ٢٤ صفحة بل ان الآراء التربوية لاتتجاوز تسع صفحات ، وهي آراء عامة لاتوضح مفاهيم تربوية ولاتعرض تطبيقات ، وانما هي تعميمات عامة •

والباحث هنا يأمل أن تكون دراسته أكثر استقصاءً وشمولاً وتفصيلاً وأن تكون أكثر عمقا ودقة •



الفصل الثاني

سيرة الإمام فخر الدين الرازي

١ – نشأته وبيئته العلمية

٢ – شخصيته

٣ – عقيدته ومذهبه

٤ – منهجه ومؤلفاته

٥ – ثقافته ومصادرها

٦ – مكانته بين علماء عصره

سـيرة الإمام فخر الدين الرازي

المفكر ابن عصره ووليد بيئته يتأثر بها ويؤثر فيها ٠

وفخر الدين الرازي ذو شخصية متميزة وذو قدرات متعددة ، استوعب عصره من كل نواحيه ، وتفاعل معه وتأثر به ، ثم صار ذا فكر متميز وذا قدرة على التأثير ، فاستعمل فكره ولسانه وقلمه محاولا التغيير إذا دعت الحاجة إليه ، أو الإضافة ، من أجل الإسهام في البناء الحضاري الإسلامي ، وكان الرازى مبدعا في ذلك ، وساعده على الإبداع أنه كان منفتحاً على ثقافة عصره ، فتمثلها ، ثم استخدم عقله وفكره في البناء والتجديد مع الحفاظ على أصالته الإسلامية ٠

والفكر التربوي لدى الرازي جزء من فكره الشامل الذى عالج فيه كثيراً من القضايا الناتجة عن الظروف السياسية والإقتصادية والإجتماعية والعلمية ٠

ولكي نفهم فكره التربوي ، فلابد أن نتعرف أولاً على العوامل التي أثرت في شخصيته وفكره خلال مراحل عمره المختلفة ابتداء من أسرته التي نشأ فيها ، ثم المجتمع الكبير الذى تفاعل معه طوال سني حياته ٠

وفيما يلي تفصيل لهذه العوامل المذكورة :

نسـبه ولقبـه :

هو محمد بن عمر بن الحسين بن الحسن بن علي فخر الدين أبو عبدالله القرشي التيمي البكري الطبرستاني الأصل الرازي المولد ابن خطيب الري الشافعي الأشعري ٠ (الصفدي - ١٣٩٤هـ - ج ٤ ص ٢٤٨) ٠

ومعظم المصادر تتفق مع الصفدي في نسب ولقب فخر الدين الرازي ٠

والرازي نسبة إلى مدينة « الري » التي ولد فيها ، والطبرستاني نسبة إلى بلدة « طبرستان » ، نسب إليها لأن أسرته كانت فيها قبل أن غادرتها للإقامة في الري ،

والقرشي نسبة إلى قبيلة قريش ، والتيمي نسبة إلى تيم قريش قبيلة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ٠ (العلواني - ١٣٩٩هـ - ج ١ ص ٣٢-٣٤) ٠

وبهذا يتضح أن فخر الدين الرازي عربي الأصل ، يصل في نسبه إلى أبي بكر الصديق من قريش ٠

مولده ونشأته وبيئته العلمية :

ولد فخر الدين الرازي في الخامس والعشرين من رمضان سنة أربع وأربعين وقيل ثلاث وأربعين وخمسمائة هجرية بالري ٠ (اليافعي - ١٣٩٠هـ - ج ٤ ص ١١)٠

وتوافرت لفخر الدين الرازي البيئة العلمية المناسبة لميوله وقدراته ، فنشأ في بيت علم وفضل ، فوالده الشيخ عمر كان عالماً كبيراً متميزاً بين علماء عصره ، وكان يشتغل بالتدريس والوعظ والخطابة ، وكان الناس يجتمعون عنده ليستفيدوا من وعظه وعلمه وأدبـه ٠

ولابد أن يكون ابنه فخر الدين الرازي أكثر التلاميذ استفادة من أبيه الذي تولى تعليمه وتربيته منذ نعومة أظفاره ، ولابد أن يكون قد استفاد منه علماً وسلوكاً وأدباً ، فالابن - كما يقال - سر أبيه ٠ يقول ابن أبي أصيبعة (١٩٦٥م) : << ويحدثني نجم الدين يوسف بن شرف الدين علي بن محمد الاسفزاري ، قال : كان الشيخ الإمام ضياء الدين عمر والد الامام فخر الدين من الري وتفقه واشتغل بعلم الخلاف والأصول حتى تميز تميزاً كثيراً وصار قليل المثل ، وكان يدرس بالري ويخطب في أوقات معلومة هنالك ، ويجتمع عنده خلق كثير لحسن مايورده وبلاغته ، حتى اشتهر بذلك بين الخاص والعام في تلك النواحي ، وله تصانيف عدة توجد في الأصول وفي الوعظ وغير ذلك >> ٠ (ص ٤٦٥)٠

ولازم فخر الدين والده منذ طفولته يتعلم على يديـه ولم يفارقـه إلى أن تـوفي ٠ (ابن خلكان - بدون تاريخ - ج ٤ ص ٢٥٠) ٠

وكانت وفاة الشيخ ضياء الدين عمر والد فخر الدين الرازي سنة ٥٥٩هـ . (البغدادي - ١٩٥١م . ج ١ ص ٧٨٤).

وكانت مدينة الري - التي نشأ فيها فخر الدين الرازي - مسرحا للحركة العلمية في مختلف العلوم والمعارف، وصارت للمذاهب والأفكار والآراء تتلاقح في هذه البيئة، وقد تأثر الرازي بهذا الجو العلمي المشحون بشتى ألوان الثقافات، فالري تعد نموذجاً مصغرا لكل ما في البيئة الإسلامية الكبرى من الآراء والمذاهب والعلوم المختلفة. (العلواني - ١٣٩٩هـ - جا ص ٣١) .

شيوخه :

تدل العلوم الكثيرة التي برع الرازي فيها على أنه تتلمذ على عدد كبير من شيوخ العلم في تخصصات مختلفة، لكن أبرز أولئك الشيوخ هم :-

١ - والده الشيخ ضياء الدين عمر الذي تقدم ذكره، فهو شيخه في علم الأصول، وهو معلمه الأول الذى تولى تنشئته ولقنه أساسيات العلوم التي يبدأ بها الناشيء عادة، وتأتي بعد ذلك العلوم التي تحتاج إلى سن أكبر مثل علم الأصول والاشتغال بالمذهب، وكان ذلك - أيضا - على يد والده . (ابن خلكان - بدون تاريخ - ج ٤ ص٢٥٢) .

٢ - أما شيخه في الفقه فهو الكمال السمناني الذى لازمه حتى برع على يديه في علم الفقه . (السبكي - بدون تاريخ - ج ٨ ص ٨٦) .

٣ - وأستاذه في الحكمة وعلم الكلام المجد الجيلي صاحب محمد بن يحي الفقيه أحد تلامذة الإمام حجة الاسلام أبي حامد الغزالي فقد صحب المجد هذا مدة طويلة حتى برع في علم الكلام والحكمة وأصبح من أعلامهما . (اليافعي - ١٣٩٠هـ - ج ٤ - ص ٨) .

ويشيد ابن أبي أصيبعة بمجدالدين الجيلي ويصفه بأنه كان من أفاضل العظماء في زمانه وله مصنفات جليلة القدر ٠ (ابن أبي أصيبعة - ١٩٦٥هـ - ص ٤٦٢)٠

هؤلاء بعض شيوخ فخر الدين الرازي الذين صحبهم ولازمهم مدة طويلة حتى استطاع تحصيل ما عندهم من المعرفة بالإضافة إلى حرصه على التعلم الذاتي بواسطة الاطلاع والقراءة المستمرة ، فهو لايكل ولايمل ، ولايضيع شيئا من وقته ، وكان يتحسر أشـــد التحسر على أي جزء من الوقت يذهب دون أن يحصّل فيه علما حتى

أنه يتأسف على الوقت الذي يقضيه في تناول الطعام ، لأنه يشغله عن العلم ٠ (ابن أبي أصيبعة - ١٩٦٥م - ص ٤٦٢) ٠

وتتلمذ الرازي على كتب العلماء السابقين على عصره مثل : إمام الحرمين ، وأبي حامد الغزالي ، وأبي الحسين البصري ، فكان يحفظ الشامل في أصول الدين لإمام الحرمين ، والمستصفى في أصول الفقه للغزالي ، وكتاب المعتمد لأبي الحسين البصري ٠ (اليافعي - ١٣٩٠هـ - ج ٤ ص ٩٠٨) ٠

ويتضح أن الرازي قد اتبع أسلوبين في التعلم ، الأسلوب الأول : أسلوب الصحبة فلازم أباه وصحبه حتى توفي ، وبعد ذلك صحب الكمال السمناني حتى تفقه على يديه ، ثم صحب المجد الجيلي مدة طويلة حتى تمكن من علم الكلام والحكمة ، وهذا الأسلوب من أهم الأساليب التربوية التي يعوّل عليها المسلمون منذ القدم ، فالصحبة لها أثرها في سلوك المتعلم ، ولها أثرها في فهم المادة العلمية ، فالمتعلم يستفيد من صحبته للمعلم السلوك الحسن والممارسة حيث يجد البيئة التي تساعده على الممارسة والتطبيق مما يحقق أهداف التعليم ، وقد كان للصحبة أثرها العظيم في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، حيث تميز الجيل الذي صحبه وتعلم على يديه على غيره من الأجيال ، فبتلك الصحبة نال الشرف والفضل والقدرة على تطبيق العلم الذي تعلمه من الرسول صلى الله عليه وسلم ٠ (الكيلاني - ١٤٠٥هـ - ص ٦٦) ٠

الأسلوب الثاني : أسلوب الرحلة ، فقد رحل الرازي من أجل طلب العلم ، حيث ترك الري بعد وفاة والده وقصد الكمال السمناني ، ثم عاد إلى الري وتعلم على

للجد الجيلي ، ورحل معه إلى مراغة ليكمل تعليمه الذى بدأه على يديه ، وبهذا يكون قد جمع بين الصحبة والرحلة .

والرحلة من الأساليب المؤثرة في المتعلم ، سواء في نمو الناحية المعرفية لديه أو في التطبيق العملي الذى يكتسبه نتيجة تفاعله مع من يحتك بهم ويجالسهم .

شخصية فخر الدين الرازي :

يمتلك فخر الدين الرازي مقومات شخصية أكسبته الشهرة والبروز بين علماء عصره ، فهو ذو ذكاء خارق وعبقرية فذة ، وهو عالم متمكن لا في علم واحد بل في عدد من العلوم ، ومؤلف بارع متمكن في فنون كثيرة ، وصاحب طريقة وأسلوب متميز ، وذو إرادة وعزيمة قوية ، ولديه الصبر والحرص والمواظبة على الاطلاع والقدرة على الفهم والاستيعاب ، وهو مناظر ومحاور قوي الحجة يدعم رأيه بالدليل والبرهان للقنع ، وقد وُصف بحرصه الشديد في العلوم الشرعية والحكمية ، وأنه كان يملك **عدداً من الصفات لم تتوافر مجتمعة في غيره وهي : سعة العبارة في القدرة على التعبير** ، وصحة الذهن ، والاطلاع الذي ماعليه مزيد ، والحافظة المستوعبة ، والذاكرة التي تعينه على مايريده في تقرير الأدلة والبراهين ، والقوة الجدلية ، ودقة النظر . (الصفدى - ١٣٩٤هـ - ج ٤ ص ٢٤٨) .

والرازي شخصية تربوية يمتلك شروط المربي الناجح مما أهله ليكون مربياً لتلاميذه ومرشداً وموجهاً اجتماعياً مؤثراً ، مما جعل الناس يفدون إليه من كل النواحي على اختلاف مطالبهم فى العلوم حيث كان واسع الثقافة في سائر العلوم الشرعية والحكمية ، جيد الفطرة ، حاد الذهن ، حسن العبارة ، متمكنا في علم الطب ومباحثه ،عارفاً بالأدب ، يقول الشعر بالفارسية والعربية . (ابن أبي أصيبعة - ١٩٦٥م - ص ٤٦٢) .

ويتسم الرازي بالاخلاص والتقوى ، ويتأثر كثيراً وهو يعظ ، فيبكي ويُبكي سامعيه . (ابن خلكان - بدون تاريخ - ج ٤ ص ٢٤٩) .

وبالإضافة إلى ماتقدم فإن الرازي له من الصفات الجسمية والخلقية اللازمة ماجعله معلماً متكامل الشخصية ، فكان ربع القامة عبل الجسم كبير اللحية جهوري الصوت ذا وقار وحشمة وبزة حسنة وهيئة جميلة . (ابن العماد الحنبلي - ١٣٥١هـ - ج ٥ ص ٢١) .

وعظمت منزلة الرازي في نفوس طلابه وأصحابه ، حيث استطاع - بشخصيته الفذة - أن يجذب إليه الناس ، ويبني بينه وبينهم علاقة قوية متصلة ، وهذا هو شأن المربي والداعية الناجح الذى يريد أداء رسالته العلمية ويحصل على القبول من تلاميذه ومجتمعه ، فيحاول بناء الروابط والعلاقات المتينة التي تربطه بهم وتشدهم إليــه .وقد تحقق هذا الأمر للرازي ، فنال من الإعجاب والتقدير مالم يكن له نظير . (كبرى زاده - ١٣٩٧هـ - ج ١ ص ٤٩١) .

وتوافرت للرازي شخصية الداعية ، فهو متمكن في علمه ، قوي في تأثيره ، جذاب في كلامه ، مقنع في أسلوبه ، ذو عاطفة جياشة صادقة ، وكان يتبع في دعوته أسلوب الموعظة الحسنة واللطف واللين ، مما جعل الكثيرين من أصحاب المبادئ المنحرفة يتوبون ويرجعون إلى الصواب على يديه . (ابن خلكان - بدون تاريخ - ج ٤ ص ٢٤٩ ، ٢٥٠) .

وتتضح شخصية الرازي التربوية من خلال مجلسه العظيم الذى كان يقيمه للتدريس، وكان له طريقة تربوية خاصة يستخدمها مع تلاميذه وطلابه ، وتسمى في العصر الحديث طريقة النشاط ، فالرازي يمكّن طلابه من الحوار والنقاش فيما بينهم ويعطي الذين لديهم مستوى علمي أرفع الفرصة ليناقشوا ويحاوروا أصحاب المستويات الأدني ، وشيخهم الرازي يتابع ويلاحظ مايدور بين الطلاب ولايتدخل إلا حين يشتد النقاش ويستغلق الفهم ويستشرف الجميع إلى الحل والإجابة الشافية ، فيتدخل الرازي ويجيب بأفضل وأحسن إجابة فيتمكن الفهم لدى الطلاب ، نتيجة هذا الأسلوب التعليمي الرائع . (ابن أبي أصيبعة - ١٩٦٥م - ص ٤٦٢) .

عقيدة الرازي ومذهبه :

على الرغم من وقوع فخر الدين الرازي في أمور تخالف مذهب أهل السنة إلا أنه اشتهر بمناظراته لأصحاب الملل والمذاهب المنحرفة مثل المعتزلة ، والمرجئة ، والخوارج ، والشيعة - بطوائفها المختلفة - والرافضة ، والكرامية ، والفلاسفة ، وغيرهم والمتبع لتفسيره (التفسير الكبير) يجد كثيراً من رده على أصحاب هذه المذاهب حيث يورد شبههم ثم يرد عليها • ويعد هذا الصنيع من حسنات الرازي ، لكنه مع ذلك وقع في أخطاء ومخالفات تعتبر خروجاً عن مذهب أهل السنة • ويبدو أن علم الكلام قد أثر على تفكيره مما جعله يُعمل عقله في أمور لا سبيل إلى معرفتها إلا بطريق النقل ، فهو أثناء تفسيره يؤول بعض صفات الله تعالى ، فتجده - مثلا - في التفسير الكبير عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ (طه ٥) - يفسر الاستواء بمعنى القدرة ، فيقول بعد مناقشته لبعض الأقوال : << والجواب أنا إذا فسرنا الاستيلاء بالاقتدار زالت المطاعن بالكلية >> • وهو - بهذا التأويل - يفر من تفسير الاستواء بالاستيلاء إلى تفسيره بالاقتدار ، لكنه فر من خطأ إلى خطأ آخر ، فتفسيره الاستواء بالقدرة مخالف لما عليه أهل السنة والجماعة الذين يؤمنون بأن استواء الله على عرشه حقيقة لا يجوز التأويل فيها ، فالله تعالى مستو على عرشه استواءً يليق بجلاله ، فالاستواء معلوم والكيف مجهول ، يقول ابن تيمية في الفتاوى (بدون تاريخ) :

<< والقول الفاصل : هو ما عليه الأمة الوسط ، من أن الله مستو على عرشه استواء يليق بجلاله ، ويختص به >> ج ٥ ص ٢٨ •

ويقول ابن تيمية أيضاً : (نفس المصدر) : إن الإمام مالك قال : << الاستواء غير مجهول ، والكيف غير معقول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة >> ج ٥ ص ٤١ •

ومذهب السلف هو امرار الصفات كما جاءت في الكتاب والسنة من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل • يقول ابن كثير في تفسيره (١٤٠١هـ) : << وأما قول الله تعالى : ﴿ ثم استوى على العرش ﴾ فللناس في هذا المقام مقالات كثيرة جداً ليس

هذا موضع بسطها وإنما نسلك في هذا المقام مذهب السلف الصالح مالك والأوزاعي والثوري والليث بن سعد والشافعي وأحمد وإسحاق بن راهويه وغيرهم من أئمة المسلمين قديماً وحديثاً وهو إمرارها كما جاءت من غير تكييف ولاتشبيه ولاتعطيـل ›› ج ٢ ص ٢٢١ ٠

ويظهر من تأويل الرازي في الصفات أنه كان على مذهب الأشاعرة ٠

والذي يشفع للرازي أنه تاب ورجع عن اعتقاده الذي كان يقول به في الصفات وقد ذكر ذلك عدد من المؤرخين والعلماء ، وذكرت معظم المصادر وصيته التي أعلن فيها توبته والتزامه بما جاء في الكتاب والسنة عن الأسماء والصفات ٠

ومن المؤرخين الذين ذكرواعودة الرازي إلى منهج أهل السنة (ابن العماد الحنبلي - ١٣٥١هـ - ج ٥ ص ٢١ ، ٢٢) و (الصفدي- ١٣٩٤هـ - ج ٤ ص ٢٥٠) و (الحافظ الذهبي - ١٤٠٤هـ - ج ٢١ ص ٥٠١)٠

ومما يدل على إنابة فخر الدين الرازي وعودته إلى الاعتقاد الصحيح في صفات الله تعالى ماذكره أحد أعلام أئمة أهل السنة والجماعة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية إذ يقول: (بدون تاريخ):

‹‹ وكذلك أبو عبدالله محمد بن عمر الرازي قال في كتابه الذي صنفه في (أقسام اللذات): لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيتها تشفي عليلاً ، ولاتروي غليلاً ، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن : اقرأ في الإثبات ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾ (طه ٥) ، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ (فاطر ١٠) ، واقرأ في النفي ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ (الشورى ١١) ، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا﴾ (طه ١١٠) ، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ (مريم ٦٥) ، ثم قال : ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي ›› ج ٤ ص ٧٢ ، ٧٣ ٠

ولفخر الدين الرازي وصية طويلة مؤثرة تدل - إن شاء الله - على تقواه وحسن نهايته ، ويرى الباحث اثباتها هنا ، لما فيها من الدلالة على رجوع الرازي إلى طريق الصواب ، ولما فيها من دروس تربوية مفيدة للمربين على اختلاف مسئولياتهم التربوية

وقد أثبت كثير من المؤرخين هذه الوصية في كتب التراجم •

وإليك هذه الوصية كما ذكرها ابن أبي أصيبعة (١٩٦٥م) :

وكان أكثر مقام الشيخ فخر الدين بالري ، وتوجه إلى بلدة خوارزم ومرض بها ، وأملى في شدة مرضه وصيته على تلميذه إبراهيم بن أبي بكر بن علي الأصفهاني ، وذلك في يوم الأحد الحادي والعشرين من شهر المحرم سنة ست وستمائة •

وامتد مرضه إلى أن توفي يوم العيد غرة شوال من السنة المذكورة • وهذه نسخة الوصية :

بسم الله الرحمن الرحيم

يقول العبد الراجي رحمة ربه الواثق بكرم مولاه ، محمد بن عمر بن الحسين الرازي وهو في آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، وهو الوقت الذي يلين فيه كل قاس ، ويتوجه إلى مولاه كل آبق :

إني أحمده تعالى بالمحامد التي ذكرها أعظم ملائكته في أشرف أوقات معارجهم ، ونطق بها أعظم أنبيائه في أكمل أوقات مشاهدتهم ، بل أقول كل ذلك من نتائج الحدوث والامكان •

فأحمده بالمحامد التي تستحقها ألوهيته ، ويستوجبها لكمال الموهبة ، عرفتها أم لم أعرفها لأنه لامناسبة للتراب مع جلال رب الأرباب ، وأصلي على الملائكة المقربين ، والأنبياء المرسلين ، وجميع عباد الله الصالحين •

ثم أقول بعد ذلك : اعلموا إخواني في الدين ، وأخواني في طلب اليقين : ان الناس يقولون الإنسان إذا مات انقطع تعلقه عن الخلق ، وهذا العام مخصوص من وجهين : الأول : أنه إن بقي منه عمل صالح صار ذلك سببا للدعاء ، والدعاء له أثر عند الله • والثاني : مايتعلق بمصالح الأطفال والأولاد والعورات ، وأداء المظالم والجنايات •

أما الأول فاعلموا أني كنت رجلاً محباً للعلم فكنت أكتب في كل شيء شيئاً لاأقف على كمية وكيفية سواء كان حقاً أو باطلاً أو غثاً أو سميناً ٠ إلا أن الذى نظرته في الكتب المعتبرة لي ، أن هذا العالم المحسوس تحت تدبير مدبر منزه عن مماثلة المتحيزات والأعراض ، وموصوف بكمال القدرة والعلم والرحمة ٠ ولقد اختبرت الطرق الكلامية ، والمناهج الفلسفية ، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم ، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ، ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات ، وماذاك إلا العلم بأن العقول البشرية تتلاشى وتضمحل في تلك المضايق العميقة ، والمناهج الخفية فلهذا أقول : كلما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده ووحدته وبراءته عن الشركاء في القدم والأزلية ، والتدبير والفعالية ، فذاك هو الذى أقول به وألقى الله تعالى به ٠ وأما ماانتهى الأمر فيه إلى الدقة والغموض ، فكل ماورد في القرآن والأخبار الصحيحة المتفق عليها بين الأئمة المتبعين للمعنى الواحد ، فهو كما هو ٠ والذى لم يكن كذلك أقول : ياإله العالمين إني أرى الخلق مطبقين على أنك أكرم وأرحم الراحمين ، فلك مامر به قلمي أو خطر ببالي فاستشهد علمك ٠ وأقول : إن علمت مني أني أردت به تحقيق باطل أو إبطال حق فافعل بي ماأنا أهله ، وإن علمت مني أني ماسعيت إلا في تقرير مااعتقدت أنه هو الحق ، وتصورت أنه الصدق ، فلتكن رحمتك مع قصدي لامع حاصلي ، فذاك جهد المقل ، وأنت أكرم من أن تضايق الضعيف الواقع في الزلة ٠ فاغثني ، وارحمني ، واستر زلتي ، وامح حوبتي ، يامن لايزيد ملكه عرفان العارفين ، ولاينتقص بخطأ المجرمين ٠

وأقول : ديني متابعة محمد سيد المرسلين ، وكتابي هو القرآن العظيم ، وتعويلي في طلب الدين عليهما ٠ اللهم ياسامع الأصوات ، ويامجيب الدعوات ، ويامقيل العثرات ، ويا راحم العبرات ، وياقيام المحدثات والممكنات ٠ أنا كنت حسن الظن بك ، عظيم الرجاء في رحمتك ، وأنت

قلت : أنا عند ظن العبد بي ، وأنت قلت : ﴿ أمن يجيب المضطر إذا دعــاه ﴾ ، وأنت قلت : ﴿ وإذا سألك عبادي عني فإني قريب ﴾ . فهب أني ماجئت بشيء فأنت الغني الكريم ، وأنا المحتا ج اللئم . وأعلم أنه ليس لي أحد سواك ، ولاأجد محسناً سواك ، وأنا معترف بالزلة والقصور، والعيب والفتور ، فلاتخيب رجائي ، ولاترد دعائي ، واجعلني آمناً من عذابك قبل الموت وعند الموت وبعد الموت ، وسهل علي سكرات الموت ، وخفف عني نزول الموت ، ولاتضيق علي بسبب الآلام والأسقام ، فأنت أرحم الراحمين .

وأما الكتب العلمية التي صنفتها أو استكثرت من إيراد السؤالات على المتقدمين فيها ، فمن نظر في شيء منها فإن طابت له تلك السؤالات فليذكرني في صالح دعائه ، على سبيل التفضل والانعام ، وإلا فليحذف القول السيء فإني ماأردت إلا تكثير البحث وتشحيذ الخاطر ، واعتمادي فيه على الله تعالى .

وأما المهم الثاني وهو إصلا ح أمر الأطفال والعورات فاعتمادي فيه علي الله تعالى ، ثم على نائب الله محمد . اللهم اجعله قرين محمد الأكبر في الدين والعلو ، إلا أن السلطان الأعظم لايمكنه أن يشتغل باصلا ح مهمات الأطفال ، فرأيت الأولى أن أفوض وصاية أولادي إلى (فلان) ، وأمرته بتقوى الله تعالى ، فإن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

وسرد الوصية إلى آخرها ، ثم قال :

وأوصيه ثم أوصيه بأن يبالغ في تربية ولدي أبي بكر ، فإن آثار الذكاء والفطنة ظاهرة عليه ، ولعل الله تعالى يوصله إلى خير . وأمرته وأمرت كل تلامذتي وكل من عليه حق أنني إذا مت يبالغون في إخفاء موتي ولايخبرون أحداً به ويكفنوني ويدفنوني على شرط الشرع ويحملونني إلى الجبل المصاقب لقرية مزداخان ، ويدفنوني هناك ، وإذا وضعوني في اللحد قرأوا علي ماقدروا عليه من آيات القرآن ، ثم ينثرون

التراب علي ٠ وبعد الاتمام يقولون : ياكريم جاءك الفقير المحتاج فأحسن إليه ٠ وهذا منتهى وصيتي في هذا الباب ، والله تعالى الفعال لما يشاء ، وهو على مايشاء قدير وبالاحسان جدير ٠ ص ٤٦٦-٤٦٨ ٠

وعلق الصفدي على وصية الرازي هذه فقال (١٣٩٤هـ) : << قلت : ومن وقف على هذه الألفاظ علم ماكان عليه هذا لإمام من صحة الاعتقاد ويقين الدين واتباع الشريعة المطهرة >> ج ٤ ص ٢٥١ ٠

ويقول ابن خلكان (بدون تاريخ) عن وصية الرازي : << ورأيت له وصية أملاها في مرض موته على أحد تلامذته تدل على حسن العقيدة >> ج٤ ص ٢٥٢ ٠

أما الدروس التربوية المستفادة من وصية الرازي فستجدها في الفصل التاسع من هذه الرسالة ، في (مدى الاستفادة من المفاهيم التربوية لدى الرازي في الوقت الحاضر) ٠

أما مذهب الرازي في الفقه ، فهو شافعي المذهب ، فقد ترجم له السبكي في كتابه (طبقات الشافعية الكبرى) وهو كتاب خاص بأتباع مذهب الشافعي ، ووصفه ابن خلكان ٠ (المرجع السابق) بقوله : << الفقيه الشافعي >> ج ٤ ص ٢٤٩ ٠ وقال عنه ابن كثير (بدون تاريخ) : << المعروف بالفخر الرازي ٠٠٠ ، أحد الفقهاء الشافعية المشاهير بالتصانيف الكبار والصغار >> (ج ١٣ ص ٦٦) ٠

وفاتـــــه :

أجمعت المصادر التاريخية على أن وفاة الإمام فخر الدين الرازي كانت يوم الاثنين في يوم عيد الفطر سنة ٦٠٦هـ بمدينة << هراة >> ودفن آخر النهار في الجبل المصاقب لقرية مزداخان ، رحمه الله تعالي ٠ (ابن خلكان - بدون تاريخ - ج ٤ ص ٢٥٢) ٠

وقيل إن السبب في وفاته أن طائفة الكرامية وضعوا له سماً فمات على أثر ذلك وكان بينه وبين هذه الفرقة عداء شديد حيث كان الرازي يتعرض لمذهبهم ويزري بهم. (اليافعي - ١٣٩٠هـ - ج ٤ ص ٩).

منهج الرازي ومؤلفاته :

لم يترك فخر الدين الرازي لوناً من ألوان المعرفة في عصره إلا اطلع عليه وخاض غماره ، ولم يقف الرازي عند حد القراءة بل تجاوز ذلك ، فدرس تلك المعارف واستوعبها ومحصها ، ثم بدأ يؤلف في تلك الفنون العديدة ، فكان له اسهامه الضخم في الانتاج الفكري للحضارة الإسلامية ، ويتميز الرازي بتنوع وغزارة انتاجه حتى لايكاد يوجد له نظير في زمانه. (اليافعي - ١٣٩٠ - ج ٤ ص ٧).

واستجابة لثقافة الرازي المتعددة ألف في مختلف الفنون ، وكان مثالاً للباحث المدقق والعالم المحقق ، ولم يكن يجارى في البحث والصبر عليه ، ويمكن وصفه - كما يظهر من مؤلفاته - بأنه المفسر ، الفقيه ، الأصولي ، النحوي ، اللغوي ، الأديب ، الشاعر المتكلم ، الحكيم ، الطبيب. ولم يكن الرازي - على سعة العلوم التي ألف فيها - سطحي المعرفة بل عميق الفهم دقيق الملاحظة في كل فن ، فكأنه متخصص في كل علم. (العلواني - ١٣٩٩هـ - ج ١ ص ٣٨).

وحظيت مؤلفات الرازي بالرواج والانتشار والقبول لدى العلماء وطلاب العلم وآقبل الناس عليها ، لما تتسم به من التنوع وجمال الأسلوب وحسن الترتيب ، والطريقة الشيقة الجذابة ، فمؤلفات الرازي تتضمن الكثير من ثمار العلم وألوانه التي تجلب المتعة للقارئ فلا يمل ولايسأم ، حيث ينتقل عبر صفحاتها من فائدة إلى فائدة جديدة ، فيجد فيها مايلبي حاجاته ، ويحقق رغباته ، ويمكن وصفها على هذا النحو بأنها كتب تربوية تشتمل على المعاني والدروس التي تلبي حاجة المتعلم وتشده إلى المتابعة ، ولاأدل على ذلك من وصف ابن خلكان لكتب الرازي ، حيث وصفها بقوله (بدون تاريخ) : << وكل كتبه ممتعة ، وانتشرت تصانيفه

في البلاد ورزق فيها سعادة عظيمة • (ج ٤ ص ٢٤٩) •

منهجه :

أما منهج الرازي في كتبه فهو منهج فريد ، حيث يذكر للموضوع أو الفكرة التي يريد الحديث عنها ثم يفتح باب تقسيمها وقسمة كل فرع يتفرع عنها إلى أقسام ، ويستخدم أدلة السبر والتقسيم التي تضبط له المسائل المتفرعة عن المسألة الأولى فلايشذ عنها أي فرع له علاقة بها • ويصف الصفدي منهج الرازي في كتبه بقوله (١٣٩٤هـ) : << وهو أول من اخترع هذا الترتيب في كتبه وأتى فيها بما لم يسبق إليه ، لأنه يذكر المسألة ويفتح باب تقسيمها وقسمة فروع ذلك التقسيم ويستدل بأدلة السبر والتقسيم فلايشذ منه عن تلك المسألة فرع له بها علاقة فانضبطت له القواعد وانحصرت معه المسائل>> • (ج ٤ ص ٢٤٩) •

منهجه في التفسير الكبير :

بعد معرفة منهج الرازي في كتبه بشكل عام ينبغي معرفة منهجه في (التفسير الكبير) بصفة خاصة ، باعتباره الكتاب الذي من خلاله يستنتج الباحث الفكر التربوي لفخر الدين الرازي • ويتضح ذلك فيما يلي :

١ - يمتاز التفسير الكبير عن غيره من كتب التفسير بالأبحاث الفياضة الواسعة في أنواع من العلوم ، ولذلك وصفه ابن خلكان بأنه جمع في هذا التفسير كل غريب وغريبه • (ابن خلكان - بدون تاريخ - ج ٤ ص ٢٤٩) •

ووصفه اليافعي بأنه تفسير كبير جداً وأن فيه من الغرائب والعجائب مايطرب كل طالب • (اليافعي - ١٣٩٠ هـ - ج ٤ ص ٧) •

٢ - يفصل الرازي كثيراً في آيات الأحكام ، ويذكر مذاهب الفقهاء ويرجح بينها ، ويميل إلى مذهب إمامه الشافعي •

٣ - يهتم بالربط بين السور وكذلك بين الآيات ، فيبين في كثير من الحالات المناسبة بين السورة والسورة قبلها ، كما يبين العلاقة أو المناسبة بين الآية والآية السابقـــة •

٤ - يتطرق لأوجه الاعراب ، ويستعين به في تفسير بعض الألفاظ ، التي يختلف معناها تبعاً لأوجه الاعراب •

٥ - عقد الرازي في الجزء الأول من التفسير الكبير سبعة أبواب خصصها للحديث عن مسائل تتعلق باللغة مثل : الاشتقاق الأصغر ، والاشتقاق الأكبر ، والكلمة والكلام ، والألفاظ واستعمالاتها ، والحروف والأصوات •

ويهدف الرازي من ذلك إلى بيان العلاقة الوثيقة بين القرآن الكريم واللغة العربية ، فهي اللغة التي نزل القرآن بها ، والكثير من مسائل اللغة العربية مستنبطة من آيات القرآن ، يقول الرازي في التفسير الكبير (بدون تاريخ) : «الكتاب الأول : في العلوم المستنبطة من قوله : (أعوذ بالله من الشيطان الرجيـــم) : اعلم أن العلوم المستنبطة من هذه الكلمة نوعان : أحدهما المباحث المتعلقة باللغة والاعراب ، والثاني : المباحث المتعلقة بعلم الأصول والفروع » (ج١ ص ١٣) •

ثم أخذ الرازي يفصل في المباحث المتعلقة باللغة والاعراب تفصيلا يدل على براعته ومدى تمكنه في هذا العلم • يقول رشيد الصالحي (١٤٠٩هـ) في بحثه عن فخر الدين الرازي : « قد احاط بعلوم اللغة العربية واتخذ منها ومن خصائص هذه اللغة التي نزل بها القرآن الكريم أساساً للتعرف على معاني التنزيل ، وذلك واضح في تفسيره الكبير للقرآن الكريم » (جـ٣ ص ١٤٧ ، ١٤٨) •

٦ - يذكر آراء الفرق المخالفة عندما تكون هناك مناسبة ويرد عليها ، ولاسيما آراء المعتزلة فإنه يوردها ويفندها ويدعم رأيه بالدليل ، ويذكر كثيراً آراء المتكلمين ومذهبهم في التفسير ويميل إليه ٠

٧ - يتحدث عن طبيعة الإنسان ويكرر ذلك كلما جاءت مناسبة ، فتكلم عن خلق الإنسان ، وعن الروح والجسد والعلاقة بينهما ، وعن العقل ، وعن قوى النفس المختلفة ٠

٨ - يعرض أقوال المفسرين وآراءهم المختلفة ويناقشها ويرجح بعضها على بعض مستخدماً الأدلة التي تدعم الرأي الراجح ، ويخرج أحياناً من ذلك النقاش برأي خاص به ٠

٩ - يستخدم الرازي في تفسيره أسلوباً تربوياً ، وهو أسلوب التكرار ، فإذا مر بآية سبق تفسيرها أعاد ذلك التفسير بإيجاز ، وإذا تكرر معه ذلك مراراً اكتفى بالإشارة إلى أنه قد تقدم تفسيره أكثر من مرة ولاداعي إلى التكرار ٠

١٠ - يستخدم البراهين المنطقية والحجج العقلية في تفسيره ويحاول الجمع بين النقل والعقل ، وفي بعض الأحيان يقدم التفسير العقلي ، ولذلك عد تفسيره من التفاسير التي تعتمد على الرأي ٠

١١ - يتبع الرازي طريقة فريدة ، وذلك أنه يستوفي كل ماتستدعيه الآية من أوجه التفسير وأقوال المفسرين ، وأوجه الإعراب ، والأحكام الفقهية إذا كانت من آيات الأحكام ، ويجعل ذلك تحت مسائل ويتفرع عن كل مسألة مسائل فرعية عند الضرورة لتساعده على استيفاء الموضوع من جميع جوانبه ٠

١٢ - يفصل الرازي القول في آيات الأنفس والآفاق ، وهدفه من ذلك اثبات عظمة الخالق وقدرته : فالظواهر الكونية ومايجري فيها من قوانين هي من آثار قدرة الله تعالى ٠ يقول رشيد الصالحي (١٤٠٩هـ) : << من الآراء التي يستفاد منها في دراسة أمور الحياة - التربوية وغيرها - أن الرازي يهتم بالمسائل العلمية والأمور الكونية ويوسع معاني الاستدلالات القرآنية حسب المستوى الحضاري

في عصره ، واتبع قاعدة تربوية ثابتة اتبعها القرآن الكريم في الاستدلال بالأثر على المؤثر >> (ج ٣ ص ١٦٧) •

١٣ - وتفسير الرازي يحتوي على علوم كثيرة ، فهو موسوعة علمية يستفيد منها الباحثون في تخصصات مختلفة ؛ ففيه التفسير والفقه ، ومباحث تتعلق بالعقائد والمذاهب ، وفيه المباحث اللغوية ، والمباحث الكونية التي تدل على عجيب صنع الله تعالى وقدرته في خلق السماء والأرض والإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك ، وفيه الأفكار التربوية المختلفة •

ولكثرة ما في هذا التفسير من ألوان المعرفة قال شيخ الاسلام ابن تيمية : << فيه كل شيء إلا التفسير >> - وقد يكون قصد ابن تيمية - رحمه الله - أن الرازي أكثر من الاستطراد في العلوم الأخرى حتى طغت على الموضوع الأصلي الذي ألف الكتاب من أجله وهو التفسير • يقول الصفدي (١٣٩٤هـ) : << وقلت يوماً للشيخ الإمام العلامة قاضي القضاة أبي الحسن علي السبكي : قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية وقد ذكر تفسير الإمام (الرازي) : فيه كل شيء إلا التفسير ، فقال قاضي القضاة : ما الأمر كذا إنما فيه مع التفسير كل شيء >> (ج٤ص٢٥٤) •

مؤلفاتـــه :

مؤلفات فخر الدين الرازي كثيرة جداً ، تتراوح في أحجامها بين الكبير والصغير • وقد أوصل البعض عددها إلى مائتي كتاب • (ابن كثير - بدون تاريخ - ج ١٣ - ص ٦٦) •

وفيما يلي أشهر مؤلفاته :

١ - التفسير الكبير ، المسمى (مفاتيح الغيب) ، اثنان وثلاثون جزءاً في ستة عشر مجلدا ، والجزء الأول منه خاص بتفسير سورة الفاتحة ، مطبوع ، طبع المطبعة البهية بمصر ، وطبعته دار إحياء التراث العربي ببيروت •

وذكر يوسف اليان سركيس (١٣٤٦هـ) لفخر الدين الرازي المؤلفات الآتية •

٢ - أساس التقديس : رسالة في علم الكلام ، كتبها وأهداها إلى السلطان أبي بكر بن أيوب ، بسط الكلام فيها على تأويل المتشابهات من الآيات والأحاديث • طبعت في مطبعة كردستان سنة ١٣١٨هـ •

٣ - لباب الإشارات : هذب فيه الرازي كتاب الإشارات لابن سينا ،وعني بتصحيحه محمد بدر الدين النعساني ، طبعته مطبعة السعادة سنة ١٣٢٦ هـ •

٤ - اللوامع البينات في شرح أسماء الله تعالى والصفات ، طبع المطبعة الشرقية ١٣٢٣هـ •

٥ - محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين ، المطبعة الحسينية ١٣٢٣هـ •

٦ - معالم أصول الدين : موجود بهامش محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين •

٧ - مناقب الإمام الشافعي : طبع حجر مصر ، ١٢٧٩ هـ •

٨ - نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز : في علوم البلاغة وبيان إعجاز القرآن الكريم ، طبع مطبعة الآداب ، ١٣١٧ هـ •

وذكر حاجي خليفة في كشف الظنون (بدون تاريخ) المؤلفات التالية :

٩ - الأربعين في أصول الدين : في علم الكلام • ذكر الزركلي (١٩٨٤م) بأنه مطبوع •

١٠ - ارشاد النظار إلى لطائف الأسرار •

١١ - أسرار التنزيل وأنوار التأويل : وهو - كما ذكر الرازي - أربعة أقسام : الأول في الأصول ، والثاني في الفروع ، والثالث في الأخلاق ، والرابع في المناجاة والدعوات لكنه توفي قبل اتمامه • ذكر الزركلي (١٩٨٤م) أنه مخطوط •

١٢ - بحر الأنساب : وهو كتاب كبير•

١٣ - التحبير في علم التعبير .

١٤ - تحصيل الحق في الكلام .

١٥ - تهذيب الدلائل وعيون المسائل .

١٦ - الجمل في الكلام .

١٧ - حدائق الأنوار في حقائق الأسرار : فيه موضوعات ستين علماً ، ألفه للسلطان علاء الدين تكش الخوارزمي .

١٨ - الخمسين في أصول الدين : مختصر رتب على المسائل الخمسين ، أدرج فيه الدلائل الجلية والقواعد الأصولية . مطبوع .

١٩ - درة التنزيل وغرة التأويل : في الآيات المتشابهات (مجلد) تكلم فيه على الآيات المتكررة بالكلمات المتفقة والمختلفة التي يقصد الملحدون التطرق منها إلى عيبها ، وأجاب عنها .

٢٠ - الدلائل في عيون المسائل : في الكلام .

٢١ - زبدة المعالم في الكلام .

٢٢ - سقط الزند : وهو ديوان شعر تزيد أبياته على ثلاثة آلاف بيت لأبي العلاء أحمد بن عبدالله المعري المتوفى سنة ٤٤٩هـ . شرحه الإمام فخر الدين الرازي.

٢٣ - عيون الحكمة : لأبي علي حسين بن عبدالله بن سينا المتوفى سنة ٤٢٨هـ ، شرحه الإمام فخر الدين الرازي .

٢٤ - كتاب النفس .

٢٥ - المشيخة الفخرية .

٢٦ - المطالب العالية : في الكلام . ذكر الزركلي (١٩٨٤م) أنه مخطوط .

٢٧ - المعالم في أصول الفقه ٠

٢٨ - المعالم في الكلام ٠

٢٩ - الملخص : في الحكمة والمنطق ٠

٣٠ - المنطق الكبير : وهو من الكتب المبسوطة في علم المنطق ٠

٣١ - نهاية العقول في الكلام في دراية الأصول : يذكر الزركلي (١٩٧٤م) أنه مخطوط ٠

٣٢ - الوجيز : في الفروع - لأبي حامد الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ ، شرحه فخرالدين الرازي ٠

وذكر الزركلي (١٩٨٤م) المؤلفات التالية :

٣٣ - الآيات البينات ، مع شرح ابن أبي الحديد له ، مخطوط ، في خزانة الأسكوريال المجموعة ٣٣ ٠

٣٤ - المباحث المشرقية : مطبوع ٠

٣٥ - الإعراب : مخطوط ، في ستربتي ، الرقم ٣٣٧٤ ٠

٣٦ - أنموذج العلوم : مخطوط ٠

ومن الكتب التي طبعت حديثاً لفخر الدين الرازي مايلي :

٣٧ - المحصول في علم أصول الفقه : دراسة وتحقيق طه جابر فياض العلواني ، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، طبعة أولى ١٣٩٩هـ ٠

٣٨ - عجائب القرآن : تحقيق أحمد بن عبدالقادر أحمد عطا ، مطبوع طبعة أولى ١٤٠٢هـ ، دار الكتب الإسلامية ، القاهرة ٠

٣٩ - عصمة الأنبياء : تقديم ومراجعة محمد حجازي ، نشرته مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة ، طبعة مطبعة المدني بالقاهرة ، طبعة أولى ١٤٠٦هـ ٠

٤٠ - الفراسة : تحقيق وتعليق مصطفى عاشور ، طبع ونشر مكتبة القرآن بالقاهرة.

٤١ - قصة السحر والسحرة في القرآن الكريم : حققه وقدم له وعلق عليه محمد إبراهيم سليم ، مكتبة الساعي ، الرياض .

هذه هي مؤلفات فخر الدين الرازي التي وجد الباحث تفصيلاً عنها فيما تيسر له من مراجع حديثة . وهناك مؤلفات أخرى لم يعثر الباحث على تفصيل لها فيما وجده من مصادر سواء كانت قديمة أم حديثة ، غير أن أكثر المصادر استيفاءً لمؤلفات الرازي - من حيث عددها - مصدران هما :

الوافي بالوفيات للصفدي ، ج ٤ ط ٢ ، ١٣٩٤هـ ، وطبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة ، ط ١٩٦٥ م . وفيما يلي ماتبقى من مؤلالفات الرازي كما وردت في هذين المصدرين .

٤٢ - الخلق والبعث : مجلد .

٤٣ - البيان والبرهان في الرد على أهل الزيغ والطغيان .

٤٤ - المنتخب في أصول الفقه . مجلد .

٤٥ - النهاية البهائية في المباحث القياسية . بالفارسية .

٤٦ - أجوبة المسائل النجارية .

٤٧ - الطريقة العلائية في الخلاف . أربع مجلدات .

٤٨ - إبطال القياس .

٤٩ - الملل والنحل .

٥٠ - المباحث العمادية في المطالب المعادية .

٥١ - ارشاد النظار إلى لطائف الأسرار .

٥٢ - فضائل الصحابة .

٥٣ - القضاء والقدر .

٥٤ - ذم الدنيا .

٥٥ - نفثة المصدور .

٥٦ - إحكام الأحكام .

٥٧ - الرياض المونقة .

٥٨ - تعجيز الفلاسفة : باللغة الفارسية .

٥٩ - الأخـــلاق .

٦٠ - اللطائف الغياثية .

٦١ - الرسالة الكمالية في الحقائق الإلهية : باللغة الفارسية ، عرّبها تاج الدين الأرموي ، ألفها لكمال الدين محمد بن ميكائيل .

٦٢ - رسالة الجوهر الفرد .

٦٣ - ترجيح مذهب الشافعي وأخباره .

٦٤ - اختصار دلائل الإعجاز .

٦٥ - المحرر في النحو .

٦٦ - شرح كتاب المفصل للزمخشري في النحو ، لم يتمه .

٦٧ - شرح ديوان المتنبي .

٦٨ - شرح نهج البلاغة ، لم يتمه .

٦٩ - المختص : في مجلدين .

٧٠ - شرح كليات القانون : لم يتم ، وألفه للحكيم ثقة الدين عبدالرحمن بن عبدالكريم السرخسي ٠

٧١ - كتاب الجامع الكبير : لم يتم ، ويعرف أيضاً بكتاب الطب الكبير ٠

٧٢ - كتاب التشريح من الرأس إلى الحلق : لم يتم ٠

٧٣ - كتاب الأشربة : انفرد بذكره ابن أبي أصيبعة ٠

٧٤ - مسائل في الطب : انفرد بذكره ابن أبي أصيبعة ٠

٧٥ - كتاب في النبض : مجلد ٠

٧٦ - كتاب عمدة الأنظار وزينة الأفكار : انفرد بذكره ابن أبي أصيبعة ٠

٧٧ - مصادرات اقليدس ٠

٧٨ - كتاب الرسالة المحمدية ٠ انفرد به ابن أبي أصيبعة ٠

٧٩ - مباحث الوجود ٠

٨٠ - مباحث الحدود ٠

٨١ - الاختبارات السماوية ٠

٨٢ - كتاب الرعاية : انفرد به ابن أبي أصيبعة ٠

٨٣ - كتاب في الهندسة : انفرد به ابن أبي أصيبعة ٠

٨٤ - كتاب شفاء العي والخلاف : انفرد به ابن أبي أصيبعة ٠

٨٥ - رسالة في التنبيه على الأسرار المودعة في بعض سور القرآن ٠

٨٦ - منتخب درج تنكلوشا ٠

ثقافـة الرازي ومصــادرها :

فخر الدين الرازي عالم واسع الثقافة غزير الانتاج ، عميق الفهم والتفكير ، ألم بعلوم كثيرة ، واطلع على ثقافات متعددة ، ومؤلفات الرازي المختلفة تدل على المصادر المختلفة التي استقى منها تلك المعارف المتعددة • ويمكن تحديد مصادر ثقافة الرازي كما يلي :

أ - العلـوم الشرعيـــة :

يعد الرازي من العلماء البارزين في مجال العلوم الشرعية ، ويظهر من ثقافته ومؤلفاته أنه بذل مجهوداً كبيراً في دراسة القرآن الكريم وعلومه وفهم ذلك فهماً عميقاً ، وأنه قد درس السنة وعلومها ، وبناءً على هذا يمكن الجزم بأن مصادره في ثقافته الشرعية هما القرآن الكريم والسنة النبوية ومايتعلق بهما من علوم ، وكان لهذه المصادر أثرها فيما ألفه في التفسير والفقه والأصول •

ونتيجة لتفوق الرازي وبروزه على أقرانه في العلوم الشرعية ومصادرها أصبح يلقب بالإمام ، وبشيخ الإسلام •(السبكي - بدون تاريخ - ج٨ ص ٨٤ ، ٨٥، ٨٦)

٢ - علوم اللغـة العربيـــة :

العلوم العربية مرتبطة بعلوم الشريعة ، فهي الآلة والوسيلة لفهمها ، ولذلك كانت هي المصدر الثاني من مصادر الرازي ، ومؤلفاته السابقة تدل على طول باعه في مجال اللغة العربية ، نحوها وصرفها وآدابها ، واللسان العربي - كما يذكر ابن خلدون - يعتمد على أربعة أركان وهي اللغة ، والنحو ، والبيان ، والأدب • وواضح أن الرازي متمكن من هذه الأركان الأربعة • (ابن خلدون - بدون تاريخ - ص ٤٥٣) •

وقد أدرك الرازي ماللغة العربية من أثر في فهم الشريعة ، فدرسها واستوعبها وحقق مسائلها ، والمتتبع لتفسيره يظهر له مدى مايتمتع به من فهم عميق وادراك عجيب للغة العربية وأسرارها؛يدل على ذلك ماتجده في الجزء الأول من التفسير

الكبير ، حيث عقد عدة مباحث للحديث عن اللغة والإعراب ، واستغرق في ذلك قرابة الخمسين صفحة (من ص ١١ إلى ص ٥٨) ، فتحدث عن تكوين الصوت ، والاشتقاق الأكبر والأصغر ، والفرق بين الكلمة والكلام ، واللفظ المهمل ، واللفظ المستعمل ، ودلالات الألفاظ ، والطرق التي يتم بها معرفة اللغة ، وأقسام الكلمة ، وأقسام الإعراب ، وغير ذلك .

والمتفحص لهذه المباحث اللغوية لايسعه إلا أن يحكم بأن الرازي قد استمد ثقافته اللغوية من مصادرها الأولية في كتب النحو والصرف واللغة ، فهي الأساس الذي بنى عليه ثقافته اللغوية ، وقد أشاد بعض العلماء بقدرة الرازي في اللغة وقدرته على مؤاخذة النحاة ونقده لهم نقد البصير المتخصص . (ابن خلكان - بدون تاريخ - جـ٤ ص ٢٤٩) .

٣ - ثقافـــة عصـــره :

المصدر الثالث الذي استمد منه الرازي ثقافته هو ما كان موجوداً في عصره من ألوان المعرفة وفنونها ، وقد ساعده على سبر غور تلك الثقافات المتعددة أنه يجيد اللغة الفارسية إجادة تامة كالعربية ، فكان يعظ ويخطب ويؤلف باللغتين على حد سواء ، وهذا يعني أنه قد تمكن من الاطلاع على المعارف المكتوبة باللغة الفارسية في مصادرها الأصلية ، وكذلك العلوم المترجمة إلى هذه اللغة من معارف الأمم الأخرى ، واللغة الفارسية لغة علم وحضارة ، وقد استوعبت الحضارة الإسلامية مايتفق مع قيم الإسلام من حضارة الفرس .

وقد درس الرازي الكلام والحكمة والفلسفة ، وكان يتلقى هذه العلوم من مصدرين ، المصدر الأول : الأساتذة الذين تتلمذ عليهم ، مثل المجد الجيلي الذي مر ذكره ، والمصدر الثاني : التعلم الذاتي واطلاعه على ما كتبه العلماء من قبله .

وبرع الرازي في علم الكلام حتى أصبح من العلماء البارزين في هذا العلم . (السبكي - بدون تاريخ - ج ٨ ص ٨١) .

واستوعب الرازي هذه العلوم ، ثم أعمل عقله وفكره فأضاف اليها ، واستخدم تلك العلوم العقلية في الرد على الفرق المخالفة كالمعتزلة والكرامية وغيرهم ، ورد كذلك على الفلاسفة .

والفلسفة وعلم الكلام - وإن كانتا أداتين صالحتين للرد على أصحاب المذاهب المخالفة - إلا أن ذلك سبب للرازي مشكلة فكرية أدت به - أحياناً - إلى مخالفة مذهب أهل السنة ، ولم يكن الأمر قاصراً على الرازي بل حدث مثل ذلك لأبي المعالي الجويني ، وأبي حامد الغزالي ، فهؤلاء المتكلمون لايلتزمون طريقة واحدة ، فتجدهم يناصرون مذهب أهل السنة ثم مايلبثون أن يخرجوا عن تلك الطريقة . يقول ابن تيمية (بدون تاريخ) : << فقد ينصر المتكلمون أقوال السلف تارة وأقوال المتكلمين تارة ، كما يفعله غير واحد مثل أبي المعالي الجويني ، وأبي حامد الغزالي ، والرازي ، وغيرهم >> (ج٤ ص ١٥٧) .

وقد سبق القول أن الرازي ندم على اشتغاله بعلم الكلام والفلسفة ، وتمنى أنه لم يفعل ذلك ، واعترف بأن الطريق السليم هو طريق أهل السنة .

وفخر الدين الرازي طبيب ماهر له ثقافة طبية وعلمية عالية ، ولذلك عد من كبار الأطباء ، بل إن البعض يفضله على ابن سينا في الطب وفي غيره من العلوم ، يذكر ابن أبي أصيبعة (١٩٦٥م) أن القطب المصري يفضل الرازي على الشيخ ابن سينا ، فقال : << وقال في تفضيل ابن الخطيب على الشيخ الرئيس: فهذا مما تنخل من كلام الإمامين .. الإمام المتقدم ، والإمام المتأخر عنه زماناً ، الراجح عليه علماً وعملاً واعتقاداً ومذهباً >> (ص ٤٧١) . وهو يقصد بالإمام المتقدم ابن سينا ، وبالإمام المتأخر فخر الدين الرازي.وبعد فهذه ثقافة فخر الدين الرازي ، ومصادرها ، وهي دليل واضح على أنه قد نبغ نبوغاً عظيماً في الثقافات الثلاث : الشرعية ، واللغة العربية ، والثقافة العقلية والعلمية في عصره ، ولذلك أصبح احدى القمم العلمية في ذلك العصر .

مكانة الرازي بين علماء عصره :

احتل فخر الدين الرازي المنزلة الرفيعة والمكانة العالية ، ونال تقدير واحترام المجتمع على اختلاف طبقاته ، فبالغ في احترامه العلماء وطلاب العلم ، والسلاطين ، وخاصة الناس وعامتهم ٠

ولقد تواترت أقوال العلماء والمؤرخين على أن الرازي حظي بمنزلة عظيمة بين العلماء لم ينلها عالم آخر في عصره ، فهو عند السبكي (بدون تاريخ) << الإمام فخرالدين الرازي إمام المتكلمين ، ذو الباع الواسع في تعليق العلوم ٠٠٠ والارتفاع قدراً على الرفاق ٠٠٠ بحر ليس للبحر ماعنده من الجواهر ، وحبر سما على السماء وروضة علم تستقل الرياض نفسها أن تحاكي مالديه ، انتظمت بقدره العظيم عقود الملة الإسلامية ، تنوع في المباحث وفنونها ، وخاض من العلوم في بحار عميقة وراض النفس في دفع أهل البدع وسلوك الطريقة >> ج ٨ ص ٨١ ، ٨٢ ٠

وهو عند اليافعي (١٣٩٠هـ) : << الإمام الكبير العلامة النحرير الأصولي المتكلم المناظر المفسر صاحب التصانيف المشهورة في الآفاق الحظية في سوق الإفادة بالاتفاق فخرالدين الرازي الملقب بالإمام عند علماء الأصول >> ج ٤ ص ٧ ٠

وهو عند ابن العماد الحنبلي (١٣٥١هـ) : << الإمام فخرالدين الرازي العلامة المفسر المتكلم ، إذا ركب مشى معه نحو الثلاثمائة مشتغل على اختلاف مطالبهم في التفسير والفقه والكلام والأصول والطب وغير ذلك ، وكان فريد عصره ومتكلم زمانــه >> ج ٥ ص ٢١ ٠

وهو عند ابن أبي أصيبعة(١٩٦٥م) : << الإمام فخرالدين الرازي أفضل المتأخرين وسيد الحكماء المحدثين ، قد شاعت سيادته ، وانتشرت في الآفاق مصنفاته وتلامذته وكان الناس يقصدونه من البلاد ، ويهاجرون إليه من كل ناحية على اختلاف مطالبهم في العلوم وتفننهم فيما يشتغلون به ، فكان كل منهم يجد عنده النهاية القصوى فيما يرومه منه >> ص ٤٦٢ ٠

والواقع أن الرازي لم يكن أستاذاً للطلاب فحسب بل كان - فوق ذلك - أستاذاً للفقهاء والعلماء الذين يأتون إليه من أنحاء الدنيا ليستفيدوا منه وينهلوا من علمه • (ابن خلكان - بدون تاريخ - ج ٤ ص ٢٥١) •

وهناك مؤشراً آخر يعطي دلالة أخرى على مكانة الرازي ومنزلته الرفيعة، وهو مجلسه العلمي العظيم الذي يطمح الناس - على اختلاف درجاتهم ومنازلهم - إلى حضوره ليستمعوا إلى محاضرات الأستاذ الكبير فخرالدين الرازي ؛ فهي محاضرات فريدة لايُستغنى عنها ، فيحضرها الملوك والأمراء والوزراء والعلماء، وكل الناس فقيرهم وغنيهم، فمجلسه جامعة مفتوحة تجد فيها كل طبقات المجتمع مايلبي حاجاتها ؛ ولذلك نال الرازي إعجاب الجميع، ورغب في مجلسه ودرسه كل إنسان • (ابن كثير - بدون تاريخ - ج ١٣ ص ٦٦، ٦٧) •

والرازي - بالمقارنة بعلماء عصره - لايكاد يوجد له قرين أو نظير سواء في علمه أو فيما يجيده من العلوم أو في مجلسه العلمي العظيم، أو في قدرته على الأداء وبراعة التعبير وبلاغة القول • (ابن أبي أصيبعة - ١٩٦٥م - ص ٤٦٥) •

وأما الذكاء فيبدو أن الرازي يحتل المرتبة الأولى بين علماء عصره، فكل القرائن تدل على ذكائه وعبقريته المفرطة، وقد وصفه الذهبي بأنه << كبير الأذكياء والحكماء والمصنفين >> • (الذهبي - ١٤٠٤هـ - ج٢١ ص ٥٠٠، ٥٠١) •

وحيثما حل الرازي في بلد وجد الاستقبال والترحيب المنقطع النظير من جميع فئات الناس ،كبيرهم وصغيرهم، عالمهم وأميرهم •(كبرى زاده - ١٣٩٧هـ - ج١ ص٤٩٥)

والشعراء - أيضا - أعجبوا بفخرالدين الرازي، وبهرهم بمنزلته العالية وعلمه وكرمه وأدبه، فمدحوه، وعلى رأس هؤلاء الشاعر الأديب شرف الدين بن عنين، ذكر ذلك (ابن خلكان - بدون تاريخ - ج٤ ص ٢٥١) •

ولم يكن الرازي علامة وإمام زمانه في ناحية واحدة من نواحي الدولة الإسلامية بل في كل الأنحاء، ولذلك وصفه ابن الأثير بأنه << إمام الدنيا في عصره (ابن الأثير - ١٤٠٢ هـ - ج ١٢ ص ٢٨٨) •

الفصـــل الثالـــث

ملامح عصر الإمام فخر الدين الرازي

١ - الحيـــاة السياســـية ٠

٢ - الحيـــاة الاقتصاديـــة ٠

٣ - الحيـــاة الاجتماعيـــة ٠

٤ - الحيـــاة العلميـــة ٠

الحيـــاة الســـاسـية :

عاش الإمام فخر الدين الرازي في القرن السادس الهجري ، في الفترة ما بين (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ) •

واتسمت الحياة السياسية في هذه الحقبة بالاضطراب السياسي العنيف ، حيث الحروب والنزاع المستمر على السلطة بين قادة المسلمين الحاكمين آنذاك ، أضف إلى ذلك التهديد الخارجي والغزو الذى أصبحت البلاد الإسلامية تتعرض له من قبل العدو الخارجي المتمثل - أولاً - في الصليبيين ، وثانياً في المغول بعد ذلك •

ونتيجة لهاتين الحالتين الداخلية والخارجية أصبحت الحياة السياسية في الديار الإسلامية في غاية السوء والخطورة (العلواني - ١٣٩٩هـ - جا ص ٢٩)•

ويمكن تقسيم الحياة السياسية في هذا العصر إلى قسمين :

الحالة السياسية في الداخل ، والحالة السياسية الخارجية •

أولا : الحالـة السيـاسيـة الداخليـة :

خيم على الحالة السياسية الداخلية الاضطراب والصراع المستمر على السلطة وكانت الدول المتحكمة في هذه الفترة هي : الدولة السلجوقية والدولة الخوارزمية ، والدولة الغورية ، وكان النزاع والتناحر بين هذه الدول الثلاث على أشده ، بينما كانت سلطة الخليفة العباسي فى بغداد سلطة اسمية في الغالب حيث كانت السلطة الحقيقية فى يد سلاطين آل سلجوق • (العلواني • المرجع السابق - ج ١ ص ٢٩)•

غير أن أهم هذه الدول الثلاث هي الدولة الخوارزمية التي استطاعت فى هذا العصر أن تبسط سيطرتها ونفوذها على جميع للمالك المجاورة ، فتمكنت بعد صراع مرير من القضاء على كل من الدولتين الغورية والسلجوقية والاستيلاء على ما كان تحت سيطرتهما من الأراضي • (حافظ حمدى - بدون تاريخ - ص ٢٥) •

ولم يكن النزاع والصراع الداخلي مقصوراً على الدولة والدولة المنافسة لها ، بل يكون أحياناً بين أفراد الأسرة الحاكمة نفسها ، كما حدث بين ولدي " أيل أرسلان " الخوارزمي المتوفى سنة ٥٦٨هـ ، حيث تولى الملك بعده ابنه سلطان شاه محمود ، وكانت والدته هي التي تدير شؤون الدولة ، وتدبر الجند لصغر ابنها ، لكن الابن لأكبر " علاء الدين تكش " لم يقبل ذلك بل دفعه الأمر إلى الاستعانة بملك " الخطا " مقابل أن يدفع له الكثيرمن أموال وذخائر خوارزم ، فسير معه جيشا كبيراً ، مما حدا بسلطان شاه وأمه أن يستعينا بأمير اسمه " المؤيد " وو عداه كذلك بأموال وذخائر خوارزم ، فلما التقى الجيشان دارت الدائرة على سلطان شاه وأمه • غيرأن علاءالدين - بعد انتصاره - لم يف للخطا بالأموال التي وعدهم بها ، فانتهز المذكور الفرصة فاستعان بالخطا ضد أخيه لكنهم لم يتمكنوا من هزيمته فرحلوا دون أن يتحقق لهم ماأرادوا •

لكن سلطان شاه لم يهدأ بل استعان بالغوريين ، الذين حاولوا مساعدته لكن المنية وافته سنة ٥٧٩هـ وتمت لعلاء الدين السيطرة على المملكة الخوارزمية (ابن الأثير - ١٣٨٦ هـ - ج ١١ ص ٣٧٧ - ٣٨٤) •

وهذا الصراع على السلطة بين الأخوة أصبح دلالة واضحة على شيوع هذه الظاهرة في ذلك العصر ، ودلالة على تدخل النساء في شؤون الحكم والسياسة ، فلولم تتدخل أم سلطان شاه التي أخذت تدبرشؤون الدولة لصغر ابنها الذي لم يكن مؤهلاً للحكم لما حدث ذلك الصراع المرير بين الأخوين ، ولما احتاج كل منهما إلى الاستعانة بالأعداء •

وكان الأمر الطبيعي أن يكون الملك لعلاء الدين تكش ، لأنه الأكبر سناً والأكثر نضوجا ، والأقدر على إدارة البلاد ، أضف إلى ذلك ماكان لديه من مواهب وقدرات قيادية مكنته من هزيمة أعدائه وتوسيع رقعة مملكته ، فقد أصبحت الدولة الخوارزمية على يديه ذات سيادة وقوة يضرب لها الأعداء ألف حساب •
(حافظ حمدي - مرجع سابق - ص ٢٩) •

أما الدولة السلجوقية فقد أصبحت في ذلك العصر في حالة لاتحسد عليها بسبب الحروب والصراع الداخلي بين حكامها ، فما زال النزاع بين سلاطين السلاجقة ينخر في جسم دولتهم حتى تمكن الخوارزميون من الاستيلاء على أملاك هذه الدولة . (العبود - ١٩٧٨ - ص ٢٨) .

وقد استمرت الحروب بين الدولتين الخوارزمية والسلجوقية مدة من الزمن وهي تتراوح بين مد وجزر إلى أن استطاع السلطان الخوارزمي علاء الدين تكش القضاء على السلطان السلجوقي طغرل بن ألب أرسلان سنة ٥٩٠هـ حيث تم للخوارزميين الاستيلاء على البلاد السلجوقية الواحدة تلو الأخرى وحلت الدولة الخوارزمية مكان الدولة السلجوقية .(ابن الأثير - المصدر السابق - ج ١٢ ص١٠٧ ، ١٠٨)

وفي سنة ٥٩٦هـ توفي علاء الدين تكش ، وتولى السلطة ابنه قطب الدين محمد الذى لقب نفسه بلقب أبيه " علاءالدين محمد " وفي عهده تم الاستيلاء على ممتلكات الدولة الغورية ، وكانت الحروب - قبل عهد هذا السلطان - سجالاً بين أبيه وبين السلطانين الغوريين شهاب الدين وغياث الدين ، وعندما آلت السلطة إلى قطب الدين محمد الخوارزمي استطاع أن يقضي على الدولة الغورية ، ويضم ممتلكاتها إلى ملكه ، ففي سنة ٦١٢هـ استولى الخوارزميون على غزنة عاصمة الغوريين حيث قتل الكثير من الجند الغوري وقتل حاكم غزنة ونهبت أموالها ، وتعد هذه الحملة هي الفاصلة بين الطرفين ، وبها تم القضاء على الدولة الغورية وضمت أملاكها إلى الدولة الخوارزمية . (ابن خلدون - ١٣٩١هـ - ج ٥ ص ١٠٨) .

أما علاقة الخوارزميين مع الخلافة العباسية فكانت ودية في بادئ الأمر ثم مالبثت أن ساءت بسبب طمع الخوارزميين في إقامة الخطبة لهم على منابر بغداد كما كان يفعل السلاجقة ، غير أن الخليفة الناصر لم يكن ليرضى بذلك بعد أن تخلص من نفوذ السلاجقة ، ونتيجة للرفض القاطع من الخليفة صمم علاء الدين محمد الخوارزمي على غزو بغداد وازاحة الناصر عن الخلافة ، وأرسل جيشاً لأداء هـــذه المهمة لكنه فشل في الوصول إلى هدفه ، فقد سلط الله على هذا الجيش

العواصف والثلوج أثناء سيره ، فهلك الكثير من أفراده وعادت البقية الباقية إلى خوارزم ، فتطير خوارزم شاة من هذه الحادثة ولم يحاول الكرة مرة أخرى وقنع من الغنيمة بالإياب . (ابن الأثير - ج ١٢ ص ٣١٧ ، ٣١٨) .

ثانيا : الحالة السياسية الخارجية :

أبتليت البلاد الإسلامية بحملات الغزو الصليبي ، وكانت أولى هذه الحملات سنة ٤٩٠هـ ثم أخذت تتوالى ، وكان أشدها ضراوة في القرن السادس الهجري ، حيث ظل بيت المقدس في يد الصليبيين منذ سقوطه سنة ٤٩٢هـ حتى استعاده صلاح الدين الأيوبي سنة ٥٨٣هـ .

والحقيقة أن وضع المسلمين المزري في الداخل وغفلتهم عن الخطر الخارجي هو الذى مكن الصليبيين من اجتياح ديار المسلمين ليتحقق للغزو الصليبي هدفه الأكبر وهو احتلال بيت المقدس (المطوي - ١٩٨٢م - ص ٥٤) .

ويبدو أنه لم يكن هناك مقاومة كبيرة من قبل المسلمين للعدوان الصليبي نظراً لانقسام المسلمين على أنفسهم وضعفهم وتخاذلهم ، مما جعل الصليبيين يجتاحون بلاد الشام ويكونون لهم امارات صليبية فيها ولاسيما في المدن الساحلية

ومن الأسباب الرئيسية في استمرار الاحتلال الصليبي للبلاد الإسلامية عدم وجود قيادة تستطيع لمّ شمل المسلمين ، ولما وجدت القيادة المؤهلة القادرة على توحيد المسلمين تحت راية واحدة والتي تمثلت في آل زنكي وآل أيوب تحرك الجهاد الإسلامي ضد العدو الصليبي فكان لذلك أثره في النضال واستعادة المدن الإسلامية . (المطوي - المرجع السابق ص ٨) .

ولم يكن الخطر الصليبي هو الخطر الوحيد الذي يهدد البلاد الإسلامية من الخارج وإنما كان هناك تهديد آخر من الناحية الشرقية يصدر عن بعض الملوك والقبائل الذين كانوا يقومون بهجمات متكررة على الدولة الغورية وكذلك الدولة

الخوارزمية ، فكانت الحرب عبارة عن كر وفر بين المسلمين والكفار في هذه الناحية فتارة يكون النصر للمسلمين وتارة لأعدائهم .

ومن الحوادث المشهورة في هذا المجال ، أن ملك الهند جمع جيوشه سنة ٥٩٠هـ ليغزو بلاد المسلمين فانبرى له شهاب الدين الغوري واقتتل الطرقان قتالاً شديداً انتصر فيه المسلمون بفضل الله ، وعلى أثر ذلك دخل شهاب الدين بلاد الهند وغنم منها مغانم كثيرة ، ثم عاد إلى غزنة .(ابن الأثير- المصدر السابق - ج١٢ ص ١٠٥،١٠٦))

أما العدو الآخر الذي كان يتربص بالمسلمين الدوائر في هذه الناحية ، فهي قبائل " الخطا " الكافرة التي كانت تحاذي الحدود الإسلامية من الشرق فتفصل بينها وبين حدود الصين ، وكانت الحروب تثور بين هذه القبائل وبين الدولتين الغورية والخوارزمية ، والعدوان يتكرر على الحدود الإسلامية المتاخمة لحدود الخطا وكانوا يعيشون في البلاد فساداً فيقتلون وينهبون ، ففي سنة ٥٩٤هـ قاتلهم غياث الدين الغوري حتى هزمهم ، وقاتلهم أيضاً سنة ٦٠١هـ فهزمهم في بداية الأمر وفي اليوم الثاني للمعركة تكاثروا فحلت بالمسلمين هزيمة كبيرة .(ابن الأثير ج ١٢ص ١٣٥، ١٨٦ ، ١٨٧)

ونتيجة لهذا العدوان الصارخ من قبائل الخطا على الحدود الإسلامية صمم علاء الدين محمد بن خوارزم شاه على حربهم وابعادهم عن حدود المسلمين فعبر إليهم نهر جيحون سنة ٦٠٤هـ ، وجرت بين الطرفين معارك كثيرة أسفرت في النهاية عن هزيمة ساحقة لقبائل الخطا سنة ٦٠٦هـ فقتل منهم المسلمون أعداداً كبيرة وأسروا منهم -كذلك - عدداً كبيراً ، وبهزيمتهم ارتفع الظلم عن المسلمين الذين كانوا يعانون من وطأة حكم هؤلاء الخطا ، وتحررت كثير من البلاد الإسلامية التي كان أهلها يدفعون الجزية للكفار ، ولذلك يعد هذا الانتصار عملاً عظيماً وحسنة من حسنات علاء الدين محمد خوارزم شاه . (ابن الأثير - المصدر السابق - ج ١٢ ص ٢٥٩ - ٢٦٧) .

ولعل في هذه اللمحة الموجزة مايعطي بعض الملامح للحياة السياسية للبلاد الإسلامية في هذا العصر الذي عاش فيه فخرالدين الرازي ، أما التفاصيل فهي من اختصاص البحوث التاريخية •

والأمر المهم في هذا أن يعرف القارئ شيئاً عن علاقة فخرالدين الرازي بالوضع السياسي ، وهل كان له أثر في الحياة السياسية ؟

يظهر من خلال العلاقات الوثيقة والروابط المتينة بين الرازي وسلاطين الدولتين الغورية والخوارزمية أنه كان ذا أثر في حياة المسؤولين في هاتين الدولتين ، فهو - في الغالب - المعلم والواعظ والمرشد للسلاطين والأمراء والوزراء ، ولابد أن يكونوا - نتيجة لذلك - قد تأثروا بأفكاره واتجاهاته •

لقد فرض الرازي نفسه على السلاطين بسلطان العلم ، فأصبح في منزلة تفوق منزلة صاحب السلطان ، فبعلمه استغنى عن ذوى السلطة بينما احتاجوا هم إليه ؛ لذا كان الملوك والأمراء والوزراء يأتون إلى مجلسه ليسمعوا من علمه ونصحه ووعظه مايفيدهم في سياستهم لرعيتهم •

لقد ذاع صيت الرازي وانتشر حتى أصبح مسموع الكلمة في أوساط المجتمع ، وأصبح له تأثيره على الرأى العام ، فالناس يقصدونه من أنحاء البلاد ليستمعوا إلى درسه وتوجيهاته •

والسياسة تتطلب من السلطان أن يراعي في سياسته تيار المجتمع وتأثير العلماء فيه ، والاحترام الذي يكنه المجتمع للعلماء له أثره ، ومادام الرازي هو المرشد والمعلم والموجه للمجتمع فإن السلاطين مضطرون إلى السير فى نفس الاتجاه الذى يضمن لهم سلامة سياستهم وقبول الناس لها • ومما يدل على المكانة العالية لفخر الدين الرازي هذه الحادثة ، فيروى أن الرازي قصد بلدة هراة فاستقبله سلطانها " حسين بن خرميل " وأكرمه إكراماً عظيماً ونصب له منبراً وسجادة في صدر الديوان ، وجعل له يوماً معيناً ليجتمع إليه الناس ويسمعوا كلامه ، والمماليك يحيطون به متشحين بسيوفهم ، وفي هذا المجلس كان السلطان حسين بن خرميل

يجلس قريبا من الشيخ بعد أن سلم عليه واستأذنه ، ثم أتى السلطان محمود بن أخت شهاب الدين الغوري فسلم وجلس قريبا من الشيخ أيضاً ، ثم ألقى الرازي درسه العظيم فبهر الحاضرين بعلمه وفصاحته وحسن بيانه • (ابن أبي أصيبعة - ١٩٦٥م - ص ٤٦٢ ، ٤٦٣) •

إنها قصة ذات دلالة كبيرة على قيمة الرازي ومايكنه السلاطين له ومدى رغبتهم في حضور دروسه واستماع حديثه ، ولذلك هيئوا لهاالظروف التي تساعده على أداء رسالته العلمية فبنوا له المدارس - كما سيأتي - ، ولم يكن الرازي ذا حظوة عند بعض السلاطين دون بعض ، بل كان الجميع - على اختلاف مناصبهم ، ودرجاتهم - يحترمونه ويعترفون بمكانته العلمية والإجتماعية ، ومما يدل على علو شأنه أن جميع الطبقات كانوا يحضرون مجلسه سواء كانوا ملوكاً أو وزراء أو أمراء ، بل وكبار العلماء أيضاً يحضرون درسه •(ابن كثير - بدون تاريخ - ج١٣ ص ٦٦ ، ٦٧)•

ويروى أن الرازي اتصل بالسلطانيين الكبيرين ، شهاب الدين الغوري ، والسلطان خوارزم شاه محمد تكش ، ونال لديهما المكانة العالية والمراتب السنية • (طاش كبرى زاده - ١٣٩٧ هـ - ج١ ص ٤٩١) •

وكان الرازي لدى السلاطين محتفظاً بشخصيته فلايذل نفسه لهم أو يتملقهم فكان عزيز النفس يعتمد على الله في قضاء حوائجه ، والشاهد على ذلك أنه كتب رسالة إلى السلطان محمد خوارزم شاه يشفع فيها لأحد الرجال الصالحين يقول فيها الرازي : «رفعت قصتي إلى الله فإن أعطيتها فالله المعطي وأنت المشكور ، وإن منعتها فهو المانع وأنت المعذور- والسلام) •(طاش كبرى زاده - المصدرالسابق - ج١ ص٤٩٤)

بل إن السلاطين كانوا شديدي الخضوع والتأدب مع الرازي فكان البعض منهم يتعلم على يديه ويكون معه في غاية الأدب والتواضع ، ومما يُحكى في هذا الشأن أن أحد الملوك طلب من الرازي أن يضع له كتاباً في الأصول فأجابه الرازي بشـــرط أن يقرأه عليـــه ، فوضع له كتاب " المحصل " فكان ذلك الملك يأتي إليه

ويسمع الدرس في الكتاب ، وكان شديد الاحترام لاستاذه الرازي حتى أنه يحمل حذاءه ويقدمها إليه ليلبسها • (الصفدي - ١٣٩٤هـ - ج ٤ ص ٢٥٤)

وحين نشب الخلاف بين الدولتين الغورية والخوارزمية تحول فخرالدين الرازي إلى تأيد السياسة الخوارزمية ، يظهر ذلك من أبيات للرازي يمدح بها السلطان علاء الدين خوارزم شاه بعد انتصاره على السلطان الغوري في إحدى المعارك بين الدولتين • (ابن أبي أصيبعة - مصدر سابق - ص ٢٦٩) •

وواصل السلاطين وفاءهم للرازي حتى بعد وفاته ، فكانوا أوفياء لأولاده من بعده ، فقد خلف الرازي ابنين ، الأكبر ضياء الدين ، والأصغر شمس الدين ، وأقام أولاده بعد وفاته بهراة ، وكان الوزير علاء الملك العلوي وزيراً للسلطان خوارزم شاه ، وكان هذا الوزير زوجاً لبنت فخرالدين الرازي ، وبعد أن قهر جنكزخان التتري خوارزم شاه واستولى على ملكه لم يجد الوزير علاء الملك إلا أن يقصد جنكزخان فأكرمه وجعله من خواصه ، وطلب منه علاء الملك أن يعطيه أماناً لأولاد فخرالدين الرازي فوهب له ذلك وجيء بهم إلى علاءالملك معززين مكرمين • (ابن أبي أصيبعة - مصدر سابق - ص ٤٦٥ ، ٤٦٦) •

الحيـــاة الاقتصـــادية :

تتأثر الحياة الاقتصادية بالحياة السياسية - سلباً وايجاباً ؛ فالاستقرار السياسي يؤدي إلى النمو الإقتصادي واستقرار الحالة الاقتصادية للناس أفراداً وجماعات • أما الحروب والاضطراب السياسي فيؤديان إلى الأزمات الاقتصادية التي تؤدي إلى الخلل والقلق والاضطراب في حياة المجتمع •

والعصر الذي عاش فيه فخر الدين الرازي هو عصر القلاقل والمحن والحروب التي لاتنتهي ، حيث كثر حصار المدن واستباحتها من قبل الجيوش المهاجمة ، ونهبها من قبل الغوغاء وعصابات النهب والسرقة ، وصاحب ذلك - أيضاً - نفاد السلع وغلاء السعر ، وهجرة الناس في أحيان كثيرة بحثاً عن الأمن

والغذاء ، ففي عام ٥٤٣هـ اشتد الغلاء في العراق وتفدت السلع والأغذية من الأسواق واكتظت بغداد بالناس الهاربين إليها بحثاً عن الطعام ، وأصاب الناس ضائقة عظيمة بسبب الجنود الذين فتكوا بالناس وأخذوا أموالهم ، ولم تكن البلدان الأخرى أحسن حال ، فقد عم الغلاء أكثرها مثل خراسان ، واصفهان والجزيرة ، وبلاد الشام ، وقد زاد من حدة الضائقة الاقتصادية حدوث بعض الفتن مثل فتنة " الغز " التي حدثت سنة ٥٤٨هـ ، فقد عاث هؤلاء الغز في الأرض فسادا ، وقتلوا الرجال وسبوا النساء والأطفال ، وأخذوا الأموال ، ووضعوا أمراء في البلدان التي سيطروا عليها فأرهقوا الناس بالضرائب الباهظة ، وجلبوا لهم الفقر والشقاء ، ولم تكن المعاناة الاقتصادية قاصرة على بلاد المشرق في العراق وخراسان وغيرها بل شاركتها في هذه المعاناة أكثر البلدان الإسلامية ، ففي سنة ٥٩٧ هـ تقلصت المحاصيل الزراعية في مصر وضعفت الزراعة لعدم توافر المياه لانخفاض النيل وعدم فيضانه مما كان سبباً في ارتفاع الأسعار وانتشار المجاعة والأوبئة والأمراض . (ابن الأثير - المصدر السابق - ج ١١ ص ١٣٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، - ج ١٢ ص ١٧٠) .

ولاغرابة إذا خيم على هذا العصر الركود الاقتصادي ، فالناس لم يكونوا آمنين على أموالهم ، فقد يتبدد ويضيع ما كسبوه في سنين عديدة بسبب فوضى ساعة من نهار ، وقد أدى هذا الأمر إلى أحجام الكثير من الناس عن العمل الزراعي والتجاري ، يقـول ابن خلدون (١٩٨٤م) : « إن المجاعات والموتان تكثر ، أما المجاعات فلقبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر بسبب مايقع في آخر الدولة من العدوان في الأموال والجبايات أو الفتن الواقعة في انتقاص الرعايا ... وأما كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة المجاعات أو كثرة الفتن لاختلال الدولة فيكثر الهرج والقتل » ص ١٠٢ .

إن نظرية ابن خلدون هذه تنطبق على هذا العصر تماماً ، فالدولة الإسلامية أصبحت ضعيفة ، وخلفاء بني العباس مغلوبون على أمرهم ، والفتن منتشرة والأعداء يمزقون البـلاد ، والسـلاطين يضغطون على الخلفاء للحصول عل الأموال وصار الناس مرهقين بالإتاوات والضرائب فوق مايستطيعون ، كما أن خزينة الدولة

أصبحت خاوية لاتستطيع الوفاء بطلبات السلاطين المتكررة على دار الخلافة ، ففي عام ٥٣١هـ أخذ السلطان مسعود أحد سلاطين السلاجقة كل مالدى الخليفة في خزينة الدولة ولم يترك له إلا الأشياء التي لايمكن حملها كالعقار ، ولما آلت الخلافة إلى الخليفة المقتفي أرسل إليه السلطان المذكور وزيره يطلب منه مائة ألف دينار فأخبره بأن خزينة الدولة قد أصبحت خاوية ولم يبق إلا الأثاث والدار التي يسكنها الخليفة ، فترك السلطان الخليفة وعاد إلى الناس يرهقهم بالجبايات ، وصادر أموال التجار فأصاب الناس أذى ومتاعب عظيمة من جراء تصرفات هذا السلطان ٠ (السيوطي - ١٣٧١هـ ص ٤٣٧ ، ٤٣٨) ٠

ومن الأمور الشائعة في هذا العصر إقطاع الأراضي الزراعية للوزراء وكبار المسؤولين والجنود مما أدى إلى وضع مناطق شاسعة من الأراضي الزراعية الخصبة في يد طبقة قليلة تسيطر على أكثر مما تحتاج إليه ، بينما الأغلبية من الفلاحين يزدحمون في مساحات ضيقة لاتفي بحاجتهم ، وقد أدى هذا إلى تذمر الناس من كثرة الاقطاع ومايجره عليهم من الظلم والجور ٠(الأصفهاني - بدون تاريخ - ج٤ ص٥)٠

وعلى الرغم من وجود هذه الصورة القاتمة للحالة الاقتصادية في ذلك العصر فإن هناك مايشير إلى وجود صحوات اقتصادية في بعض الفترات ، من ذلك ماذكره ابن الجوزى في حوادث سنة ٥٤٤ هـ ، فقد انخفضت الأسعار ، وعم الخير والرخاء أرض العراق وخرج الناس من المدن إلى القرى ٠(ابن الجوزي - ١٣٥٨هـ - ج١٠ ص١٣٧)٠

كما كانت الزراعة منتشرة بالعراق أيضاً سنة ٥٨٠هـ على ضفتي نهري دجلة والفرات ، فحيثما سار الانسان وجد الخصب وحقول القمح والشعير وشتى الفواكه والنخيل المثمرة وكلها تجلب السرور والبهجة إلى الناظرين والسائحين ٠ (ابن جبير - ١٤٠٠هـ - ص ١٩١ ، ١٩٢) ٠

والتجارة ـ أيضاً ـ كالزراعة يصيبها الكساد أحياناً ، وتنهض أحياناً أخرى وهـــي - في هـذا العصر - تختلف من بلد إلى بلد ؛ ففي العراق - كما مر - أصاب

التجار العسف والشدة من قبل السلطان مسعود ، فضعف النشاط التجاري ، بينما كانت التجارة في بلاد الشام رائجة ورابحة ، وكانت القوافل التجارية بين الشام ومصر مستمرة لا تنقطع على الرغم من وجود الحرب بين المسلمين والصليبيين ، لأنه كان بين الطرفين اتفاقيات تسمح بحرية التجارة ومرورها عبر الطرق التي يسيطر عليها كل طرف ، فالتجار آمنون على قوافلهم وتجارتهم في كل الأحوال أثناء السلم والحرب ، وليس عليهم إلا أن يدفعوا الضريبة المقررة خلال مرورهم بالبلاد التي يسيطر عليها المسلمون أو الكفار .(ابن جبير - المصدر السابق - ص ٢٦٠ ، ٢٦١) .

وكانت التجارة في البلاد الخوارزمية نشطة ؛ ففي عهد السلطان علاء الدين أصبحت هذه الدولة تسيطر على ثغور تجارية هامة تمر بها القوافل التجارية لتعبر إلى الهند والصين وغيرها ، حتى صارت تلك البلاد مركزاً هاماً لرواج البضائع والسلع التجارية المختلفة ، فكانت تمر بها تجارة الهند والصين من ناحية ، وتجارة مصر واليمن من ناحية أخرى ، ودر ذلك دخلاً كبيراً على الخزينة الخوارزمية . (حافظ حمدي - مرجع سابق - ص ٣٦ ، ٣٧) .

وبعد : فهل كان لفخر الدين الرازي اهتمام بالحياة الاقتصادية ؟

نعم . لقد كان الرازي من كبار الأثرياء في عصره ، فلديه ثروة كبيرة وقد حصرت ثروته بعد وفاته فبلغت ثمانين ألف دينار عدا الدواب والعقارات . (الصفدي - ١٣٩٤هـ - ج ٤ ص ٢٥٢) .

ويبدو أن للرازي اهتماماً بالتجارة ، حيث كان يتعامل مع السلطان شهاب الدين الغوري في تجارة بينهما مما عاد عليه بالكسب والربح الوفير ، يقول ابن خلكان (بدون تاريخ) : «« وعامل (الرازي) شهاب الدين الغوري صاحب غزنة في جملة من المال ، ثم مضى إليه لاستيفاء حقه منه فبالغ في إكرامه والانعام عليه وحصل له من جهته مال طائل »» ج ٤ ص ٢٥٠ .

لكن هذا المال لم يُشغل الرازي عن خدمة العلم والتعليم والتأليف فلديه من الخدم والمماليك من ينوب عنه في استثمار هذا المال وحفظه • (اليافعي - ١٣٩٠هـ - ج٤ ص ٨) •

ولم يكن للمال غاية يسعى الرازي لتحقيقها بل وسيلة يستغني بها عن ذل المسألة وتعينه على قضاء حاجاته ليعيش عزيزاً فلا تدفعه الحاجة لإذلال نفسه وعلمه ؛ ولذلك يقول في التفسير الكبير (بدون تاريخ) : << الإنسان مالم يكن فارغ البال لايمكنه القيام بتحصيل مصالح الدينا والآخرة ، ولايكون فارغ البال إلا بواسطة المال لأنه به يتمكن من جلب المنافع ودفع المضار ، فمن أراد الدنيا بهذا الغرض كانت الدنيا في حقه من أعظم الأسباب المعينة على اكتساب سعادة الآخرة أما من أرادها لنفسها ولعينها كانت من أعظم المعوقات عن كسب سعادة الآخرة> ج ٩ ص ١٨٥ ، ١٨٦ •

ويتفق ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ مع الرازي في نظرته لكسب المال ، فهو يحث العلماء على كسبه لئلا يعرضوا أنفسهم للهوان بسبب الحاجة ، ويرى أن الأولى بالعالم أن يبحث عن الغنى ، ولو أدى به ذلك إلى أن يضيع عليه الكثير من الوقت في طلب العلم ، لأن الفقر يعرض العلماء إلى أن يذلوا أنفسهم لدى السلاطين وأصحاب الثراء ، ويستدل ابن الجوزي على صدق فكرته ببعض العلماء الذين كانوا يعملون في التجارة وخلفوا مالاً ، مثل سعيد بن المسيب وسفيان الثوري • (ابن الجوزي - ١٤٠٥هـ - ص ٢٨٤) •

الحيـــاة الإجتماعيـــة :

تنعكس الحياتان السياسية والاقتصادية على حياة المجتمع ، فالمجتمع الذي يعيش في بيئة يسود فيها الرخاء الاقتصادي والاستقرار السياسي يختلف عن المجتمع الذي يعاني من الفوضى السياسية وشظف العيش •

ويمكن القول بأن كلاً من النواحي الثلاث : السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية تتأثر بالأخرى ؛ فالمجتمع بأنماط حياته وعاداته وثقافته يؤثر كذلك في الناحيتين : السياسية والاقتصادية ٠

ولايمكن استبعاد عامل آخر أكثر أهمية وهو العامل الديني الذي يفوق كل العوامل في قوة تأثيره ، فالعلماء في أي عصر لهم أثرهم البالغ في حياة مجتمعهم ٠

وفخر الدين الرازي من أولئك العلماء الذين كان لهم تأثير كبير في الحياة الاجتماعية ٠

فياترى كيف كانت الحياة الاجتماعية في ذلك العصر الذى عاش فيه الرازي؟

كان للمجتمع الإسلامي في عصر الرازي مكوناً من تركيبة سكانية متعددة الأجناس تحمل عناصر ثقافية متعددة ، فنتج عن ذلك حضارة إسلامية متكاملة ٠ ولما كانت روح الإسلام قد بدأت تضعف في نفوس الناس في العصور المتأخرة ، حيث اهتزت القيم والمعايير الإسلامية حتى صار المجتمع الإسلامي في القرن السادس الهجري أكثر تفككاً وطبقية ، وسادت فيه الروح الحزبية المقوتة والعصبية المذهبية ، والعقائد الضالة المنحرفة ، ولم تكن الحياة الاجتماعية على وتيرة واحدة ، وإنما اختلفت من بيئة إلى بيئة أخرى بل من مدينة إلى مدينة أخرى مجاورة لها ؛ ففي المجتمع العراقي - مثلا - ترى أنماطاً مختلفة من السلوك الإجتماعي المتناقض ، فالحياة في قصور الخلفاء والسلاطين والوزراء يغلب عليها البذخ والرفاهية ، وقد يصل بهم الأمر إلى المجاهرة بالمخالفات الشرعية ، وتجد الكثير من أفراد المجتمع يقلدون ذوي السلطة ويجارونهم في هذا السلوك ، فيروى أن السلطان مسعود السلجوقي الذى مرّ ذكره أمر الولاة أن يقيموا الاحتفالات ثلاثة أيام ، تضاء فيها المحال التجارية والأسواق بالشموع وتظهر القيان والنساء في الثياب ذات الألوان الزاهية وتعزف المعازف وتشرب الخمور في هذه المدة ٠ (ابن الجوزي - ١٣٥٨هـ جـ١٠ ص ٧٢)٠

ومن الظواهر البارزة في المجتمع البغدادي فقدان الكثير من الأخلاق الإسلامية الحميدة ، يتضح ذلك من وصف ابن جبير لهذا المجتمع أثناء رحلته سنة ٥٨٠هـ ، فهو مجتمع يكثر فيه النفاق والرياء والكبر والبطر والخيلاء والكذب والغش والأنانية ، ويقل فيهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويزدرون الغرباء والضعفاء ، ويبخسون الموازين والمكاييل ، ويستغلون الغريب في البيع والشراء ٠

ويستثني ابن جبير من هذا المجتمع فئة العلماء والفقهاء ، فهم أهل صلاح وتقوى ، ويعالجون تلك الأوضاع السيئة بالوعظ والتذكير ، ويحذرون الناس ويخوفونهم من مغبة أفعالهم التي تخالف شرع الله ٠

ثم يعطي ابن جبير صورة حسنة للمجتمع العراقي في المدن الأخرى مثل مدينة تكريت والموصل ، فأهلهما أحسن أخلاقاً ويراعون العدل والقسط في الموازين ، ويتسمون بالسلوك الحسن ويكثرون من أعمال البر والخير ويكرمون الغرباء ويعاملونهم باللين والرفق والاحسان في جميع معاملاتهم ٠ (ابن جبير – مصدر سابق – ص ٩٤ ، ٩٥ ، ٢٠٨ – ٢١٢) ٠

أما المجتمع الخوارزمي فقد تأثر بالحياة العسكرية التي تعيشها الدولة الخوارزمية ، فهي في حالة حرب في أغلب الأحيان ، ولذلك تُعدّ المجتمع لتقبل هذه الحالة ، فتبنى القلاع والأسوار الحصينة لتحمي الناس علي اختلاف طبقاتهم ، ويحيطون مدنهم بالأسوار المنيعة التي تحميهم وتحمي سكانهم إذا دهمهم عدو خارجي ، وعلى الرغم من هذه الحالة فقد كانوا على شيء من الأبهة والعظمة في قصورهم ، فكان لهم اهتمام بالأدباء والشعراء من الفرس والعرب ، كما زودوا قصورهم بعدد كبير من المماليك ، وكان لسلاطينهم عادة ، وهي إقامة الأسمطة والولائم في المناسبات المختلفة كالأعياد واستقبال سفراء الملوك ، وقد سار الوزراء وحكام المقاطعات على نهج السلاطين في شتى المظاهر ٠ ونظراً لاتساع الدولة الخوارزمية فإن السلاطين لم يستقروا في بلد واحد بل اتخذوا لهم أكثر من عاصمة في بلدان مختلفة يتنقلون بينها ٠ (حافظ حمدي – مرجع سابق – ص ٩١ – ٩٣) ٠

ومهما كان الأمر فإن سلاطين الدولتين الغورية والخوارزمية قد اشتهروا بسياستهم الحكيمة والعادلة في مجتمعهم فكانوا أكثر التزاماً وأحسن رعاية لرعاياهم ، وكانوا حريصين على جلب الرخاء والأمن والسعادة لشعوبهم ، فالمصادر التاريخية تشير إلى أن هؤلاء الحكام لم يكونوا مترفين ولا مبالغين في السرف والتنعم ، بل كانوا جادين حازمين في كل شؤون حياتهم ، ومن الأمثلة على ذلك سيرة السلطان شهاب الدين الغوري المتوفى سنة ٦٠٢هـ الذي كان معروفاً بالشجاعة والجهاد والدفاع عن بلاد المسلمين ، كما كان موصوفاً بالعدل وحسن السيرة في رعيته محكماً لشرع الله فيهم وكان فخر الدين الرازي من خاصته يسمع وعظه فيتأثر ويبكي ويتأثر الناس لكثرة بكاء شهاب الدين ٠(ابن الأثير- مصدر سابق - ج ١٢ص ٢١٦)

كذلك السلطان الخوارزمي علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش المتوفى سنة ٦١٧هـ والذى حكم بلاده أكثر من احدى وعشرين سنة ، وكان مشهوراً بالصبر والجد والبعد عن الترف واللذات مهتماً بتدبير المملكة وحفظ رعاياه، كما اشتهر باحترامه للعلماء وأهل الدين وتقديمهم على من سواهم ٠ (ابن الأثير - المصدر السابق - ج ١٢ ص ٣٧١) ٠

الصراع المذهبي وأثره في حياة المجتمع :

للصراع المذهبي أثره البالغ في تمزيق المجتمع ، ويعد القرن السادس الهجري امتداداً لما قبله من العصور ؛ فالفرق الضالة مازالت تنخر في جسم الأمة وتفتت وحدتها ٠ ومن المذاهب الهدامة المذهب الشيعي على اختلاف درجاته وأقسامه ، وقد زاد خطر هذا المذهب في هذا العصر وكثر اتباعه ، حتى إن ابن جبير يتعجب - أثناء مروره ببلاد الشام سنة ٥٨٠هـ - من كثرة الفرق الشيعية وكثرة أتباعها بتلك البلاد ، فقد كان الشيعة بها أكثر من السنة ، حيث تمكن هؤلاء الشيعة - على اختلاف مذاهبهم - من نشر معتقداتهم حتى عمت بلاد الشام وتأثر بها خلق كثير من سكانها ٠ (ابن جبير - مصدر سابق - ص ٢١٢) ٠

والغريب في الأمر أن أهل السنة قد أصابهم شيء من حُمّى التعصب المذهبي ووصل الأمر إلى أن أصبح لكل مذهب مسجد خاص بأصحابه، وقد يُمنع منه أصحاب المذهب الآخر، وقد أنكر الوزير ابن هبيرة المتوفى سنة ٥٦٠هـ هذا التعصب، ورأى أنه عمل محدث وبدعة في الدين(ابن رجب -١٣٧٢هـ ج١ص ٢٨٠)

أثر الرازي في الحياة الاجتماعية :

لم يقف فخر الدين الرازي من الحياة الاجتماعية - في عصره - موقفاً سلبياً بل كافح وناضل مستخدماً فكره ولسانه وقلمه من أجل اصلاح المجتمع وتعديل سلوكه، وكان له باع طويل في منازلة ومناظرة الفرق المتعددة، مثل الشيعة والمعتزلة والخوارج، بل والكفار مثل النصارى واليهود (السبكي - ١٣٨٥هـ - ج٨ ص ٨٢-٨٤)

وقد عاني الرازي كثيراً من المتاعب في هذا السبيل، فاضطهد، وأخرج من بعض البلاد التي زارها، فطرد من بلاد ماوراء النهر بعد أن ناظر المعتزلة وتعرض لمذهبهم، وأخرج من خوارزم بسبب المعتزلة أيضا مما اضطره إلى العودة إلى " الري. " (أحمد أمين ١٩٦٤م - ج ٤ ص ٨٨ - ٨٩) •

وكانت المناظرات محتدمة بينه وبين فرقة الكرامية، فعندما قدم الرازي خراسان سنة ٥٩٥هـ جرى بينه وبين أصحاب هذا المذهب نقاش وحوار أدى إلى فتنة كبيرة بين الناس على أثر مناظرة عُقدت بين الرازي وفقهاء الكرامية، وفي مقدمتهم القاضي مجدالدين المعروف بابن القدوة، واحتد النقاش بين الاثنين وغضب ابن القدوة واشتد الأمر على أصحابه، وكانوا أغلبية في ذلك البلد، مما اضطر السلطان غياث الدين الغوري أن يطلب من الرازي العودة إلى " هراة " •
(ابن الأثير - مصدر سابق - ج ١٢ ص ١٥١ - ١٥٢) •

وسبق القول بأن الكثير من الكرامية وغيرهم قد رجع - على يد الرازي - إلى مذهب أهل السنة مما يدل على أثره الكبير في مجتمعه •

الحيـــاة العلميـــة :

على الرغم مما أصاب العالم الإسلامي في القرن السادس الهجري من اضطراب سياسي وركود اقتصادي ، وحدوث مشكلات اجتماعية حادة فإن الحياة العلمية استمرت حيه ناهضة ، فقد دأب الخلفاء والسلاطين والأمراء والوزراء على تشجيع العلماء والأدباء وطلاب العلم ، فبنوا المدارس ، واهتموا بحركة التأليف ، وانشأوا المكتبات واقتنوا الكتب ٠ (العلواني - ١٣٩٩هـ ج١ ص٣٠ - ٣٢)٠

وكان المجتمع في هذا العصر على درجة عالية من الوعي الثقافي ، وكان حريصاً - على اختلاف طبقاته - على حضور حلقات العلم ودروس العلماء ومحاضراتهم، ويروى أن الخليفة المستضيء بالله كان شديد الحرص على حضور مجالس وعظ ابن الجوزي مداوماً على ذلك مع وجود الزحام الشديد على تلك المجالس ٠ (ابن الجوزي - مصدر سابق - ج١٠ ص ٢٥٦ - ٢٥٧) ٠

وقد بُهر ابن جبير بالنشاط العلمي في شرق الدولة الإسلامية أثناء رحلته سنة ٥٨٠هـ وخاصة مدينة دمشق التي تستقبل طلاب العلم من كل حدب وصوب ، وقد زُودت مدارسها ودور العلم بها بجميع المرافق والخدمات الازمة للطلاب المغتربين ، ولاسيما حفاظ القرآن الكريم الذين احتلوا أعلى مكانة بين طلاب العلم ، فكان لهم ميزة خاصة على من سواهم ، ونظراً لما تتمتع به بلاد المشرق من نهضة علمية رائدة تجد ابن جبير يحث طلاب المغرب على الاتجاه إلى المشرق حيث العلم والعلماء اللامعون ، فأبواب العلم مفتوحة ، والمعيشة ميسرة ، ولاعذر للمقصر عن طلب العلم ٠ (ابن جبير - مصدر سابق - ص ٢٥٨) ٠

ويرى أحمد أمين أن القرون الهجرية ، الرابع والخامس والسادس تفوق القرون السابقة من حيث النشاط العلمي وازدهار الحركة العلمية ، فالنهضة العلمية لم تتأثر بالضعف الذي ساد الحياة السياسية ، فثمار العلم قد أينعت وآتت أكلها في هذه العصور الثلاثة ٠ (أحمد أمين - مرجع سابق - ج٢ ص٢) ٠

ويتفق حسن ضياء الدين عتر مع أحمد أمين في الحكم على أن القرن السادس الهجري يعد قمة النهضة العلمية ، فالحركة الثقافية أخذت تتعاظم عبر القرون حتى بلغت أوجها وأعلى درجاتها في القرنين الخامس والسادس .(حسن عتر - ١٤٠٨هـ - ص ٢٤) .

مظاهر الحياة العلمية في القرن السادس الهجري :

المظهر الأول : عناية الخلفاء والسلاطين والوزراء بالنشاط العلمي :

نال العلم – في هذا العصر – عناية فائقة من الخلفاء والسلاطين والوزراء، حيث تنافسوا في خدمة العلم وعلمائه، وشاركوا بأنفسهم في الحركة العلمية وبرع البعض منهم في علوم مختلفة، مثل الخليفة المستنجد بالله المتوفى سنة ٥٦٦هـ الذي تفوق في الأدب شعره ونثره، وكان له اطلاع واسع في علم الفلك وآلاته، كما عرف بالذكاء والفهم الثاقب والرأي السديد . (السيوطي – ١٣٧١هـ – ص ٤٤٣) .

ومن الخلفاء الذين لهم باع في الحياة العلمية الخليفة الناصر لدين الله المتوفى سنة ٦٢٢هـ، وقد امتد حكمه قرابة سبع وأربعين سنة، وكان غزير الثقافة واسع الاطلاع يحاور ويفاوض العلماء عن علم وخبرة وفهم عميق وذكاء نادر، صنف العديد من الكتب، واهتم اهتماماً كبيراً بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أصبح من رواته .(ابن طباطبا – ١٣٨٦هـ – ص ٣٢٢) .

واشتهر من الوزراء في هذا العصر الوزير العالم الأديب صاحب التصانيف يحيى بن هبيرة الوزير العباسي المتوفى سنة ٥٦٠هـ، وقد عرف بتدينه وتواضعه وبحزمه وحسن تدبيره لشؤون الوزارة واهتمامه بالعلم وأهله، فكان مجلسه عامراً بالعلماء والأدباء ورجال الفقه والحديث، وكان يناقش ويحاور في معارف متعددة وفنون مختلفة، كما صنف الكثير من الكتب في مختلف المعارف . (الزهراني – ١٤٠٠هـ – ص ١٩٤) .

وكان لسلاطين الدولتين الغورية والخوارزمية اهتمام كبير بالحياة العلمية ومنهم غياث الدين الغوري المتوفى سنة ٥٩٩هـ، والذي اشتهر بحبه للعلم وإحسانه إلى الفقهاء وبذله العطاء الجزيل لهم، وكان بليغاً ذا ثقافة أدبية عالية، وكان ذا خط جميل يستخدمه في نسخ المصاحف ثم يقف تلك المصاحف التي ينسخها بيده على طلاب العلم في المدارس التي بناها . (ابن الأثير – مصدر سابق – ج ١٢ ص ١٨٢) .

ومهما كان الأمر فإن سلاطين الدولتين الغورية والخوارزمية قد اشتهروا بسياستهم الحكيمة والعادلة في مجتمعهم فكانوا أكثر التزاماً وأحسن رعاية لرعاياهم ، وكانوا حريصين على جلب الرخاء والأمن والسعادة لشعوبهم ، فالمصادر التاريخية تشير إلى أن هؤلاء الحكام لم يكونوا مترفين ولا مبالغين في السرف والتنعم ، بل كانوا جادين حازمين في كل شؤون حياتهم ، ومن الأمثلة على ذلك سيرة السلطان شهاب الدين الغوري المتوفى سنة ٦٠٢هـ الذي كان معروفاً بالشجاعة والجهاد والدفاع عن بلاد المسلمين ، كما كان موصوفاً بالعدل وحسن السيرة في رعيته محكماً لشرع الله فيهم وكان فخر الدين الرازي من خاصته يسمع وعظه فيتأثر ويبكي ويتأثر الناس لكثرة بكاء شهاب الدين ٠(ابن الأثير- مصدر سابق - ج ١٢ص ٢١٦)

كذلك السلطان الخوارزمي علاء الدين محمد بن علاء الدين تكش المتوفى سنة ٦١٧هـ والذى حكم بلاده أكثر من احدى وعشرين سنة ، وكان مشهوراً بالصبر والجد والبعد عن الترف واللذات مهتماً بتدبير المملكة وحفظ رعاياه،كما اشتهر باحترامه للعلماء وأهل الدين وتقديمهم على من سواهم ٠ (ابن الأثير - المصدر السابق - ج ١٢ ص ٣٧١) ٠

الصراع المذهبي وأثره في حياة المجتمع :

للصراع المذهبي أثره البالغ في تمزيق المجتمع ، ويعد القرن السادس الهجري امتداداً لما قبله من العصور ؛ فالفرق الضالة مازالت تنخر في جسم الأمة وتفتت وحدتها ٠ ومن المذاهب الهدامة المذهب الشيعي على اختلاف درجاته وأقسامه ، وقد زاد خطر هذا المذهب في هذا العصر وكثر اتباعه ، حتى إن ابن جبير يتعجب - أثناء مروره ببلاد الشام سنة ٥٨٠هـ - من كثرة الفرق الشيعية وكثرة أتباعها بتلك البلاد ، فقد كان الشيعة بها أكثر من السنة ، حيث تمكن هؤلاء الشيعة - على اختلاف مذاهبهم - من نشر معتقداتهم حتى عمت بلاد الشام وتأثر بها خلق كثير من سكانها ٠ (ابن جبير - مصدر سابق - ص ٢١٢) ٠

والحديث، ويقوم فيه أصحاب المذاهب بالدروس الخاصة بمذاهبهم، ويحصل طلابه على مكافآت ونفقات. فكان يُنفق فيه على أكثر من خمسمائة طالب، ويفد إليه الطلاب المغاربة لتلقي العلم من علمائه، وتُقدم لهم فيه الجرايات والنفقات السخية. (ابن جبير – مصدر سابق – ص ٢٤٤).

المظهر الثالث : المـدارس:

كانت المدارس في هذا العهد منتشرة في معظم أرجاء الوطن الإسلامي، فلاتكاد توجد مدينة إلا وفيها مدرسة أو عدد من المدارس، واجتهد الخلفاء والسلاطين والوزراء في بناء المدارس والعناية بها وتزويدها بالمعلمين الأكفاء، كما أنفقوا على الطلبة بسخاء.

ومن أشهر المدارس وأكثرها في هذا العصر مدارس العراق والشام، ففي بغداد وحدها ثلاثون مدرسة، وفي الموصل أكثر من ست مدارس، وفي حران مدرسة، وفي حلب أربع أو خمس مدارس عدا مدرسة الحنفية الملحقة بمسجدها الكبير، وفي حماة ثلاث مدارس، وفي حمص مدرسة واحدة، وفي دمشق نحو عشرين مدرسة، وتمثل هذه المدارس أروع ما وصل إليه الفن المعماري في ذلك الزمن من حيث التخطيط والبناء والزخرفة، فكانت أعظم وأجمل مدارس الدنيا، وقد زودت بكل مايحتاجه طلبة العلم من الجرايات والنفقات والإعاشة، ولم تكن الهبات تنقطع عنهم من قبل المسؤولين في الدولة، بل إن لتلك المدارس أوقافاً تدر عليها أموالاً طائلة، وفوق ذلك كله وجود المعلمين والعلماء الكبار الذين يعلمون ويربون تلاميذ هذه المدارس ويتولون شؤونها. (ابن جبير – مصدر سابق – ص ٢٠٥ – ٢٥٦).

وفي بلاد خراسان وما وراء النهر اهتم السلاطين الغوريون والخوارزميون بانشاء المدارس، فعندما قدم فخرالدين الرازي على السلطان غياث الدين الغوري استقبله بغاية الاحترام والتقدير وبالغ في اكرامه، وبنى له مدرسة بمدينة هراة بالقرب من

جامعها ، وفي هذه المدرسة قصده الفقهاء من أنحاء البلاد • وفي أنحاء كثيرة من خراسان بنى غياث الدين المدارس لأصحاب الشافعي • (ابن الأثير - مصدر سابق - ج ١٢ ص ١٥١ ، ١٨١ ، ١٨٢) •

وبذل الخوارزميون جهوداً كبيرة ، فنشروا العلم وفتحوا المدارس في مختلف المدن لتثقيف شعبهم على مختلف طبقاته ، وأختاروا العلماء الكبار للتدريس في مدارسهم ومن أولئك العلماء العلامة الشيخ شهاب الدين أبوسعد بن عمران الذي كان يزاول التدريس في خمس مدارس بمدينة خوارزم • (حافظ حمدي - مرجع سابق - ص ١٠٦) •

واشتهر في هذا المجال الوزير الخوارزمي نظام الملك مسعود المتوفى سنة ٥٩٦هـ ، فمن أعماله الجليلة أنه بنى مدرسة عظيمة بمدينة خوارزم وألحق بها خزانة كتب ضخمة • (ابن الأثير - مصدر سابقا - ج ١٢ ص ١٥٨) •

واهتم الحكام الأيوبيون ببناء المدارس بشكل واسع فنشروها في معظم البلدان التي حكموها ، واشتهر منهم - في هذا المضمار - نورالدين المتوفى سنة ٥٦٣هـ ، وصلاح الدين المتوفى سنة ٥٨٩هـ ، وقد أورد أحمد شلبي احصائية بعدد المدارس التي أنشأها السلاطين والأمراء وغيرهم في العهد الأيوبي في كل من مصر ودمشق ، وبيت المقدس ، فبلغ عددها إحدى وسبعين مدرسة ، وقد بنيت هذه المدارس خلال القرنين السادس والسابع الهجريين • (أحمد شلبي - مرجع سابق - ص ١١٩-١٢٣)•

<u>المظهر الرابع</u> :المكتبـــات:

بذل الحكام والعلماء - في هذا العصر - مافي وسعهم من أجل جمع الكتب واقتنائها ، مما زاد من انتشار المكتبات العامة والخاصة ، وزودت تلك المكتبات بالكتب المختلفة في شتى ألوان المعرفة ، وفتحت أبوابها للباحثين وطلاب العلم ، فساعدت على نشر العلم والثقافة ، وصارت معلماً حضارياً وشاهداً على قوة الحركة

العلمية ونشاطها في هذا القرن - يقول ابن الأثير (مصدر سابق) : << أمر الخليفة الناصر لدين الله بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ببغداد ، ونقل إليها من الكتب النفيسة ألوفاً لايوجد مثلها >> ج ١٢ ص ١٠٤ ٠

وكانت رغبة السلاطين والوزراء والعلماء شديدة في نشر المكتبات وتعميمها وتهيأتها لتكون ميسرة لطلاب العلم ؛ ولذلك وقفوا المكتبات في كثير من المدارس كما فعل نورالدين زنكي الذي وقف كتباً كثيرة في العديد من المدارس التي أنشأها في دمشق ٠ (حاجي خليفة - بدون تاريخ - ج ١ ص ١٧١) ٠

وينقل أحمد شلبي عن المقريزي قوله : << ولما أسس القاضي الفاضل مدرسته بالقاهرة سنة ٥٨٠هـ وقف عليها جملة عظيمة من الكتب في سائر العلوم يقال إنها مائة ألف مجلد >> (شلبي - مرجع سابق - ص ١٩٣) ٠

ومن المكتبات المشهورة مكتبة الخليفة الناصر التي بلغ من ضخامتها أن جزءاً منها فصل عنها فتكوّن منه ثلاث مكتبات كبيرة ، وكذلك مكتبة ابن الخشاب البغدادي المتوفى سنة ٥٦٧هـ ، وفي آخر حياته وقفها على أهل العلم ، ومكتبة عماد الدين الأصفهاني المتوفى سنة ٥٩٧هـ والتي أختار لها الكتب في مختلف فروع المعرفة ، وساعده على ذلك بعض السلاطين الذين أهدوا له الكثير من الكتب لما رأوا شغفه وحبه الشديد لجمع الكتب فتكوّن لديه مكتبة عظيمة ٠ (شلبي - المرجع السابق -ص ١٦٤ - ٢٠٥) ٠

ومن أصحاب المكتبات الكبيرة الموفق بن المطران المتوفى سنة ٥٨٧هـ ، وهو طبيب ماهر خدم لدى صلاح الدين ، وكان لديه مكتبة تحتوي على مايقارب عشرة آلاف مجلد عدا الكتب التي استنسخها بنفسه ، وكان لديه ثلاثة نساخ ينسخون له الكتب ، ومن أعماله الحميدة أنه كان يهب الكتب لتلاميذه تشجيعاً لهم ٠ (ابن أبي أصيبعة - مصدر سابق - ص ١٧٥ - ١٧٩) ٠

هذه نبذة مختصرة جداً عن بعض المكتبات المشهورة في هذه الفترة ، وهي تعطي دلالة على أن الاهتمام ببناء المكتبات واقتناء الكتب كان سمة من سمات هذا العصر سواء في المكتبات الملحقة بالمدارس أو المكتبات الخاصة لدى الحكام ، أو مكتبات العلماء والأدباء والكتاب ، على أنها - كما يقرر أحمد شلبي - كانت - في معظمها - مفتوحة وميسرة لطلبة العلم والباحثين والدارسين • (شلبي - مرجع سابق - ص ١٩٩ - ٢٠٠) •

المظهر الخامس : حركـة التأليـــف :

كانت حركة التأليف في القرن السادس نشطة ومزدهرة ، لوجود عدد كبير من العلماء البارزين ذوي القدرة الفائقة في التأليف في مجالات متنوعة من العلوم ، سواء كان ذلك في العلوم الشرعية أو العربية ، أو التاريخ أو التراجم ، أو علوم الطبيعة ، بل إنه وجد من العلماء من كان موسوعياً في علمه وثقافته فلم يقتصر في التأليف على فن من الفنون العلمية ، وإنما ألف في فنون كثيرة ، ويأتي في الطليعة الإمام فخر الدين الرازي الذي يعد أبرز العلماء الموسوعيين حيث ولج أبواب التخصصات المختلفة ، وألف كتباً في علوم عديدة •

ونظراً لكثرة المؤلفين والمؤلفات في هذا العصر ، فإنه لايمكن استيعابهم واستيعاب مؤلفاتهم ، فذلك عمل ضخم يحتاج إلى بحث مستقل ، ودراسة ضخمة ، غير أنه يمكن ذكر بعض المؤلفين البارزين الذين كان لهم جهد واضح ومميز في ألوان عديدة من ألوان المعرفة •

ومن هؤلاء العلماء :

١ - الإمام أبو الفرج عبدالرحمن بن الجوزي الحنبلي المتوفي سنة ٥٩٧هـ الذي اشتهر بغزارة علمه وكثرة مؤلفاته وجمال أسلوبه • وصفه الحافظ الذهبي فقال (١٤٠٥هـ) : << أبو الفرج بن الجوزي ••• الحافظ الكبير •••الواعظ المتفنن ،

صاحب التصانيف الكثيرة الشهيرة في أنواع العلم من التفسير والحديث والفقه والزهد والوعظ والأخبار والتاريخ والطب وغير ذلك » ج٣ ص ١١٨-١١٩ وذكر له حسن عتر في تحقيقه لكتاب فنون الأفنان عدداً كبيراً من المؤلفات فسرد المطبوع منها والمخطوط فبلغت ثمانية وخمسين مؤلفاً في مختلف العلوم ٠ (حسن عتر - ١٤٠٨هـ - ص ٦٠) ٠

٢ - ومن علماء خوارزم العالم المشهور جار الله محمود بن عمر الزمخشري المتوفي سنة ٥٣٨هـ ، وله مصنفات كثيرة ، منها : معجم (أساس البلاغة) والمقدمة ، وهو معجم عربي فارسي ، و(الفائق) في غريب الحديث ، وتفسيره للقرآن الكريم المعروف بالكشاف ٠ (محمد المصري - ١٤١٠هـ - ج١ - ص ٢٣) ٠

٣ - ومن العلماء الموسوعيين أصحاب المؤلفات المشهورة ، ظهير الدين على بن زيد ابن محمد بن الحسين البيهقي المتوفى سنة ٥٦٥هـ ، وهو مؤرخ وباحث ، تنقل في كثير من البلدان ، وبرع في الحكمة والحساب وعلم الفلك ، وصنف أربعة وسبعين كتاباً في التاريخ والبلاغة والطب ، ومن كتبه : تفسير العقاقير ، وتاريخ حكماء الإسلام ، وتاريخ بيهق ، وشرح نهج البلاغة ، وغير ذلك ٠ (محمد المصري - ١٤١٠هـ - ج١ ص ٢٤١) ٠

٤ - ومن الموسوعيين - كذلك - الإمام مجدالدين أبو السعادات المبارك بن الأثير الجزري المتوفى سنة ٦٠٦هـ ، وقد برع هذا العالم العلامة في علوم كثيرة ، وألف فيها الكثير من المصنفات الدالة على براعته وقدرته الفائقة ، وله مؤلفات في مختلف المعارف ، وخاصة في العلوم الشرعية والعلوم العربية ٠ ومن مؤلفاته : غريب الحديث ، وشرح مسند الشافعي ،والإنصاف بين الكشف والكشاف ، والبديع والباهر في النحو ، وجامع الأصول في أحاديث الرسول ، وغيرذلك من الكتب المفيدة ٠(الأرناؤوط - ١٣٨٩هـ - جا ، المقدمة ، ص : ط ، ي) ٠

٥ - اشتهر من العلماء الأدباء الشاعر الخوارزمي رشيدالدين الوطواط المتوفى سنة ٥٧٣هـ وهو عالم وأديب وشاعر ، تفوق في التأليف ولاسيما في اللغة العربية

وآدابها ويعد من نوادر العصر وعجائب الزمن علماً وأدباً وذكاء وفطنةً ، وله من المؤلفات : غرر الخصائص الواضحة ، وهو من كتب الأدب التهذيبي ، وحدائق السحر في دقائق الشعر ، وتحفة الصديق من كلام أبي بكر الصديق ، وفصل الخطاب من كلام عمر بن الخطاب ، وأنس اللهفان من كلام عثمان بن عفان ، ومطلوب كل طالب من كلام علي بن أبي طالب ، وله ديوان شعر ، وديوان رسائل بالعربية ، وآخر بالفارسية •(شوقي ضيف -بدون تاريخ -ص٦٥٣ -٦٥٤)

٦ - الإمام فخر الدين الرازي :

يحسن أن يختم الحديث عن الحياة العلمية بشخصية هذا البحث ، الإمام فخرالدين الرازي ، وقد تقدم الحديث عن سيرته وثقافته ومنهجه ومؤلفاته ، وكل ذلك يعطي دلالة على تقدمه وبراعته وتفوقه على علماء عصره في مضمار التأليف في مختلف العلوم ومشاركته الفعالة في الحياة العلمية سواء كان ذلك في التدريس ، أو في الوعظ أو الفتوى ، أو في حركة التأليف •

الفصل الرابع

الطبيعة الإنسانية عند فخر الدين الرازي

الطبيعة الإنسانية عند فخر الدين الرازي :

التربية ذات علاقة وثيقة بالطبيعة الإنسانية ، ويحتاج المربي إلى معرفة طبيعة الإنسان الذي يسهم في تربيته ، فذلك يسهل عليه أداء مهمته التربوية غير أن من علماء التربية من يرى أن طبيعة الإنسان شديدة التعقيد ، فهي سر محير ، واكتشافها أمر في منتهى الصعوبة ، وهي طبيعة فريدة لاتماثلها أي طبيعة أخرى ، ومهما كانت الدراسات في هذا السبيل ، فإنه من الصعوبة بمكان التوصل إلى حقيقة الطبيعة الإنسانية • لكنه لاينبغي التخلي عن دراستها ؛ لأن معرفة الإنسان أو معرفة طبيعته يعد مفتاحاً لتربيته • (فينكس - ١٩٨٢م - ص ٦٩٧ - ٦٩٨) •

ولأهمية الطبيعة الإنسانية بالنسبة للتربية تعددت الدراسات والنظريات الفلسفية حول هذه الطبيعة ، واختلفت وجهات النظر حيالها •

واشتغل الفلاسفة والمربون - منذ القدم - بدراسة طبيعة الإنسان ، غير أن الحكم عليها يختلف بناءً على اختلاف تصورات واعتقادات كل فريق ، ونتيجة لذلك ظهرت نظريات متباينة لم تصل واحدة منها إلى حكم سليم حول طبيعة الإنسان • (محمد مرسي - ١٩٨٥م - ص ١٩٤ - ١٩٥) •

ولم تستطع هذه الفلسفات - على اختلاف مشاربها - وضع نظرية تربوية صحيحة تحل مشكلة الإنسان ، لأنها لاتقدم تصوراً متكاملاً عن طبيعته ، وإنما تنظر إليه نظرة جزئية ، ثم تحكم عليه من خلالها •

فالفلسفة المثالية ترى أن الإنسان جسم وروح ، لكنها تغلِّب الجانب الروحي على الجانب الجسمي ، فالجسم - في نظرها - هو مصدر الشر ، لذا يجب اخضاعه للروح وكبح نزعة الشرفية ، ولذلك كان الهدف التربوي في المثالية هو السمو بالروح والعقل ، وقمع الجسم وشهواته •

والتربية المسيحية بعكس المثالية حيث أغفلت التربية العقلية ، واتجهت نحو التربية الخلقية من أجل السمو بالروح • ثم ظهرت الفلسفة العقلية فاهتمت بالجانب العقلي في الإنسان مهملة الجانب الخلقي •

وجاءت الفلسفة الماركسية لتفسر الطبيعة الإنسانية من خلال نظرتها المادية •

وأخيرا الفلسفة البراجماتية على يد جون ديوي الذي دعا فيها إلى التخلي عن الفلسفات السابقة ، وهو لايفصل بين الجسم والروح فهما - عنده - متلازمان ، لكن الأمر الخطير في نظريته أنه لايرى وزناً للقيم ، فهي - في نظره - غير ثابتة ، فكل شيء يجب أن يكون متغيراً ، فقيم اليوم - حسب رؤيته - لاتصلح قيماً للمستقبل ، على أن القيم التي يعوّل عليها هي القيم النفعية وماعداها فلامعنى لها عنده •(محروس مرسي - ١٩٨٨م - ص ٢٣٧ - ٢٣٨) •

أما التربية الإسلامية فهى تنظر إلى الإنسان نظرة متكاملة تتصف بالاعتدال والتوازن بما يتفق مع طبيعته ، لأنها تربية نابعة من القرآن الكريم المنزل من عند رب العالمين خالق الإنسان والعالم بطبيعته وبما يصلح لتربيتها ، وكذلك سنة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي لاينطق عن الهوى ، فعلى ضوء هذين المصدرين تتم تربية الإنسان ومعالجة طبيعته بما يجلب له السعادة في الدنيا والآخرة • ولذلك فهي تربية مؤهلة لسد هذا الفراغ الذي تعاني منه التربية الحديثة • ومن المربين المسلمين الذين أسهموا في معرفة الطبيعة الإنسانية فخر الدين الرازي ، وفي هذا البحث محاولة لمعرفة وجهة نظره ، والكيفية التي عالج بها تلك الطبيعة ، ومدى التزامه بالنظرة الإسلامية للإنسان • هذا ماستراه في النقاط التالية :

خلـــق الإنســـــان :

يرى الرازي أن كل إنسان مخلوق من الطين ، ولايقتصر الأمر على الإنسان الأول «« آدم »» عليه السلام بل يسري ذلك على ذريته أيضاً •

فهو عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ﴾ ـ يميل الي وجه آخر يخالف فية المفسرين وهو ان الانسان مخلوق من المني والطمث وهما متولد ان من الأغذية التي يتناولها الإنسان ، والغذاء بنوعيه ، النباتي والحيواني متولد من الطين ، فثبت ان كل إنسان مخلوق من الطين .

(الرازي - التفسير الكبير - بدون تاريخ - ج ١٢ ص ١٥٢) .

ويلفت الرازي الانتباه إلى التأمل والتفكير في خلق الإنسان وتركيبه العجيب الدال على عظمة الخالق وبديع صنعه وتقديره ، ويشير إلى أن الهدف من التأمل في خلق الإنسان هو ترسيخ الإيمان بالله ، فالصفات المختلفة في الإنسان وفي طبيعته لا يمكن أن تحدث وتتم إلا بتقدير الله سبحانه ، مع أنها في الأصل من مادة متشابهة (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٢ ص ١٥٢) .

ويمكن للمربين من العلماء والمعلمين أن يستفيدوا من دعوة الرازي إلى التأمل في خلق الإنسان ففي كلامه توجيه لأولئك الذين لديهم معرفة بجسم الإنسان وأعضائه المختلفة ، وما تقوم به من وظائف ، كالأطباء ومدرسي مادة الأحياء والعلوم ليربطوا ذلك بقدرة الله وعظمته عندما يؤلفون الكتب الدراسية الخاصة بذلك ، أو عندما يلقون محاضرات تتعلق بتشريح جسم الإنسان ، أو عندما يُدرِّس المعلمون ذلك لطلابهم ، وبذلك يحركون الإيمان في نفوس تلاميذهم بخالق الإنسان الذي خلقه في أحسن تقويم ؛ ففي كل عضو منه وفي كل حاسة من حواسه ، وفي كل خلية من خلاياه آية تدل على عظمة الخالق الواحد القدير الحكيم الخبير الذي أحسن كل شيء خلقه .

الـــروح :

١ - ماهيـــة الـروح :

يعرف الرازي الروح بأنها جوهر بسيط مغاير للأجسام، والروح لاتحدث إلا بأمر الله وتكوينه من أجل أحداث الحياة في الجسد ٠(الرازي - التفسير الكبير - ج٢١ - ص ٣٨)٠

ويظهر من هذا التعريف أن الروح تختلف عن الجسم، وأنها خلق من خلق الله سبحانه وتعالى ٠ والرازي ينهج نهج السلف في اعتقاده أن الروح مخلوقة، وليست أزلية كما يعتقد الفلاسفة وبعض الفرق الضالة ٠

يقول ابن تيمية (بدون تاريخ) : << روح الآدمي مخلوقة، مبدعة باتفاق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة، وقد حكى اجماع العلماء على أنها مخلوقة غير واحد من أئمة المسلمين >> ج ٤ ص ٢١٦ ٠

ويذكر الرازي - عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾ - أن ماهية الروح مجهولة، لكن عدم معرفة ماهيتها لايعني عدم وجودها فمثلها مثل أشياء أخرى لاتعرف ماهيتها وصفتها، وإنما تعرف بأثرها، (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢١ ص ٣٨)٠

فالروح موجودة، وماهيتها مجهولة، وقد ذكرت في أكثر من آية في القرآن الكريم، من ذلك الآية السابقة ﴿ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي ﴾، وقوله تعالى: ﴿ الَّذِيْ أَحْسَنَ كُلَّ شيءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسانِ مِنْ طِينٍ ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِين ، ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فيه مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ والأَبْصَارَ والأفئدَةَ قليلاً ماتَشْكُرُون ﴾ السجدة ٧، ٨، ٩ ٠ وقوله تعالى ﴿ وإِذْ قَالَ رَبُّك للملائكةِ إنِّي خالقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ، فإذا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فيهِ مِنْ رُوْحِي فَقَعُوْا لَهُ سَاجِدِيْنَ ﴾ الحجر ٢٨، ٢٩ ٠

والروح - عند الرازي - جوهر علوي شريف، ولشرفها أضافها الله تعالى إلى نفسه فقال: ﴿ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي ﴾ سورى ص، رقم ٧٢، وينكر الرازي على الحلولية قولهم إن الروح جزء من أجزاء الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً. أما كيفية النفخ فيرى أنه لايعلمها إلا الله سبحانه وتعالى. (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢٦ - ص ٢٢٨).

٢ - الـروح قسـمان :

يقسم الرازي الروح إلى قسمين: طاهرة، وغليظة كدرة.

فالروح الطاهرة مطبوعة على الطهارة والنقاء والذكاء، ولديها الاستعداد لمعرفة الحق وقبول الخير والعمل به، وهي سريعة التقبل للمعارف والأخلاق الفاضلة، فمثلها مثل الأرض الخيرة الطيبة التي تنبت الأزهار والثمار، وهي الموصوفة بقول الله تعالى: ﴿ وإذا سمعوا ماأنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ﴾.

أما الروح الغليظة الكدرة فهي في أصل جوهرها قاسية بطيئة القبول للمعرفة والأخلاق الفاضلة، منصرفة إلى اللذات والشهوات بعيدة عن فعل الخير والعمل به، فمثلها مثل الأرض السبخة الفاسدة التي لاتنبت أزهاراً ولاتنتج ثماراً؛ لأنها لقساوتها تنفر عن قبول المعاني الشريفة، يصدق عليها قوله تعالى: ﴿ فَهِيَ كالحِجَارةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ﴾ البقرة ٧٤.

والنفس الغليظة يصعب تعديلها وتحويلها إلى نفس نقية مشرقة؛ لان تغييرها من حال الفساد إلى حال الصلاح ثقيل عليها.

بينما النفوس الطاهرة المجبولة على الخير سريعة الانقياد إلى معرفة اليقين وفهم الحق والعمل في سبل الخير، فهي - بطبيعتها - نفوس طيعه ذكية قريبة من الخير بعيدة عن الشر قابلة للتكاليف الإلهية والعمل بها. (الرازي - التفسير الكبير - ج١٤ ص ١٤٤ - ١٤٥).

والرازي بتقسيمه وتحليله للنفس الإنسانية يمد العاملين في مجال التربية بنظرات يستنيرون بها خلال ممارساتهم التربوية ، فيكتشفون تلك النفوس المستعدة للخير القابلة للتربية ، فيعملون على توجيهها والعناية بها وتنمية نزعة الخيرفيها ؛ لأنها هي الطاهرة النقية التي يرجى منها الخير لنفسها وأمتها بل وللإنسانية جمعاء.

أما تلك النفوس المطبوعة على عدم القبول للتربية فلاتهمل كلياً بل تعطى نصيبها الوافر من التربية والاصلاح والتوجيه ، لكن ينبغي - بعد التأكد من عدم تجاوبها مع التربية - التعامل معها بما يناسب حالتها واستعداداتها ، كما ينبغي أن يلاحظ العاملون في مجال التربية الفصل بين هذين النوعين ؛ لئلا يؤثر ذوو الطباع السيئة على ذوي الطباع الصالحة الحسنة ، فالرفقة وطول الصحبة لها أثرها السلبي كما أن لها أثرها الإيجابي ، فالجليس الصالح قدوة حسنة لصاحبه والجليس السيء قدوة سيئة لصاحبه ، وصحبة التلميذ لزميله تعد صحبة طويلة ذات أثر بالغ .

والرازي في تقسيمه للنفس البشرية متأثر بالقرآن الكريم والسنة المطهرة ، فالنصوص القرآنية والنبوية تشير إلى ذلك التقسيم ، فالنفوس نوعان : منها الخيرة المجبولة على الخير ، ومنها السيئة المجبولة على الشر كما قال تعالى : ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِيْنَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوْبِهِمْ وَاتَّبَعُوْا أَهْوَاءَهُمْ . وَالَّذِيْنَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًىً وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ ﴾ محمد ١٦، ١٧ .

يقول ابن القيم في شرحه لهذه الآية (١٤٠٦هـ) : << فجمع لهم بين اتباع الهوى والضلال الذى هو ثمرته وموجبه ،كما جمع للمهتدين بين التقوى والهدى >> ص ١٩٣ .

ومن السنة ماأورده ابن الأثير في جامع الأصول (١٣٨٩هـ) وهو أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : << إن مثل مابعثني الله به من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكانت منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا منه وسقوا ورعوا ، وأصاب منها أخرى إنما هي قيعان لاتمسك ماء ولاتنبت كلأ... >> الحديث . ج ١ ص ٢٨٤ .

فالرسول صلى الله عليه وسلم - في هذا الحديث - يقسم النفوس إلى قسمين : نفوس تقبل التربية والهدى والعلم ، ونفوس قاسية لاتقبل ذلك ، ويشبه النفوس التي تأثرت بالهدى والعلم بالأرض الخصبة التي يؤثر فيها المطر فتنبت الكلأ والعشب الكثير فيستفيد منها الناس ، ويشبه النفوس الأخرى التي لاتقبل الهدى والعلم بالقيعان التي لاتمسك الماء ولاتنبت الكلأ ولايستفيد منها الناس .

وكلام الرازي عن طبيعة النفس القاسية لاينفي الخير عنها بالكلية بحيث تستحيل تربيتها بل يرى أنها بطيئة لاتنقاد بسهولة إلى الخير والمعرفة والأخلاق الفاضلة ، ومعنى هذا أنها تحتاج إلى جهد جهيد من قبل المربين لنزع ماعلق بها من الطباع الفاسدة ، وماعتادته من عادات قبيحة ، اكتسبتها نتيجة للتربية الخاطئة .

٢ - مرض الروح وشفاؤها :

يبين الرازي الأمراض التي تحدث للروح ، والسبب في وقوع تلك الأمراض ، ثم يصف العلاج .

فالروح تمرض كما تمرض الأجسام ، وتصيبها العلل المختلفة ، وأشد الأمراض على الروح هو فساد العقيدة الذي يصيبها بسبب الشرك والكفر وأنواع البدع والضلالات ، وينتج عن ذلك عدم الإيمان بالله والملائكة والرسل والكتب المنزلة والقضاء والقدر والبعث .

وتتأثر النفس بما يقوم به أهل الباطل من الترويج للشبهات والأخلاق الذميمة والعقائد الباطلة .

أما علاج هذه الأمراض الروحانية فهو موجود في القرآن الكريم ، كما قال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَاهُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ ﴾ . الاسراء ٨٢ .

ففي القرآن البرهان والدلائل الجلية الواضحة التي تظهر الحق وتبرزه وتدل عليه، وتبين الباطل وزيفه وأهل الزيغ والضلال وتكشف عقائدهم ومذاهبهم الباطلة والقرآن يعرف الإنسان بالأخلاق الفاسدة الذميمة ويدعوه إلى اجتنابها ، ويعرفه بالأخلاق الفاضلة ويدعوه إلى اتباعها .

ولاشك أن القرآن الكريم كتاب شامل ومنهج كامل يهدى إلى الخير والحق ، ويرشد إلى الفضيلة ويباعد عن الرذيلة ، فهو شفاء من جميع الأمراض الروحانية التي تعتري الإنسان . (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢١ ص ٣٤) .

و الرازي عندما يتحدث عن مرض الروح وعلاجها فإنما يضع للمربين والمعلمين أساساً تربوياً ليعملوا به من أجل ترسيخ العقيدة السليمة في نفوس تلاميذهم وطلابهم على ضوء توجيهات وارشادات القرآن الكريم ، فذلك يؤدي إلى صحتهم النفسية ويحفظهم من الانحرافات العقدية والأخلاقية ، ففي القرآن الحصانة والمناعة التي تقي الإنسان من الوقوع في حبائل أصحاب الضلال والباطل الذين يروجون للشبهات والمبادئ المنحرفة ومعلمو القرآن عليهم مسؤولية كبيرة نحو طلابهم ، ولكي يقوموا بمسؤوليتهم على أتم وجه ، فيجب أن يكونوا مؤهلين علمياً وتربوياً ليكونوا قادرين على تربية النشء وتغذية عقولهم ونفوسهم بآداب القرآن الكريم حتى يتم اعداد الأجيال المسلمة السليمة في عقيدتها وتفكيرها وأخلاقها .

إن الكثير من شباب الأمة الإسلامية يعانون من الأمراض الروحية المختلفة الفتاكة ، وما كان ذلك ليحدث لولا بعدهم عن القرآن وتعاليمه ، ولن يكونوا شباباً أصحاء أسوياء إلا إذا تم علاجهم بعرضهم على القرآن الكريم ليقرءوه ويفهموه ويطبقوه . وليتذكر المعلمون قول الرسول صلى الله عليه وسلم « **خيركم من تعلم القرآن وعلمه** » .

فعلى المربي بواسطة القرآن أن يربي لسان الناشيء ويقوّمه بحسن التجويد وعدم اللحن ، وأن يربي قلب الناشيء بالخشوع ، وأن يربي سلوك الناشيء ويتعهده ليعمل بتعاليم القرآن في كل المجالات ، وأن يربي عقل الناشيء بالاستدلال على

ما استدل عليه القرآن ، ويتأمل مايدل على عظمة الله ، وأن يضع أسئلة كثيرة بعد كل درس لتمرين العقل على ذلك ، وهكذا نجد أن التربية بالقرآن يمكن أن تتناول كل جوانب النفس الإنسانية . (النحلاوي - ١٤٠٣هـ - ص ٩٤ ، ٩٥) .

العلاقة بين الروح والبدن :

١ - تكامل الروح والبدن :

يقرر الرازي أن الطبائع التي يتألف منها البدن متنافرة ولايمكن اجتماعها إلا بقوة قاهرة تؤلف بينها . وينتقد الرازي ابن سينا ، لأنه أخطأ في كتابه (الإشارات) حيث قال : << إن ذلك القاسر هو النفس الإنسانية >> ، بينما الرازي يرى أن تعلق النفس بالبدن إنما يكون بعد حصول المزاج واعتدال الأمشاج ، وهذه الحالة تثبت أن القاهر لطبائع البدن على التآلف والاجتماع هو الله تعالى .

ويرى - أيضاً - أن بين الروح والجسد تنافراً شديداً ، لكن الله ألف بينهما وجعل كلاً منهما مكملاً للآخر ، فالروح تحفظ الجسد وتصونه من التعفن والتفرق والفساد ، والجسد آلة للروح في تحصيل المعارف النافعة والسعادات الأبدية ، فهذا التكامل لم يحدث إلا بقدرة الله وقهره لهذه الطبائع كما قال تعالى ﴿ وهُوَ القاهرُ فوقَ عِبَادِهِ ﴾ الانعام ٦١ . (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٣ ص ١٤) .

٢ - الحكمة من خلق البدن :

لايكمل الإنسان إلا إذا عرف الحق والخير ، ولايتم له الكمال إلا بالعمل، ففي سلوك الإنسان وعمله وتعامله يظهر أثر الحق والخير غير أن هذين الكمالين - الحق والخير - لايحصلان للروح إلا بواسطة البدن ؛ لذلك كانت الحكمة من خلق البدن ليكون آلة للروح تكتسب عن طريقه المعارف

وأنواع الكمالات ، فالروح لاتكمل إلا بالعلم والعمل به ، ولاتتمكن من العلم والعمل به إلا بتعلقها بالبدن ، ويشير الرازي إلى أن التكامل بين الروح والجسد محتاج إلى عامل آخر وهو القلب ، ولذلك خلق الله القلب لحفظ مزاج البدن واعتداله ، ولكي تحصل الفائدة من هذا التكامل بين الروح والجسد والقلب جعل الله الإنسان ناطقاً متكلّماً فزوده بالجهاز اللازم للنطق والذي به يعبر عن المعرفة ويكتسبها عن طريق التفاهم ، وفي ذلك أسرار وحكم عجيبة وفوائد لاحصر لها فسبحان الخالق الحكيم . (الرازي - التفسير الكبير - ج ١ ص ٢٥ ، ٢٦) .

والرازي عندما يتحدث عن عناصر التكامل في الإنسان وهي الروح والجسد والقلب والنطق ، فإنما يشير إلى أن الإنسان محتاج إلى التربية المتكاملة التي تلاحظ هذه العناصر جميعها ، فالله سبحانه وتعالي عندما أوجده بهذه الصورة الكاملة فقد جعله قادراً على التعلم وقابلاً للتربية . وهذا يعني أن ينظر المربون إلى الإنسان نظرة تكاملية باعتباره روحاً وجسداً وعقلاً فيعملوا على أن ينمو النمو المتوازن في هذه الجوانب . والرازي - أيضاً - لايهمل القدرة اللغوية بل يرى أن الله قد أوجدها لحكمة بالغة ؛ ولذلك يجب أن تعمل التربية على تنمية القدرة اللغوية لدى الناشئين منذ الصغر ليكونوا قادرين على استخدام جهازهم الصوتي بطريقة صحيحة ، يقول الرازي (المصدر السابق) : «« ثم إن المقدر الحكيم والمدبر الرحيم خلق محابس ومقاطع للصوت في الحلق واللسان والاسنان والشفتين ، وحينئذ يحدث بذلك السبب هذه الحروف المختلفة ، ويحدث من تركيباتها الكلمات التي لانهاية لها ، ثم أودع في هذا النطق والكلام حكماً عالية وأسراراً باهرة ، فسبحان الخالق المدبر بالحكمة الباهرة والقدرة الغير متناهية »» ج ١ ص ٣٦ .

والاهتمام بالقدرة اللغوية من المهام الأساسية التي يجب أن تضطلع بها التربية ، فالطفل في مراحله الأولى شديد المحاكاة والتقليد لأبويه ومعلميه وهذا يستدعي ضرورة مخاطبته باللغة السليمة ليتمكن من اكتساب الألفاظ

والعبارات والتراكيب العربية الفصيحة ، وعلى المربين أن يحاولوا تلافي العيوب اللغوية لديه وتصحيحها ، وأن يدربوا الطفل على استخدام الألفاظ والعبارات الصحيحة ، ولاشك أن مسؤولية المعلمين كبيرة ، فالمعلم الذي يلتزم باللغة الفصحي في دروسه سوف يترك أثراً بالغ الأهمية في تلاميذه ، ولايقتصر الأمر على معلمي اللغة العربية بل ينبغي أن يلتزم مدرسو جميع المواد بالفصحي .

ومن الثابت أن القرآن الكريم ذو أهمية عظيمة في تزويد الناشئين بالألفاظ والعبارات والتراكيب الفصيحة البليغة والأساليب الجميلة الرائعة ، كما أن القرآن يساعد الناشيء على استخدام أجهزة الصوت المختلفة فيعوده على اخراج الحروف من مخارجها ، ودرس التجويد تطبيق عملي لذلك .

إن اهتمام المربين بالنمو اللغوي يجعل التلاميذ قادرين على التعلم بيسر وسهولة في جميع العلوم ، فاللغة هي الوسيلة والأداة التي تساعد على الاتصال والتفاهم كما تساعد على الإستيعاب والفهم ، فالقدرة اللغوية لدى المعلم والطالب تمكن الاثنين من التفاهم والحوار والنقاش وإيصال الأفكار بطريقة سليمة واضحة دون لبس أو غموض بل إن القدرة اللغوية تمكن المفكر والكاتب والمؤلف والمعلم وغيرهم من إيصال مايدور في النفس أو في الفكر إلى الآخرين بصورة صحيحة ، وكلما كان الشخص أكثر تمكناً من لغته كلما كان أقدر على تأدية أفكاره ومعانيه إلى غيره فتكون الفائدة أعم وأكمل ، وكلما كانت قدرته اللغوية أضعف كلما كانت أفكاره أقرب إلى الغموض وعدم الوضوح .

ويبين الرازي مدى اختلاف الناس في القدرة اللغوية ومايترتب على ذلك من وضوح الفكرة أو غموضها فيقول (التفسير الكبير) :

<< ثم إن الناس مختلفون في مراتب القدرة على التعبير عما في الضمير ، فمنهم من يتعذر عليه إيراد الكلام المرتب المنتظم بل يكون مختلف الكلام مضطرب القول ، ومنهم من يتعذر عليه الترتيب من بعض الوجوه ، ومنهم من يكون قادراً

على ضبط المعنى والتعبير عنه إلى أقصى الغايات ، وكل من كانت هذه القدرة في حقه أكمل كانت الآثار الصادرة عن النفس النطقية في حقه أكمل ، وكل من كانت تلك القدرة في حقه أقل كانت تلك الآثار أضعف ›› ج ٢٦ ص ١٨٧-١٨٨ ٠

فاللغة إذاً لها أهميتها في نجاح الأفكار أو فشلها ، فإذا عبر عن فكرة صحيحة بلغة غير محكمة فقد يؤدي ذلك إلى ضياعها أو موتها ، كما أنه إذا عبر عن فكرة باطلة بلغة محكمة فقد يؤدي ذلك إلى رسوخها وانتشارها بين الناس ٠ (الكيلاني - ١٤٠٩هـ - ص ٢٧١) ٠

٣ - التلازم بين البدن والروح وتأثر كل منهما بالآخر:

يؤكد الرازي على التلازم والترابط التام بين الروح والبدن ، فما يحدث للبدن تتأثر به الروح ، ومايحدث للروح يتأثر به البدن ، فكل أمر يحدث لأحدهما تظهر آثاره ونتائجه على الآخر ، ولذلك يجب حمل البدن على الأعمال الصالحة والمواظبة على ذلك والاستمرار فيه ليكون تأثيره على الروح تأثيراً حسناً ، فقد أصبح من الأمور المعروفة أن مواظبة الإنسان على أي عمل من الأعمال ، وتكراره لذلك مرات عديدة يؤدي إلى حصول ملكة راسخة في النفس ، وماذلك إلا بتأثير البدن ، لأن للممارسات والأعمال التي تؤدى بواسطته تنعكس آثارها على الروح ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٣ ص ١٩٠ ، ج ١٥ ص ١٠٩) ٠

ونظرة الرازي هذه تعني أنه لايمكن الفصل بين الجسم والروح وأنه يجب على التربية أن تنظر إليهما باعتبارهما وحدة متكاملة ، وهذه النظرة تتفق مع القرآن الكريم الذي لايعزل الروح عن الجسد بل يحقق التكامل بينهما ، فلا كمال للروح إلا بالجسد ، ولا حياة ولا كمال للجسد إلا بالروح ٠

ويتفق مع الرازي في هذه الفكرة محمد قطب ، الذي يرى أن الكيان الإنساني مكون من عنصرين هما الجسد والروح ؛ فالروح تسرى في الجسد كله ، مما جعل الإنسان وحدة متكاملة لايمكن فصل أي جزء منه عن الآخر ، وبناء على هذا الامتزاج والتكامل بين الروح والجسد تكون أعمال الإنسان وتصرفاته ، فهي تحصل نتيجة لعمل الروح والجسد معاً • (محمد قطب - ١٤٠٣هـ ص ٤٧) •

الفرق بين الروح والجسد في تلقي المعرفة :

يشبه الرازي الروح باللوح ، ويشبه العلوم بالنقوش ، ويرى أن الروح في البداية خالية من المعرفة ، ثم تكتسب المعرفة بدرجة أقل في بداية التعلم ، لأنها تحتاج إلى ترويض وتربية لتقبل العلم - فيما بعد - بدرجة أكبر ، فإذ جد الإنسان واجتهد في الحصول على شيء من المعرفة صار ذلك سبباً في حصول معرفة جديدة ، فكل معرفة تقود إلى معرفة أخرى ، وهكذا فكل علم سابق يسهل على صاحبه اكتساب علم جديد بصورة أكبر .

ويشبه الرازي الجسد - أيضا - باللوح ، لكن اللوح الجسماني يختلف عن اللوح الروحاني ، فحصول النقوش فيه مانع من حصول نقوش أخرى لأن الجسد لايحتمل كثرة المهارات المتعددة ، فاتقانه لمهارة واحدة - أو كما يسميها الرازي " نقش واحد " - يمنع من حصول نقوش أخرى أو يضعف من قدرة الإنسان على الاتقان . (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٧ - ص ٤٢) .

والرازي يقصد أن المعاركف التي تتعلق بالروح كالمعارف الدينية ومايتعلق بها من أحكام وقيم تساعد على استيعاب معارف جديدة ، لأن الروح مجال قابل لتراكم المعرفة ، وقابلة للتبحر والازدياد من العلم ، ولاسيما تلك المعرفة الروحية التي تزيد المرء إيماناً وتزيد الروح صفاءً واشراقاً ، كما أن المواظبة على الأعمال الصالحة تؤدي إلى الثبات والاستمرار في تحصيل المعرفة ، ويركز الرازي على قضية الإيمان وأثرها في اكتساب المعرفة التي تصلح الروح ، فالنفس لاتزال تترقى في مدارج الكمال والارتقاء من معرفة إلى معرفة أكمل منها ، وكلما كان إيمان الإنسان أقوى وأكمل كان سبباً في حصول هداية ومعرفة أكمل ، كما قال تعالى : ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ يونس ٩ . (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٧ ص ٤٢ - ٤٣) .

أما المهارات الجسمية التي يعبر عنها الرازي بـ" نقوش جسمانية" فإن الجسم إذا حصلت له مهارة معينة ، فإنه لايتمكن من مهارة أو حرفةٍ أخرى ، فالجسم غير قابل للجمع بين عدد من المهارات .ويبدو أن الرازي يريد الأعمال الجسمية الآلية التي لاتحتاج إلى مجهود ذهني كبير مثل الحرف الخاصة بالزراعة ، والحياكة ، والحدادة ، والنجارة ، وسائر الأعمال اليدوية . وفي العصر الحديث تعمل المعاهد المهنية والتقنية بهذا الرأي فلاتعطي الطالب أكثر من مهنة واحدة بل تدريبه على مهارة واحدة يتخصص فيها ويتقنها ، وفي هذا مايدل على أن الرازي قد لاحظ هذا الأمر على الرغم من بعد المسافة الزمنية بين عصره وعصرنا.

اللذة الجسمية واللذة الروحية :

يقسم الرازي اللذة إلى قسمين : لذة روحية ، ولذة جسمية ، وعنده أن اللذة الجسمية هي الغالبة في البداية فهي المسيطرة على الإنسان في أول نشأته . أما اللذة الروحية فلاتحصل له إلا بعد أن تتمكن منه اللذة الجسمية وحينئذ يصبح من الصعب انجذاب النفس إلى اللذة الروحية ، بل إن النفس إذا مالت إلى اللذة الروحية فإنه من السهل زوالها لأدنى سبب ، حيث يكون الميل إلى اللذات الجسمية هو المستحكم والميل إلى اللذات الروحانية هو الأضعف ، ولذلك يكون من النادر وجود إنسان غلبت عليه اللذة الروحية ، ولذلك يقول الله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ ﴾ آل عمران ١٤٠ .(الرازي - التفسير الكبير - ج ٧ ص ١٩٦) .

غير أنه من الممكن تلافي تحكم اللذات الجسمية وغلبتها على اللذات الروحية بواسطة التربية التي تعمل على احداث التوازن منذ النشأة المبكرة للإنسان حتى لاتتمكن تلك اللذات والشهوات من نفسه . وكما هو معلوم فإن التربية الإسلامية تعمل من أجل النمو المتكامل للناشيء ، فتربي روحه وجسمه وعقله منذ البداية لينمو نمواً متوازناً يحفظ له كيانه ، ولذلك أثره البالغ والعميق في نفس الطفل ، والتربية الإسلامية تراعي الاستعداد الفطري لدى المولود فتحاول توجيهه لينشأ على ملة

الاستعداد الفطري لدى المولود فتحاول توجيهه لينشأ على ملة الإسلام التي هي فطرته الأصلية كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : << مامن مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه >>(البخاري -١٩٣٢م - ج ١ ص ١٦٢)

فإذا وجد هذا المولود في البيئة الصالحة الأولى - وهى تتمثل في الأبوين - فإن استعداده الفطري سينمو نمواً إيجابياً يمكنه من اكتساب الأفكار والقيم والأخلاق النبيلة التي هي من عمل الروح ٠

أما إذا نشأ الناشىء في بيئة تنعدم فيها التربية السليمة التي تدع المجال مفتوحاً أمامه للانسياق وراء ملذاته الجسمية فإن ماذهب إليه الرازي سيحدث ، وسيكون من الصعب تعديل سلوك الإنسان بعد أن يكبر وقد اعتادت نفسه الانغماس في اللذات والشهوات ٠

والرازي - في فكرته السابقة - لايدعو إلى اضعاف الجسد وتغليب الروح عليه لأن هذا يتناقض مع فكرة التوازن التي يحرص الرازي عليها ، فقوة الجسم مهمة عنده ،لأن الجسم القوي يعين الروح على آداء مهمتها في العبادة ، كما أن قوة الجسم تساعد على التفكير السليم والحكم الصحيح ، بينما ضعفه يؤدي إلى اختلال الفكرة وتشوش العقل ، ويحذر الرازي من الرهبانية التي ذمها الإسلام ؛ لأن من شأنها اضعاف الجسد وحرمانه مما أباحه الله له ، وهي أيضاً - تؤدي إلى خراب الدنيا وعدم عمارتها ، ويتحول المجتمع المسلم في ظل الرهبانية إلى مجتمع ضعيف هزيل في كل شؤونه فلايعمر الأرض ولايصلحها ، وتنعدم فيه عناصر الخلافة التي يريدها الله تعـــالى٠

أما الاعتدال والتوازن بين الجسم والروح فإنه يصل بالإنسان إلى الكمال المطلوب في الأعمال العقلية والحسية المفضية إلى عمارة الدنيا والآخرة ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٢ ص ٧٠ - ٧١) ٠

القوى الروحية والقوى البدنية وموقف العقل منها :

ا - العقل والروح والجسم :

العقل - عند الرازي - يختلف عن الروح ، بدليل أن الروح موجودة في حالة فقدان العقل ، فالإنسان يبقي حياً بواسطة الروح مع فقدان العقل لكنه - في هذه الحالة - يكون مجنوناً ٠

فالعقل ضروري للروح كما أن الروح ضرورية للجسد ٠ والعملية التربوية بالنسبة لهذه الأمور الثلاثة متسلسلة مترابطة ، فالعقل يربي الروح ، والروح تربي الجسد ٠ لكن العقل لايستطيع النهوض بمهمته في تربية الروح إلا إذا كان قد تربى قبل ذلك بالمعرفة التي يستمدها من القرآن الكريم ، فالقرآن يزوده بمعرفة الله وبأوامره ونواهيه وعلى ضوء ذلك يصبح طائعاً لله ، والعقل الخالي من تلك المعرفة هو عقل فاسد ضائع باطل لاخير فيه ، وكذلك النفس الخالية من تلك المعرفة هي نفس ضالة ضائعة تعتبر في عداد الأموات ٠

والرازي يستمد هذا المعنى من قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ الانعام ٣٦ ٠

وبناءً على هذا فالتربية - عند الرازي - تتم وتتكامل في ميادين ثلاثة : ميدان العقل ، وميدان الروح ، وميدان الجسد ٠ وهي عملية مترابطة في الميادين الثلاثة : ففي الميدان الأول تتم التربية بواسطة القرآن الكريم الذي يربي العقل بما يشتمل عليه من معارف ، فيربيه على التوحيد والايمان والآداب والفضائل التي بها يصفو العقل ويشرق وينمو حتى يبلغ كماله ، فإذا أصبح العقل كذلك فإنه يقوم بمهمته في الميدان الثاني ؛ فيربي الروح ويحملها على الخير وفعل البر وطاعة الله ، فإذا أصبحت الروح كذلك ، فإنها تقوم بواجبها في الميدان الثالث ، فتربي الجسد وتصلحه وتبلغ به الكمال المطلوب ٠

ومن الواضح أن القرآن الكريم هو الأساس الذي اعتمدت عليه التربية في الميادين الثلاثة ، فتربية العقل بواسطة القرآن الكريم أدت إلى نجاح التربية بالنسبة للروح والجسد .(الرازي - التفسير الكبير - ج ١٢ ص ٢٠٩ ، ج ١٩ ص ٢١٩ - ٢٢٠).

٢ - الصراع بين العقل والقوى النفسية :

يذكر الرازي للنفس تسع عشرة قوة هي : الحواس الخمس الظاهرة والحواس الخمس الباطنة ، وقوتا الشهوة والغضب ، والسبع الأخرى يسميها القوى الكامنة وهي: الجاذبة ، والماسكة ، والهاضمة ، والدافعة ، والغاذية ، والنامية ، والمولدة .

ويرى الرازي أن هذه القوى جميعاً تدعو النفس إلى اللذات الجسمية، والقوة الوحيدة التي تجابه هذه القوى وتصارعها هي قوة العقل الذي يقف بمفرده يدعو النفس إلى عبادة الله .

كما يرى أن هذه القوى التسع عشرة تكون أكمل استيلاء على النفس من القوة الواحدة التي تتمثل في العقل ، ولذلك تميل الشهوات بأكثر الناس فيعرضون عن معرفة الحق التي يدعو إليها العقل ، ومما يزيد من تحكم الشهوات كونها في أول الخلقة قوية بينما يكون العقل ضعيفاً ، وعندما يكبر الإنسان وينضج عقله يكون من العسير عليه كبح جماح هذه الشهوات ولما كان هذا هو الأمر الغالب على أكثر الناس قال : ﴿ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ الأعراف ١٧ .

ونتيجة لهذا الصراع القائم بين قوى النفس والعقل فإن الغلبة تارة تكون للعقل والحكمة ، وتارة تكون الغلبة للشهوة ودواعيها . (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٤ ص ١٣ ، ج ١٨ ص ١١٩) .

والرازي - هنا - لايميل إلى كبت هذه القوى النفسية ، لأن هذا يتعارض مع دعوته - السابقة - إلى عدم الرهبانية . ويمكن القول بأن الرازي لايفوته ماللتربية من أثر في تقويم وتعديل سلوك الإنسان ليتمكن من السيطرة على شهواته وتمكين

العقل من ضبط القوى النفسية وفق مايدعو إليه القرآن الكريم ، فلايكبت الإنسان دوافعه وشهواته بل يوجهها لتلبية حاجاته الضرورية التي تحفظ له كيانه وتوازنه في الحدود التي رسمها القرآن الكريم ·

ولذلك يدعو الرازي إلى التوسط والاعتدال في تلبية حاجات النفس ، فلا إفراط ولاتفريط ، يتضح ذلك من قوله : (التفسير الكبير) << من بالغ في الأعمال الشهوانية وقع في الفجور ، ومن بالغ في تركها وقع في الجمود، والصراط المستقيم هو الوسط ، وهو العفة ، وأيضاً من بالغ في الأعمال الغضبية وقع في التهور ، ومن بالغ في تركها وقع في الجبن ، والصراط المستقيم هو الوسط ، وهو الشجاعة >> ج١ ص ١٨٣ ·

ويرى أساتذة علم النفس - في العصر الحديث - أن قوى النفس ودوافعها تؤدي وظائف هامة وضرورية للإنسان لايمكنه العيش أو البقاء بدون تلبيتها ، مثل دوافع الجوع والعطش ، والتعب ، والبرد والحرارة ، والألم وغير ذلك ، فهي تدفع الإنسان إلى طلب الطعام والماء ، والراحة والنوم ، والوقاية من الألم والمرض ، وكذلك الدافع الجنسي ضروري لبقاء النسل ، ودافع الأمومة ضروري لحفظ الولد · ويسمي علماء النفس هذه الدوافع دوافع فسيولوجية · وهناك دوافع نفسية مثل دافع التدين ، ودافع التملك الذى يدفع الإنسان إلى جمع المال خشية الفقر أو حباً للنفوذ والجاه والقوة منها دافع العدوان ، ودافع التنافس ، وغير ذلك (نجاتي -١٤٠٢هـ - ص ٢٣ - ٤٥)

وقد وضع الإسلام أساساً لتربية هذه القوى -كمايسميها الرازي - أو الدوافع- كما يسميها علم النفس الحديث · فالإسلام يتيح للإنسان تلبية هذه الحاجات بالطرق المشروعة فيأكل ويشرب مما أباحه الله له ، ويجمع المال من الطرق المشروعة ، وينفق كذلك ، والإسلام لايقر العدوان لكنه يبيح الدفاع عن النفس وعن الحق ودحر الظلم والعدوان ، ويحث الإسلام على تلبية الدافع الجنسي لكن عن طريق الزواج المشروع ·

ويمكن ذكر بعض الآيات التي ترشد إلى تلبية قوى النفس بطريقة منضبطة ومنظمة ·

ففي دافع التدين وضبطه من الانحراف إلى دين غير الدين الصحيح يقول تعالى ﴿ فأقمْ وجْهكَ للدّينِ حَنيفاً فِطْرةَ اللّهِ التي فَطَرَ النّاسَ عليها لاتبديلَ لخلقِ اللّهِ ذلك الدّينُ القيمُ ولكنّ أكثرَ النّاسِ لايعلمُونَ ﴾ الروم: ٣٠ .

وفي تلبية دافع الجوع عن طريق الحلال يقول تعالى: ﴿ ياأيُّها النّاسُ كلُوا مّما في الأرضِ حلالاً طيباً ولاتتبعُوا خُطُواتِ الشّيطانِ إنّهُ لكُمْ عدوٌ مُبينٌ ﴾ البقرة ١٦٨ .

وفي تلبية دوافع الحماية من الحر والبرد والعدوان يقول الله تعالى: ﴿ واللّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَناً وجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الأنعامِ بُيُوتاً تَسْتَخِفُّونَها يومَ ظَعْنِكُمْ ويومَ إقامتِكُمْ وَمِنْ أَصْوافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثاً وَمَتاعاً إِلَىٰ حِيْنٍ . واللّهُ جَعَلَ لكُمْ مِمّا خَلَقَ ظِلالاً وجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَاناً وجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيْلَ تَقِيْكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيْلَ تَقِيكُمْ بأْسَكُمْ كَذَلِكَ يتمّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لعلّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾ النحل ٨٠ ، ٨١ .

وفي تلبية دافع الراحة وابتغاء الرزق يقول تعالى: ﴿ ومِنْ آياتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللّيْلِ وَالنّهارِ وابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآياتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُوْنَ ﴾ الروم ٢٣ .

وفي دافع حب المال والبنين يقول تعالى ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُوْنَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الكهف ٤٦ .

وفي تلبية الدافع الجنسي وبقاء النسل يقول تعالى: ﴿ وَاللّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِيْنَ وَحَفَدَةً ﴾ النحل ٧٢ .

وفي دافع الأمومة وتحملها مشاق الحمل والولادة والإرضاع ورعاية الطفل يقول تعالي: ﴿ وَوَصّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَاناً حملتْهُ أمُّهُ كُرهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلاثُوْنَ شَهْراً ... ﴾ الاحقاف ١٥ .

والرازي عندما يتحدث عن قوى النفس ومدى الصراع الذي يحدث بينها وبين العقل فإنما يضع الخطوط العريضة للمربين ليهتموا بتربية وتوجيه هذه القوى لتلبية حاجات الإنسان وفق ماتقتضيه تعاليم الشرع ، وكذلك تربية العقل لتمكينه من ضبط شهوات الجسد لتتوافق مع متطلبات الروح والعقل ، ولذلك يقول في تفسيره للآية السابقة رقم ١٦٨ من سورة البقرة (المصدر السابق) : << والطيب في الأصل هو مايستلذ به ويستطاب ، والحرام غير مستلذ ، لأن الشرع يزجر عنه ، فعلى هذا إنما يكون طيبا إذا كان من جنس مايشتهى ، لأنه إن تناول مالاشهوة له فيه عاد حراماً وإن كان يبعد أن يقع ذلك من العاقل إلا عند شبهة >> ج ٥ ص ٣ •

فكلام الرازي هذا يدل على أن النفس إذا رُبّيت بتعاليم الشرع فإنها لاتتوق إلى الحرام الذي يزجرها الشرع عنه ، بل تميل إلى الحلال وتستلذ به ، وكذلك العقل إذا تربى بتعاليم الشرع فإنه يحمي صاحبه ويمنع النفس من الوقوع فيما لايبيحه الدين •

٢ - القوى المهيمنة على البدن :

يُرجع الرازي القوى البدنية والنفسية إلى ثلاث قوى رئيسة هي : القوة الناطقة ، والقوة الغضبية ، والقوة الشهوانية • والرازي ينسب هذه القوى مرة إلى النفس ومرة إلى البدن باعتبارهما عنصرين متلازمين يؤثر كل منهما في الآخر •

ثم يوضح الرازي المفاسد التي تنتج عن هذه القوى الثلاث في حالة انحرافها فينتج عن القوة الناطقة الكفر والبدعة وماأشبه ذلك ، وينتج عن القوة الغضبية القتل والعدوان وماأشبهه ، وينتج عن القوة الشهوانية الزنا ومايشبهه •

ويقارن الرازي بين هذه القوى ، فيجعل القوة الشهوانية أخسها ؛لأن فسادها أسوأ أنواع الفساد ، ولذلك سمى الله عملها فاحشة في قوله تعالى : ﴿ واللَّاتِي يَأْتِينَ الْفَاحِشَةَ مِنْ نِسَائِكُمْ ... ﴾ النساء ١٥ .

ويضيف الرازي قوة رابعة هي القوة العقلية ، لكنها - عنده - قوة إيجابية لاتخطىء ، لأنها من جوهر ملكي ، ولذلك لايحتاج العقل - في نظره - إلى تأديب أوتهذيب . أما الثلاث القوى الأولى فيجب تأديبها وتهذيبها ؛لأنها مصدر لكل الانحرافات والخروج عن أوامر الدين . (الرازي - التفسير الكبير - ج ٩ ص ١٣٠ ، ج ٢٠ ص ١٠٤) .

٤ - مداخل الشيطان إلى النفس البشرية :

تعد القوى السابقة مداخل للشيطان إلى النفس البشرية ، ويوضح الرازي مدى خطورتها ؛ ففي حالة انحرافها تصبح أكبر عدو للإنسان حيث تفتك به وتجلب له الشرور والآثام ويصير الإنسان بسببها فريسة سهلة للشيطان الذي ينفذ من هذه المداخل إلى النفس البشرية ، ويقوم من خلالها بشتى الوساوس ، ويتولد من تلك القوى صفات ذميمة عديدة ، فينتج عن الشهوة الحرص والبخل ، وينتج عن الغضب العجب والكبر ، وينتج عن الهوى الكفر والبدعة ، ثم إن هذه الصفات الست إذا اجتمعت في الإنسان أدت إلى صفة أخرى أقبح وأشنع من تلك وهي صفة الحسد . (الرازي - التفسير الكبير - ج ١ ص ٢٦٦) .

وبعد أن شخص الرازي الأمراض النفسية الناتجة عن مداخل الشيطان المذكورة ، اقترح لها علاجاً تربوياً ، وذلك العلاج موجود في سورة الفاتحة ، فإذا فهمها المسلم وتدبرها وطبقها كانت له حرزاً من الشيطان وسدت مداخله إلى النفس وبالتالي يسلم من تلك المداخل وآثارها ومايتولد عنها من ذنوب وأخلاق ذميمة . فقد أنزل الله تعالى هذه السورة لتكون علاجاً حاسماً لتلك الأخلاق السبع الذميمة وهي : الحرص والبخل ، والعجب والكبر ، والكفر والبدعة ، والحسد .

فقارئ الفاتحة يقول : (الحمدُ للّهِ) فتزول عنه شهوته ، ويقول : (ربِّ العَالمِينَ) فيزول عنه الحرص والبخل ، ويقول : (الرَّحمنِ الرَّحيم مَالِكِ يوم الدِّين) فيزول عنه الغضب ، ويقول : (إيَّاكَ نَعْبُدُ وإيَّاكَ نَسْتعينُ) فيزول عنه الكبر والعجب ، ويقول : (اهدِنَا الصِّراطَ المستقيمَ) فيفر عنه شيطان الهوى ، ويقول : (صِراطَ الّذينَ أنعمْتَ عَلَيْهِمْ) فيحميه ذلك من الكفر والشبهات ، ويقول : (غَيْرِ المغضُوبِ عَلَيْهِمْ ولاالضَّالِينَ) فتدفع عنه البدعة وتكون نتيجة ذلك كله السلامة من تلك السبع المهلكات . (الرازي - التفسير الكبير - ج ١ ص ٢٦٧ - ٢٦٨) .

لقد استطاع الرازي - بما وهبه الله من فهم ثاقب - أن يضع هذا الدرس التربوي من خلال سورة الفاتحة التي تعد شفاء للنفوس من عللها وأمراضها،ولو أن الناس استوعبوا هذا الدرس وطبقوه على أنفسهم وعملوا بسورة الفاتحة لما وجد الشيطان إلى نفوسهم سبيلاً ، ولما فتكت بهم الشهوات والأمراض النفسية المختلفة ، ولما احتاجوا إلى المصحات النفسية ٠

والرازي عندما يبرز هذا الدرس التربوي في سورة الفاتحة فإنما يريد من المربين أن يربوا تلاميذهم بما في هذه السورة من دلائل التوحيد ، ومافيها من الآداب التي ترشد إلى السلوك الحميد ، فهي تشتمل على دروس تربوية عظيمة النفع لتربية التلاميذ منذ نشأتهم الأولى ، لتملأ عليهم قلوبهم ونفوسهم بالإيمان فينشأوا أصحاء النفوس معتادين على ممارسة هذا الدرس العملي مدى الحياة وفي كل صلاة مما يجلب لهم السعادة العاجلة في الدينا والسعادة الأبدية في الآخرة ٠

وينبه الرازي إلى أهمية التربية بالثواب والعقاب ، فلذلك أثره التربوي ، حيث يعاضد ويساعد العقل على تربية النفس وضبط وتنظيم شهواتها ، ويهذب ويعدل سلوك الإنسان ، فالآيات القرآنية المشتملة على الوعد والوعيد والثواب والعقاب فيها الزواجر والنواهي التي تحمل النفس على ترك الشر ، وفيها الترغيب الذي يحمل النفس على فعل الخير ، ولذلك يقول الرازي (التفسير الكبير) «إن العقل وإن كان يدعوه إلى فعل الخير وترك الشر إلا أن الهوى والنفس يدعوانه إلى الانهماك في الشهوات الجسمانية واللذات الجسدانية ، وإذا حصل هذا التعارض فلابد من مرجح قوي ومعاضد كامل وماذاك إلا ترتيب الوعد والوعيد والثواب والعقاب على الفعل والترك» ج ١٧ ص ١٩ ٠

ماذا قال الرازي عن الدماغ ؟ :

الرارزي طبيب كبير وله باعه الواسع في علم الطب ، ولديه دراية بوظائف الأعضاء في جسم الإنسان حسبما وصل إليه علم الطب في زمانه ، لكنه -مع هذا الفارق الزمني - يكاد يقترب في فهمه من فهم الأطباء في العصر الحديث ، يظهر ذلك من كلامه عن الدماغ والمخ وأثره على بدن الإنسان ٠

ويتميز الرازي - عن غيره - بربطه وظائف الدماغ ومايقوم به من عمل دقيق بعظمة الخالق جل جلاله ، حيث يعرض ذلك بأسلوب تربوي مؤثر يستثير لدى القارئ كوامن الفطرة الدينية ، ويحرك عواطفه ووجدانه ليفكر في عجيب صنع الله فيه ، فدماغ الإنسان من آيات الله العجيبة ونعمه العظيمة التي تستدعي التفكير والتدبر، ولو قضى الإنسان عمره في التدبر في نعمة الدماغ والمخ ومايقوم به من عمليات عقلية ووظائف جسمية لما استطاع أن يصل إلى نهاية لذلك العمل الجبار لهذا العضو الصغير الذي يتحكم في كل بناء الإنسان ٠

ومن الأفضل إيراد بعض العبارات التي ذكرها الرازي في تفسيره عن الدماغ وأهميته ؛لما لها من أثر تربوي ، ففيها درس مفيد يذكّر الإنسان بهذه النعمة العظمى التي تحفظ كل نشاطاته الجسمية والفكرية ، وإنه لأمر ذو أثر في تذكيره بفضل الله عليه ليحمده ويشكره فبالشكر تدوم النعم ٠ يقول : (التفسير الكبير) :

> الأعصاب قسمان ، منها دماغية ومنها نخاعية ٠ أما الدماغية فإنها سبعة ، ثم كل واحد ينقسم إلى شعب كثيرة وكل واحد من تلك الشعب أيضاً إلى شعب دقيقة أدق من الشعر ولكل واحد منها ممر إلى الأعضاء ولو أن شعبة واحدة اختلت إما بسبب الكمية أو بسبب الكيفية أو بسبب الوضع لاختلت مصالح البنية ، ثم إن تلك الشعب الدقيقة تكون كثيرة العدد جداً ، ولكل واحدة منها حكمة مخصوصة ، فإذا نظر الإنسان في هذا المعنى عرف أن لله تعالى بحسب كل شظية من تلك الشظايا العصبية

على العبد نعمة عظيمة لو فاتت لعظم الضرر عليه وعرف قطعاً أنه لاسبيل له إلى الوقوف عليها والاطلاع على أحوالها ، وعند هذا يقطع بصحة قوله تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لاتُحْصُوهَا ﴾ إبراهيم ٣٤ ٠ وكما اعتبرتَ هذا في الشظايا العصبية فاعتبر مثله في الشرايين والأوردة ، وفي كل واحد من الأعضاء البسيطة والمركبة بحسب الكمية والكيفية والوضع والفعل والانفعال حتى ترى أقسام هذا الباب بحراً لاساحل له ، وإذا اعتبرت هذا في بدن الإنسان الواحدفاعرف أقسام نعم الله تعالى في نفسه وروحه. ج١٩ ص ١٢٩ ٠

والدماغ - في الطب الحديث - يتكون من ١٣ مليار خلية عصبية ، ومن ١٠٠ مليار خلية دبقية تقوم بحراسة الخلايا العصبية ، وإذا وقع البدن في أزمة فإن الدماغ هو العضو الذي يتميز على سائر الأعضاء الأخرى بالاستمرار في العمل والعطاء ٠

ويوجد في الإنسان قرابة ٨٠٠٠٠٠ خلية عصبية في الجزء الأمامي للحبل الشوكي وتعد القرون الأمامية في النخاع الشوكي مسؤولة عن تحريك العضلات بينما تعتبر الأجزاء الخلفية من النخاع مسؤولة عن نقل جميع أنماط الحس ٠

ويحتاج الدماغ يومياً إلى كمية كبيرة من الفلوكوز مقدارها ١١٥ غرام ، كما يحتاج إلى كمية من الفوسفات ، ويحتاج من ١٠ - ١٥ ٪ من الأكسجين وهي الكمية التي يحتاجها الجسم ٠ ولاتقل الكمية التي يحتاجها الدماغ من الدم عن ١٠٠٠ ليتر ٠

وكل هذه المقادير في غاية الأهمية للدماغ ، فإذا نقصت تقاعس الدماغ عن القيام بعمله ونشاطه الحيوي والضروري للجسم ٠(جلبي ١٣٩٤هـ - ج ٢ ص ٢٩٩ -٣٠٧)

وبالمقارنة بين مفهوم الرازي ومفهوم الأطباء المحدثين تجد التقارب واضحاً في المفهومين عن طبيعة الدماغ ومايقوم به من عمل حيوي شامل لكل البدن ، غير أن الطب الحديث يحدد بالأرقام لتوافر التقنية الطبية الحديثة التي لم تكن

متوافرة للرازي ، ولو كان لديه شيء منها لأرانا زيادة إيضاح مما أودعه الله في هذا الخلق العجيب •

ويتضح من كلام الرازي وغيره مدى أهمية الدماغ ومدى تأثيره على الجسم سلباً وإيجاباً ؛ فالدماغ يحتوي على القدرات العقلية ، وهو الذي يعطي جميع الاشارات لأنحاء البدن فتنفذ الأعضاء ماهو مطلوب منها، وهو الذى - بمشيئة الله- يحفظ توازن الإنسان واتزانه ، وهو مصدر التفكير والإبداع • ولذلك تحرص التربية الإسلامية على صحة الدماغ وسلامته وتحميه من كل مايفسده أو يتلفه ؛ لذا يجب على المربين توجيه تلاميذهم وطلابهم إلى مايحفظ ادمغتهم وعقولهم مما يتلفها كالمسكرات والمخدرات والفواحش التي تؤدي إلى الأمراض المدمرة للدماغ والجسم معاً • والتربية الإسلامية - بمفهومها الواسع - تحفظ للإنسان الضرورات الخمس المعروفة ، وهي : الدين ، والعقل ، والعرض ، والنفس ، والمال ، ومن الواضح أن العقل إذا اختل أدى إلى ضياع الضرورات الأربع الأخرى لأنه الأساس في سلامتها وحفظها جميعاً •

تكريم الإنسان وتميز طبيعته عن طبيعة الحيوان :

١ - يقرر الرازي أن الإنسان - في طبيعته - يشارك الحيوان في بعض القوى مثل : القوة الغاذية والنامية والمولدة ، ويشاركه أيضاً في الحواس الظاهرة والباطنة ، فله مثله حواس خمس ظاهرة ، وكذلك حواس باطنه فيحس بالألم والخوف والجوع وغير ذلك •

أما مايميز الإنسان عن الحيوان فهي القوة العقلية والفكرية التي بها يعرف الحق والخير ، لكن الكثير من الناس لايدركون قيمة هذه المنحة الإلهية التي ميز الله بها الإنسان فيستخدمون عقولهم فيما يعود عليهم بالضرر في الدنيا والآخرة ، ولذلك ينعى الرازي على الكفار عدم الاستفادة من عقولهم ،

وتعطيلها عما خلقت له ، فلم يبق لهم إلا القوى التي شاركوا الحيوان فيها فصاروا أضل من الحيوان ، لأن الحيوانات ليس لديها قدرة عقلية تمكنها من تحصيل الفضائل ، فهي لذلك غير مكلفة . أما الإنسان فقد أعطي نعمة العقل ، وبموجبها صار مكلفاً ، فإذا لم يكتسب الفضائل التي أمره الله بها فقد ضل ضلالاً كبيراً ، ومن كانت هذه صفته فقد صدق عليه قوله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ الأعراف ١٧٩ . (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٥ ص ٦٤) .

٢ - ويتميز الإنسان - أيضاً - بالقدرة على الإدراك ، فيعرف الشيء الكثير من الحقائق ، ولديه من البصيرة الثاقبة مايساعده على الاطلاع على الأسرار التي أودعها الله في هذا العالم الذي يعيش فيه ، فيستفيد مما سخره الله له من عوالم النبات والحيوان ، وبسبب ذلك صارت النفس الإنسانية وقواها أشرف وأعلى مقاماً من القوى النباتية والحيوانية ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾ الإسراء ٧٠ .

وميز الله الإنسان بالكلام ليعرِّف غيره بما يدور في نفسه تعريفاً تاماً ، وميزه بحسن الصورة وجمالها ، وميزه بالقدرة على التعلم والخط والكتابة .

وجملة القول أن الله كرم الإنسان بشيء ، وفضله بشيء آخر : أما الشيء الذي كرمه به فأمور طبيعية ذاتية مثل : العقل والنطق والخط والصورة الحسنة والقامة المديدة . أما الشيء الذي فضله به فهو العقل والفهم - خاصة - ليكون قادراً على اكتساب وفهم العقائد الحقة والأخلاق الفاضلة، والحقيقة أن هذا التكريم والتفضيل يُظهر مدى تميّز الطبيعة الإنسانية عن الطبيعة الحيوانية . (الرازي - التفسير الكبير - ج ١ ص ١٢ ، ١٣ ، ١٦) .

إن الرازي عندما يبين تلك المزايا وذلك التميز وذلك التكريم وتلك الأفضلية للإنسان فإنما يريد أن يبين إلى أي مدى كرم الله بني آدم ليصبحوا مؤهلين

للخلافة على الأرض فيعمروها ويستخدموا ماسخره الله لهم من الخزائن الظاهرة والباطنة فيستخرجوا كنوزها ويستخدموا ماعليها من حيوان ونبات •

ومن تكريمه لابن آدم أن جعله في هيئة جسمية تؤهله للعمل والانتاج بسهولة، مثال ذلك اليد التي بها يبني ويكتب ويصنع ويحيك ويغزل، ويمارس جميع الأعمال المعقدة، فلو كانت يده كيد الحيوان لما استطاع فعل شيء من ذلك، وفوق ذلك فضل بني آدم بالفهم والقدرات العقلية المختلفة ليكونوا قادرين على التعلم واستيعاب المعارف المختلفة، وبهذا يكون الإنسان مستعداً للتربية التي تؤهله ليكون صالحاً للخلافة في الأرض يستغلها بكل مافيها لخدمته ومصلحته •ولذلك يقول الرازي (التفسير الكبير) : << وأما المركبات فهي إما الآثار العلوية، وإما المعادن والنبات، وإما الحيوان • والإنسان كالمستولي على هذه الأقسام والمنتفع بها والمستسخر لكل أقسامها فهذا العالم بأسره جار مجرى قرية معمورة وجميع منافعها ومصالحها مصروفة إلى الإنسان، والإنسان فيه كالرئيس المخدوم، والملك المطاع، وسائر الحيوانات بالنسبة إليه كالعبيد وكل ذلك يدل على كونه مخصوصاً من عند الله بمزيد التكريم والتفضيل >> ج ٢١ ص ١٤ •

٣ - النـاس قســـمان :

يقسم الرازي الناس إلى نوعين : فالنوع الأول من الناس، هم الذين أدركوا كونهم مكرمين، وأدركوا قيمة الوسائل التي كرمهم الله بها وفضلهم فاستعملوها على مقتضى مراد الله وحكمته، فلم يستخدموا نعمة العقل - التي هي غاية التكريم - إلا فيما يرضي الله، فطلبوا بعقولهم المعرفة التي بها يعرفون كيف يعبدون الله تعالى، وطلبوا بعقولهم العلم الذي به يستطيعون عمارة الدنيا بما يعود على الجنس البشري بالخير والمنفعة •

أما النوع الثاني من الناس، فهم أولئك الذين لم يستفيدوا من ميزة التكريم والتفضيل فعكسوا القضية واستخدموا عقولهم فيما يعود عليهم وعلى غيرهم بالضرر،

لأنهم لم يصلوا إلى معرفة الحق ، وبالتالي لم يصلوا إلى الخير ولم يعملوا به فصارت عقولهم وعلومهم وبالاً عليهم وعلى البشرية ، ومن أمثال هؤلاء الكفار الذين عطلوا قوتهم العقلية والفكرية عن معرفة الحق والخير فكانوا كالأنعام • (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٥ ص ١٤) •

ولكي يسير الناس في الخط الذي سلكه النوع الأول وهو طريق الحق فإنه من واجب التربية الإسلامية أن تربي الناس ليعملوا بموجب العقل الذي كرم الله به بني آدم ليكونوا صالحين في أنفسهم مصلحين لغيرهم ، وليكون هدفهم في هذه الدنيا عبادة الله وحده ، فإذا وصلت بهم التربية إلى هذه الدرجة العالية من السلوك فقد استطاعت أن تحقق الهدف الأسمى من التربية وهو تحقيق العبودية لله ، وهذه هي أعلى درجات الكمال والتكريم لبني آدم ، وبهذا يكون الإنسان قد عرف الحق الذي أشار إليه الرازي - وعمل بالخير الذي هو تطبيق ونتيجة لمعرفة الحق •

والتربية الإسلامية - أيضاً - مسؤولة عن أولئك الذين ضلوا طريق الصواب ولم يعملوا بما يقتضيه العقل ، فتعمل التربية على تعديل سلوك هذا الصنف ، لتخرجهم من الجهل والضلال ومشابهة الأنعام • ولا شك أن التربية الإسلامية - بوسائلها المتعددة - يجب أن تبذل كل طاقاتها في هذا السبيل ، سواء مع المسلمين المنحرفين عن الحق ، أو مع غير المسلمين ، فتدعوهم وتبلغهم دين الإسلام بوسائلها المختلفة سواء عن طريق التعليم ، أو الدعاة ، أو الكتب أو وسائل الإعلام المختلفة ، فبإمكان التربية الإسلامية استخدام هذه الوسائط التربوية لتعديل سلوك الإنسان ليتفق مع مهمة العقل الذي هو مناط تكريمه وتكليفه ، وعندئذ يتحقق مايدعو إليه الرازي من معرفة الحق ومعرفة الخير لأجل العمل به •

الفطـــــرة الإنسانيـــــة :

الإنسان مفطور على التوحيد والإيمان بالله ولديه الاستعداد لأن يكون على ملة الإسلام، فهو يولد على الفطرة السليمة، لكن التربية هي التي توجهه بعد ولادته إما إلى الحق وإما إلى الباطل ؛ فإذا خرج إلى بيئة إسلامية وتولى تربيته أبوان مسلمان استمر على فطرته الأصلية، وإذا خرج إلى بيئة كافرة وتولى تربيته أبوان كافران انحرفت فطرته الأصلية وصار على دين أبويه • وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول : « **مامن مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه** » •

والرازي - في نظرته إلى الفطرة الإنسانية - لايخرج عن هذا الإطار ؛ فالإنسان - عنده - مفطور على التوحيد، والتوحيد هو فطرة الله التي فطر الناس عليها كما قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لايَعْلَمُونَ ﴾ الروم ٣٠ •

ويدلل الرازي على رسوخ هذه الفطرة في النفس بأن الإنسان عندما يقع في الشدة ينزع إلى فطرته الأصلية السليمة فيدعو الله ويطلب منه النجاة دون سواه، لكنه في حالة الرخاء يتنكر ويعود إلى ماكان عليه من الغفلة والجحود، مما يدل على أن الإيمان الفطري لايكفي في بقاء الإنسان على فطرته الأصلية • (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢٥ ص ١١٩ - ١٢١) •

والرازي عندما يبرهن على أن الإيمان الفطري لايكفي فإنما يدعو إلى تربية الإنسان حتى لاتعتريه عوامل تخرجه عن التوحيد الذي فطره الله عليه، والتربية الإسلامية هي السبيل الوحيد لحماية الإنسان من الإنحراف عن فطرته، أما ماعداها من أنواع التربية فهي سبيل إلى الانحراف بالمولود أو الناشيء عن فطرته الأصلية، حيث تذهب به إلى متاهات الكفر والضلال •

ويرى الرازي أن النفس - بفطرتها - مستعدة لقبول للعارف ؛ لذا يجب حملها على المعارف الشريفة مثل معرفة التوحيد الذي يُعدّ أشرف المعارف ؛ لأن به يتم تحقيق العبودية لله تعالى . وللنفس - عند الرازي - قوتان : قوة نظرية ، تتمثل في معرفة أنه لاإله إلاالله والإيمان به إيماناً خالصاً ، وقوة عملية ، وتتمثل في التطبيق والعمل بمقتضى الإيمان بأنه لاإله إلا الله . (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٩ ص ٢٢١) .

ويؤكد الرازي على أهمية تربية الإنسان وإلا زاغت فطرته وانحرفت بل - في الغالب - إنها إذا لم تجد من يوجهها ويرشدها فإنها تضل وتزيغ عن الحق ويوجه . الرازي المربين إلى الاعتماد على المصدرين الأساسين في التربية وهما القرآن الكريم وسنة النبي صلى الله عليه وسلم ، فهما أعظم مرب ومرشد . (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢٣ ص ٢٢٨) .

الخير والشر في الطبيعة الإنسانية :

١ - سبق القول بأن الإنسان مفطور على التوحيد ، وبناءً على هذا فلايمكن وصفه بالشر في أصل طبيعته ، فهو في الأصل ذو طبيعة خيّرة .

والتربية هي المسؤولة عن تشكيله بعد الولادة ، فبامكانها أن تجعله - بعد مشيئة الله - خيّراً أو شريراً ، فإذا تهيأت له التربية الصالحة تطبّع على الخير وصار خيّراً .

ويذهب الرازي إلى أن طبيعة الإنسان قابلة للخير والشر لأن الله قد هداه السبيلين ، سبيل الخير وسبيل الشر ، فالله قد هداه النجدين ، وهداه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ، قال تعالى ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً ﴾ الإنسان ٣ .

ثم يذكر الرازي الوسائل التربوية التي أنعم الله بها على الإنسان من أجل هدايته وهي : العقل ، وارسال الرسل ، وانزال الكتب • (الرازي - التفسير الكبير - ج ٣٠ ص ٢٣٨) •

٢ - ويقسم الرازي الأحياء إلى ثلاثة أقسام : الملائكة وهم مطبوعون على الخير، والشياطين وهم مطبوعون على الشر ، والإنسان وهو وسط بين النوعين ؛ فلا هو خير محض ولا شر محض • (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢ ص ٢٣١ - ٢٣٢)•

ويشير هذا إلى أن الإنسان قابل للخير وقابل للشر ، والتربية هي التي تسلك به أحد الطريقين ، والتربية الأولى مهمة في حياة الإنسان ، فإذا حصلت له تربية صالحة في بداية النشأة فإنها تتمكن من نفسه وتثبّته على الخير وينمو على ذلك ، وإذا تلقى - منذ البداية وفي مراحله الأولى - تربية فاسدة منحرفة تسلك به سبيل الشر فإنه - في الغالب • سيكون شريراً.والتربية تركز - دائما - على الصغير لسرعة تقبله واستعداده للتربية ، ولذلك ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم المولود دون غيره فقال : **<< مامن مولود إلا ويولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه >> •**

وفي الغالب أنه لايُخشى على الإنسان بعدما يكبر وينضج وقد تربى تربية إسلامية صحيحة واستقام على ذلك • يقول الغزالي في الاحياء (بدون تاريخ) << إن الصبي خلق قابلاً للخير والشر جميعاً وإنما أبواه يميلان به إلى أحد الجانبين >> ويقول أيضاً << اعلم أن الطريق في رياضة الصبيان من أهم الأمور وأوكدها والصبي أمانة في عنق والديه • وقلبه الطاهر جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة وهو قابل لكل مانقش ومائل إلى كل مايمال به إليه فإن عود الخير وعلمه نشأ عليه وسعد في الدنيا والآخرة وإن عود الشر وأهمل إهمال البهائم شقي وهـــلك>>• ج ٣ ص ٧٢ •

الضعف والعجز في الطبيعة الإنسانية :

يرى الرازي أن هناك عوامل ضعف تعتري الإنسان فتؤثر في سلوكه وتصرفاته فتارة يعتريه الضعف والعجز وقلة الصبر ، وتارة يعتريه الكبر والغرور والبطر والنسيان والتمرد والعتو ، وكل هذه الصفات - في جانبيها - تعد عوامل ضعف إنساني ؛ لأنها تخالف ماينبغي أن يكون عليه الإنسان في الواقع ، فالإنسان ينسى ربه في حالة رخائــه ، فلايعترف بإحسانه ونعمته ، وتؤدي به هذه الغفلة إلى البطر والعجب بالنفس والتمرد والطغيان والظلم والتعالي على الناس ، ولا شك أن هذه الحالة حالة ضعف ؛ لأن الإنسان استسلم لهواه وتحكمت فيه شهواته ونزواته ونفسه الأمارة بالسوء .

وفي الجانب الآخر تصيبه الشدة ويفقد الحيلة فيعلن ضعفه وعجزه واستكانته ونتيجة لذلك يكثر منه الدعاء والتضرع والخضوع والذل والانقياد .

وفي هاتين الحالتين يصدق عليه قوله تعالى : « وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » يونس ١٢ . (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٧ - ص ٥٢).

والرازي لايعني أن الإنسان قد خُلق وطُبع في أصل خلقته على هذه الصفات وإنما يريد أنه جُبل وطُبع على ذلك بواسطة التربية ؛ لأن هذه الصفات المذكورة صفات كسبية تتأثر بالتربية ، فبإمكان التربية أن تعوّد الناشيء على الصبر والتحمل والتكيف مع مايواجهه من صعوبات ومشكلات فيتقبلها ويحاول حلها عن طريق الأسباب مع الاستعانة بالله .

وتستطيع التربية أن تغرس في الطفل منذ الصغر أن ينظر إلى نفسه نظرة واقعــية ، فلايصيبه الغرور أو البطر إذا حقق نجاحاً ، ولا ينسى الجميل والمعروف إذا

استغنى ، كما تعوّده على التواضع واللين والرفق ، فلايتجبر ويطغى ويظلم ويستبد إذا أصبح ذا مال وجاه ومنصب وسلطان ٠

أما إذا تخلت التربية عن دورها الا يجابي فإن الإنسان سينشأ على تلك الصفات الذميمة ، ثم تصبح جبلة له وطبيعة تظهر في سلوكه في حالتي ضعفه وقوته أو في حالتي رخائه وشدته ٠

إن المؤمن الذي أعدته التربية الإسلامية بسلاح الا يمان لايحدث له شيء من هذا الضعف الإنساني المذموم بل تجده << إن أصابته سراء شكر فكان خيراً له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيراً له >> ٠

والإنسان الخالي من الايمان جزوع إذا مسه الشر ، منوع إذا مسه الخير ، لذلك يرشد الرازي إلى مايجب أن يفعله الإنسان إذا وقع في الشدة أو الرخاء ، فيدعوه إلى الصبر والبعد عن الجزع والشكوى إذا حصلت له شدة من فقر أو مرض أو غير ذلك من صنوف الابتلاء ، فإن ذلك إنما حصل له بتقدير الله ، فيجب عليه أن يرضى ويسلم بقضاء الله وقدره ٠

وإذا حصل له الغنى والصحة أو أي شيء من صنوف النعم فيجب عليه أن يعترف بذلك اعتراف الشاكرين ، ويعلم أن ذلك لم يحصل إلا بفضل الله ورحمته ، فيستخدم تلك النعم في طاعة الله ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ٣٠ ص ١٢٩)٠

وأخيراً وبعد أن تمت دراسة الطبيعة الإنسانية عند فخر الدين الرازي فبالإمكان القول أن الرازي قد انطلق - في نظرته وفكرته عن الطبيعة الإنسانية - من منظور إسلامي ، فلم ينظر إلى هذه الطبيعة نظرة جزئية كنظرة الفلسفات الوضعية القديمة والحديثة ، بل نظر إلى الإنسان باعتباره عقلاً وروحاً وجسماً ، وأن التكامل قائم بين هذه العناصر الثلاثة ، فلايمكن الفصل بينها ، ولايمكن لعنصر منها أن يعمل منفرداً عن العنصرين الآخرين ٠ كما أن للنفس الإنسانية قوى ودوافع وغرائز

لابـد من تلبيتها وعدم كبتها ، لكن يجب أن يتم ذلك في الحدود التي رسمها الدين الإسلامي .

والإنسان مخلوق مكرم ميزه الله على الكثير من مخلوقاته ، وجعل له فطرة إيجابية تساعده على قبول الخير والعمل به ، فهو مفطور على توحيد الله ، ويجب على التربية أن تبرز هذه الفطرة وتوظفها ، وتبعاً لهذه الفطرة فالإنسان خيّر في الأصل، والشر صفة طارئة عليه لعدم التربية الصالحة .

لقد استمد الرازي هذه النظرة التكاملية المتوازنة للطبيعة الإنسانية من القرآن الكريم واجتهاده على ضوء ذلك .

الفصل الخامس

الأصول العقدية والاجتماعية والكونية للتربية

عند الرازي :

١ - الأصول العقدية للتربية .
٢ - الأصول الاجتماعية للتربية .
٣ - الأصول العلمية للتربية .

الأصول العَقدية للتربية

أ - الهدف من خلق الإنسان :

الغاية من خلق الإنسان هي أن يكون عابداً لخالقه ، وأعلى درجات العبادة هي المحبة الخالصة لله ، فكلما كان العبد أشد حباً لله كلما ارتفعت درجته عند الله.

والمحبة لابد أن تكون نابعة من القلب ، ولها مظاهر وصور تتجلى من خلالها ، فتتجلى في الأقوال والأفعال وجميع أنواع السلوك ؛ فإذا قال الإنسان : «آمنت بالله» فدعواه هذه تحتاج إلى برهان يؤيدها ، وهذا البرهان هو التطبيق العملي ، وأكثر مايظهر هذا التطبيق في بذل الإنسان لما له ونفسه في سبيل الله وفي طاعته ، كما أن الإنسان الصادق في إيمانه ومحبته لله لاينقطع عن طاعة ربه ولايتخلى عنها بل يستمر على ذلك في حالة تعرضه للابتلاء ، كما قال تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لايُفْتَنُونَ ﴾ العنكبوت .(الرازي - التفسير الكبير - ج ٢٥ ص ٢٨).

ويُذكّر الرازي الإنسان بنعم الله التي لاحصر لها ، بحيث لو أفنى عمره في العبادة والطاعة لما استطاع الوفاء بماتقتضيه هذه النعم . ومن أكبر نعم الله على الإنسان أن جعله عاقلاً ، فميزه بنعمة العقل عن سائر الحيوانات ، فبنعمة العقل يكون قادراً على التمييز بين الحق والباطل ، فيعبد الله على بصيرة ، لذا يجب على العبد أن يصرف نعمة العقل في متطلبات العبودية لله وحده .

ومن نعم الله على العبد أن جعل له دلائل وعلامات يهتدي بها ؛ فكل شيء في الوجود علامة وآية تدل على وجود الخالق ، وكل ذرة من ذرات هذا الكون تدل الإنسان وترشده إلى الحق ، فإذا تفكر العبد في ذلك اهتدى إلى الخالق القادر العظيم، فيعبده ويطيعه كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه .

ومن النعم العظيمة نعمة الايمان التي تجلب للعبد السعادة والطمأنينة في الحياة الدنيا وفي الآخرة . بل إن كل نعمة تصل إلى البشر ليست إلا من عند الله ، ومن ذلك إحسان الناس إلى بعضهم ، فإنه من الله، فلو لم ينعم الله على الأغنياء ويجعل في نفوسهم الرحمة والشفقة لما وصل عطاؤهم إلى الفقراء ، وقد أمر الله - سبحانه وتعالى - الأغنياء بأن يحسنوا إلى الفقراء بقوله تعالى : ﴿ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ البقرة ١٩٥ .

فكل نعمة تصل إلى العباد - سواء كانوا أغنياء أم فقراء - فهي من الله ، فالمنعم والمحسن الحقيقي هو الله تعالى ، ولذلك وجب على الإنسان أن يصرف جميع أنواع العبادة لله ، فالمقصود من هذه النعم الجليلة أن تستعمل في تحقيق الغاية التي خُلق الإنسان من أجلها ، وهي تحقيق الطاعة والعبودية لله ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات ٥٦ . (الرازي - التفسير الكبير ـ ج ٤ ص ٤٤).

يتضح من هذا أن الرازي يريد من التربية أن تحقق العبودية لله ، فهي الهدف الأول الذي يجب - على التربية - توكيده وترسيخه في نفس المتعلم ، وتذكيره - دائما - بأنه لم يخلق إلا للعبودية ، كما يجب أن يستفيد المربون من الأساليب التربوية المؤثرة فيلفتوا انتباه تلاميذهم - في كل مناسبة - إلى نعم الله الكثيرة ، فالتذكير بها ينمي في نفس الناشيء حب العبودية ويربطه بخالقه ، فينمو وتنمو معه هذه العلاقة وتتمكن في نفسه حتى يصبح طائعاً عابداً محباً لله .

٢ - وجوب صرف العبادة كلها لله :

للعبد ثلاث حالات ، وهي : الماضي ، والحاضر ، والمستقبل . وهو في الماضي محتاج إلى إله قديم أزلي يخلقه من العدم ، ولا خالق له إلا الله جلت قدرته ، قال تعالى ﴿ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا ﴾ مريم ٩ .

ولاشك أن نقل الإنسان من العدم إلى الوجود يحتم عليه عبادة الخالق ، وصرف العبودية له دون سواه ؛ لأنه هو الموجد لكل شيء والخالق لكل شيء ، فالله خالق وماسواه مخلوق ، فلايجوز صرف شيء من أنواع العبادة لأي مخلوق ، بل تكون جميعها للخالق •

الحالة الثانية الحاضر : فالإنسان - بعد إيجاده - صار محتاجاً ، وحاجاته وضروراته كثيرة جداً ، وهو في هذه الحالة محتاج لمن يمده ويعينه ولامدد ولاإعانة إلا من الرب الرحمن الرحيم ، فهو الرازق الذي يقضي الحاجات ، لذا وجب على الإنسان أن يصرف جميع أنواع العبودية إلى من يرعاه ويربيه ويرزقه وهو الله تعالى

الحالة الثالثة : المستقبل ، وهي حالة مابعد الموت ؛ فالإنسان في تلك الحالة محتاج إلى مالك يوم الدين الذي بيده مصير العباد • إنها حالة تفرض على الإنسان الاستعداد ليوم الحساب والجزاء ، والاستعداد إنما يكون بالعبودية الخالصة لله الذي بيده المصير •

وتُظْهِرُ الحالات الثلاث - بجلاء - مدى ارتباط العبد بخالقه ؛ فجميع مصالحه لاتحصل ولاتتم ولاتكمل إلا بفضل الله وإحسانه وكرمه ؛ لذا وجب عليه أن لايشتغل إلا بعبادة الله وحده • (الرازي - التفسير الكبير - ج ١ ص ٢٤٣،١٨٧)•

ويحتاج الإنسان إلى التفكير في أمور تؤدي إلى القناعة التامة بأن الله هو المتفرد بالعبودية ، ومن هذه الأمور :

١ - أن الله - تعالى - هو أشرف الموجودات وأعلاها ؛ ولذلك كانت عبوديته أولى من عبودية غيره •

٢ - قدرة الله أعلى وأكمل من قدرة غيره ، كما أن علمه أكمل من علم غيره،وجوده أفضل وأكمل من جود غيره ، لذا وجب القطع بأن عبوديته أولى من عبودية غيره •

٣ - الغني لذاته هو الله ، وكل ماسواه محتاج إليه ، فثبت أن الله هو المستحق للعبادة وحده ٠

٤ - دلت الآيات والدلائل على قدرة الله وعظمته وقهره ، فالله - جلت قدرته - يمسك السماء بلاعمد ، والأرض معلقة بلادعائم ويُسيّر الشمس والقمر ، ويُخرج من السحاب تارة النار وهو البرق وتارة الماء وهو المطر ، وجَعَلَ في الأرض أجساماً راسية لاتتحرك وهي الجبال وأجساماً متحركة وهي الأنهار ، وغير ذلك من عجائب قدرة الله التي لاحصر لها ٠

٥ - الحوادث الدالة على رحمة الله وعلى قدرته مثل رفعه محمداً صلى الله عليه وسلم حتى أصبح قاب قوسين أو أدنى ، وجعله النار برداً وسلاماً على إبراهيم ورفعه موسى فوق الطور ، وجعله البحر يبساً لموسى ٠

٦ - الحوادث والآثار الدالة على عزة الله وجبروته وانتقامه من الجبابرة والعصاة ، مثل خسفه بقارون ، وجعله الماء ناراً على قوم فرعون ، واغراقه الدنيا على قوم نوح من التنور اليابسة ٠ فكيف يُسَوّىٰ من هذه قدرته في العبادة مع غيره من الجمادات أو النبات أو الحيوان أو الإنسان ؛ إن المساوة بين الناقص والكامل وبين الخسيس والنفيس تدل على غاية الجهل والسفه والضلال ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج١ ص ٢٤٤) ٠

٢ - خضوع العالم وعبادته لربه :

الربوبية والعبودية أمران متلازمان ، فالله - بعد خلقه لهذا العالم - لم يتركه ولم يهمله بل تولاه برعايته وحفظه وتدبيره ، لأن هذا العالم المحسوس بكل مافيه من السمٰوات والأرض والجبال والبحار والمعادن والنبات والحيوان محتاج إلى الاصلاح والحفظ والتربية المستمرة ، ودليل ذلك قوله تعالى ﴿ رَبُّ العَالَمِينَ ﴾ فلو تخلى الله عن هذا العالم طرفة عين لاختل توازنه ، ولذلك لم يقل : الحمد لله خالق العالمين ، بل قال : ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ ﴾ مما يدل على استمرار الاصلاح والتربية بعد الخلق والإيجاد ٠ وهذا العالم خاضع وقانت وعابد لخالقه ومربيه ؛ لأن الربوبية تستلزم العبودية ، قال تعالى : ﴿ وإنْ مِنْ شيءٍ إلاّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ولكنْ لاتفقهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ الإسراء ٤٤ ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج١ ص ١٧٩ - ١٨٠)

فالعبودية - إذن - من المسلمات التي تقتضيها الربوبية ، وإذا كان الكون خاضعاً وقانتاً وعابداً لخالقه فإن الانسان هو الأجدر بأن يكون خاضعاً وعابداً وقانتاً لربه الذي رباه بنعمه التي لاحصر لها ، إنه جعله سيد هذا العالم حيث سخره له وجعله قادراً على تسخيره ، كما جعله خليفة فيه ليعمره ويستخدمه ويدرك من خلاله مدى النعمة التي مَنَّ الله بها عليه فيكون أول العابدين ٠

والمقارنة بين تربية الله وتربية غيره تدل على أنه لاسبيل ولاوجه للمقارنة بين التربيتين ، ودلالة ذلك مايلي :

١ - الله سبحانه وتعالى يربي عباده لأنهم لايستغنون بأي حال عن تربيته وهو مع ذلك غير محتاج إليهم ، بينما التربية التي يقوم بها بعض الناس لبعض إنما يقومون بها رجاء أن يعود عليهم ذلك بالنفع ٠

٢ - تربية الله لعباده تربية كاملة وشاملة ، أما تربية الإنسان لغيره فهي تربية ناقصة ومحدودة .

٣ - تربية الله لعبيده لاتنقص من خزائنه ، فالله تعالى منزه عن النقص بينما تربية العبد لغيره تؤدي إلى نقصان مالديه من الخزائن والأموال .

٤ - الإنسان يضجر من الفقير إذا سأله ، وإذا ألح عليه أبغضه وحرمه ومنعه ، والله تعالى منزه عن ذلك فهو يحب الملحين في الدعاء وكلما كان العبد أكثر الحاحاً كان الله أكثر اقبالاً عليه واستجابة له .

٥ - المحسن من الناس لايعطي إلا إذا سئل ، والله تعالى يعطي قبل السؤال وبعده فيربي الإنسان وهو جنين في رحم أمه ، ويربيه قبل أن يصبح عاقلاً مدركا لمعنى السؤال والطلب .

٦ - ينقطع إحسان الإنسان بسبب الفقر أو الغيبة أو الموت أو غير ذلك ، والله سبحانه وتعالى دائم الإحسان فلاينقطع إحسانه أبداً .

٧ - يختص إحسان الإنسان بقوم دون غيرهم ؛ لأنه غير قادر على تعميم إحسانه ، أما الله - جلت قدرته - فإحسانه وتربيته عامة شاملة لكل أحد ، فرحمته وسعت كل شيء . (الرازي - التفسير الكبير - ج ١ ص ٢٣٠) .

والرازي يهدف من هذه المقارنة إلى اثبات أن الله هو الكامل في كل شيء بينما الإنسان ناقص في كل شيء ؛ فعلى المرء أن يتوجه في قضاء حاجاته إلى الكامل لا إلى الناقص ؛ لأن العبودية الكاملة تقتضي من العبد أن يعتمد على الله وحده .

ويعدُّ هذا الهدف هدفاً تربوياً يجدر بالمربين والمعلمين أن يعملوا من

أجل تحقيقه في نفوس تلاميذهم فيربوهم على الاعتماد والتوكل على الله وحده من خلال مايلقونه من دروس كلما سنحت مناسبة لذلك ، سواء كان ذلك في الدروس الدينية ، أم في دروس العلوم الطبيعية أم في توجيهاتهم العامـــة.

٤ - الانقياد والاستسلام لأمر الله :

يحث الرازي على الانقياد والاستسلام لأمر الله وقضائه وقدره ، فذلك هو الصراط المستقيم .

والأنبياء - عليهم السلام - هم القدوة الحسنة ، فقد بلغوا الغاية في الاستسلام والانقياد لأمر الله . ولقد صبروا على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وصبروا على الشدائد والإبتلاءات ، وفي ذلك دليل علي الثبات والاستسلام لأمر الله ، الأمر الذي يعد أرقى درجات العبودية .

لكن الناس لايطيقون الوصول إلى درجة الأنبياء في تحمل التكاليف ؛ ولذلك كان الله لطيفا بهم فلم يكلفهم مالا طاقة لهم به ، فخص زمرة الأنبياء بالأمور العظيمة القاسية على النفوس ، لأنهم أقوى على التحمل بفضل إيمانهم الراسخ الذي يهون عليهم مصائب الدنيا ومشقاتها ، ومما يدل على لطف الله بعباده أنه وسع ويسر وسهل عليهم فلم يقل : صراط الذين ضربوا وقتلوا بل قال : ﴿ صِرَاطَ الَّذِيْنَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ .

ثم إنه جعل باب التوبة مفتوحاً فيقبل توبة التائبين مهما كانت ذنوبهم كبيرة ومعلوم أن العبد إذا تاب فقد سلك طريق الذين أنعم الله عليهم ، وكل من استحق الجنة فقد أنعم الله عليه وهداه إلى الصراط المستقيم . (الرازي - التفسير الكبير - ج ١ ص ٢٥٥ - ٢٥٧) .

وينبغي أن يكون العبد على يقين بأنه مهما كان اجتهاده في العبودية فإنه لايمكن أن يفي بحق النعم التي أفاضها الله عليه ، بل إن الطاعة التي يقوم بها العبد إنما هي بتوفيق الله وهدايته له ، فهي - أيضا - نعمة من نعم الله ، فلولم يوفقه لذلك لشقي وخاب وخسر .

ولأن طاعة العبد تكون قليلة جداً إذا قورنت بنعم الله عليه فإن الثواب من الله لعبيده يعد فضلاً وإحساناً منه . (الرازي - التفسير الكبير - ج ٩ ص ١٥٩) .

ويريد الرازي من وراء درسه التربوي هذا أن يستفيد منه كل إنسان ، وأن يطبقه تطبيقاً عملياً في كل شئون حياته ، فلايخضع ولايذل ولاينقاد ولايستسلم لأحد سوى الله الذي قضى وقدر ماكان وماهو كائن وماسيكون ، فهو الذي يعطي ويمنع ، ويضر وينفع ، ويحيي ويميت ، ويدخل عباده المستسلمين لأمره الجنة ، ويدخل العصاة المعاندين الخارجين على أمره النار .

ومهما بلغ ملك الإنسان وقدرته وقوته ، فما ذلك إلا من الله ، وهو القادر على تغيير أحوال الناس من الضعف إلى القوة ومن القوة إلى الضعف ، فالقوي مهما بلغت قوته ينقلب إلى ضعيف لايملك لنفسه حولاً ولاقوة ، كما أن الضعيف ينقلب إلى قوي بطريقة عجيبة غير متوقعة ، مما يدل على أن هناك أسباباً وقوانين إلهية قضاها الله وقدرها لايدركها إلا من أوتي إيماناً واعتقاداً سليماً بأن كل شيء يحدث في الوجود لايحدث إلا بتقدير الله وإرادته . فكن أيها العبد مستسلماً لربك وحده .

٥ - معرفة الربوبية والعبودية في سورة الفاتحة :

إذا فهم العبد سورة الفاتحة وتدبرها أدرك معنى الربوبية والعبودية ، فهذه السورة أعظم درس تربوي يطبقه المسلم في صلواته المفروضة وكذلك في النوافل ،

ولذلك وجه الرازي إلى ما في هذه السورة من فوائد تربوية ، وهي :

١ - ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾ يدل على وجود الخالق وكمال علمه وقدرته ورحمته وحكمته ؛ ولذلك كان مستحقاً للحمد والثناء والتعظيم •

٢ - ﴿ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ يدل على أن الله واحد ورب لكل شيء ، وليس في العالم إله سواه ، ولا معبود بحق إلا هو •

٣ - ﴿ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴾ يدل على أن الله موصوف بكمال الرحمة والكرم والإحسان في كل الأحوال ، قبل الموت وعند الموت وبعد الموت •

٤ - ﴿ مَالِكِ يومِ الدِّينِ ﴾ يدل على أن رحمة الله وحكمته تقتضي أن يكون هناك يوم آخر يظهر فيه التمييز بين المحسن والمسيء ، ويظهر فيه انصاف المظلومين من الظالمين ، ولابد فيه من الحساب ثم الجزاء بالثواب أو العقاب ، وهذه الأمور الأربعة - السابقة - هي مايحتاج إليه العبد في معرفة الربوبية •

٥ - أما قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ إلى أخر السورة فهي تدل على الأمور التي لابد منها لمعرفة العبودية ؛ ففي قوله : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ إشارة إلى العبادة التي يأتي بها العبد ، وهي عبادة مقصورة على الله تعالى • وفي قوله : ﴿ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾ إشارة إلى علم العبد بأنه لايمكنه الاتيان بالعبادة إلا بإعانة الله له على تأديتها على الوجه الأتم • وفي قوله : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ إشارة إلى حصول الهداية والتوفيق بفضل الله وهي الثمرة المرجوة •

ويقسم الرازي الناس - على ضوء سورة الفاتحة - إلى ثلاث طوائف :

الطائفة الأولى : المخلصون الكاملون ، وإليهم الأشارة بقوله ﴿ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾•

الطائفة الثانية : الفسقة العصاة الذين أخلّوا بالأعمال الصالحة ، وإليهم الإشارة بقوله : ﴿ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ﴾ ٠

والطائفة الثالثة : وهم أهل البدع والكفر والاعتقادات الفاسدة وإليهم الإشارة بقوله ﴿ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ١ ص ٢٥١ ، ٢٥٢ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩)٠

وسورة الفاتحة تربط المصلي بهذه المعاني فيخرج من صلاته وقد امتلأ قلبه بمعاني الربوبية والعبودية ، فإذا كان كذلك في كل صلاة ، فإنه سيكون متصلاً - طيلة حياته - بربه الذي رباه ومعبوده الذي لا إله سواه ، وبهذا تكون علاقة العبودية متصلة دون انقطاع ، ولا شك أن استيعاب العبد لما تحمله سورة الفاتحة من معان سيؤدي إلى أن تكون عبوديته خالصة لله ، ويصير من الطائفة الأولى التي أخلصت العبودية لله نتيجة لمعرفتها حقيقة العبودية والربوبية ٠

٦ - الطاعة والعبودية سبب لعمارة العالم كما أن الكفر سبب لخرابه :

إذا أصبح المجتمع أو الأمة أمة عابدة لله مخلصة له في عبوديتها ، فإن ذلك سيؤدى إلى عمارة العالم ورخائه واستقراره ، وبناء الحضارة ونشر العدل في ربوع الدنيا ، لأن الأمة المؤمنة العابدة هي أمة الخلافة التي تربطها بالله علاقة العبودية ، ولذلك تكفل الله لها بالنصر والحماية والتمكين ، قال تعالي : ﴿ وَاذْكُرُوا إِذْ أَنْتُمْ قَلِيلٌ مُسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَنْ يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ الأنفال ٢٦ ٠

أما الأمة الكافرة فإن أعمالها وتصرفاتها المبنية على اعتقادها الفاسد تؤدي بها إلى نتائج مدمرة تهدم الكيان وتخرب الديار ، وهذه نتيجة انعدام رابطة العبودية

حيث تنفصم العرى وتتبدد القوى •

ولذلك يؤكد الرازي على قضية الإيمان والعبودية التي بها تتم عمارة الأرض كما يحذر من الكفر حيث يؤدي إلى عواقب مدمرة تخرب العالم وتدمره ، ويحث على الاشتغال بالطاعة ، لأنها سبب لانفتاح أبواب الخيرات كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ ﴾ الأعراف ٩٦ • وقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَهُ مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ﴾ الطلاق ٣ •

فالإنسان إذا اشتغل بالمقصود الذى من أجله خُلق وهو العبودية كما قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾ الذاريات ٥٦ •

فإنه سيحقق حاجاته ومطالبه الدنيوية والأخروية ، لكن تحقيق مطالب الدنيا يأتي تبعاً ، فالمقصود الأول سعادة الإنسان في الآخرة •

وإذا كان الإيمان سبباً لعمارة العالم فإن الكفر سبب لخرابه ، ولذلك قال تعالى في كفر النصارى : ﴿ تَكَادُ السَّمٰوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ ، وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدّاً. أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَداً ﴾ مريم ٩٠ ، ٩١ • (الرازي - التفسير الكبير - ج ٣٠ ص ١٣٧) •

- الأثر التربوي للعبودية :

للعبودية فوائد تربوية هي :

١ - من عرف معنى العبادة وفوائدها العاجلة والآجلة طاب له الاشتغال بها ، وخفت عليه وأصبحت سهلة يسيرة ، بينما يثقل عليه الاشتغال بغيرها ، وينتج عن ذلك سعادة نفسية عظيمة حيث يحس الإنسان أن كماله وقوته تكمن في اشتغاله بالعبادة ، ويحس بنورها وحلاوتها في قلبه ، كما يظهر أثرها في سلوكه ، فيشرف لسانه بالذكر والقراءة

فلاينطق إلا بالكلمة الطيبة ، ولاتتحرك جوارحه إلا فيما يرضي الله ، ولاشك أن هذه الصفات والأحوال التي يكتسبها الإنسان من العبودية هي أشرف المراتب الإنسانية والدرجات البشرية •

٢ - العبادة تربي الإنسان على أداء الأمانة ، لأن العبادة أعظم أمانة وضعت في عنق العبد ، فإذا أداها فإنه بذلك يبلغ أعلى درجات الكمال مما يسهل عليه أداء مادونها من الأمانات ، فالأمين على عبادته يدرك أن أداء الأمانة واجب شرعاً وعقلاً بدليل قوله تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾ النساء ٥٨ •

فتطبيق هذه الآية يقتضي منه أداء الأمانات كبيرها وصغيرها • والعقل يدل على أن أداء الأمانة صفة كمال ، والإنسان - بطبعه - يحب أن يكون موصوفاً بصفة الكمال • والأهم من ذلك أن محافظة العبد على الأمانة يعود عليه بأعظم فائدة ، وهي أنه يكون في حفظ الله الذى لاتضيع ودائعه ؛ فمن حفظ أمانة الله حفظ الله أمانته •

٣ - العبادة من أهم العوامل في صحة القلب وانشراح الصدروسلامتهما من الضيق والغم والهم ؛ فالعابد مرتبط بالله معتمد عليه دون سواه ، فالعبادة تربيه عقلياً ونفسياً ، فتكون سعادته غامرة وراحته تامة ، لأنه يدرك أن الله قد تكفل بإصلاح جميع مهماته ، لقوله تعالى : ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل له مَخْرَجاً وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَايَحْتَسِبُ﴾ الطلاق ٣ •

٤ - العبادة تربي العبد ليكون معتمداً على الله بالكلية ، فلايتوكل إلا عليه ولايستعين إلا به ، ولايدعو إلا إياه ، ولايسأل - إذا ألمّ به مكروه إلا ربه •

فالعبودية تربي لدى الإنسان الاعتقاد الجازم بأن الناس لايمكنهم

إعانته إلا إذا أعانهم الله على تلك الإعانة ، مما يجعله يلجأ دائماً إلى الله مباشرة دون سواه ، ويقتصر في طلب العون عليه ، فكمال العبودية يعني التوكل عليه والالتجاء إليه بالكلية دون غيره ٠

٥ - العبادة تربي العبد على الصبر والتحمل ، فإذا نزل به القضاء لم يجزع بل يحتسب ويرجو بذلك ما عند الله من الثواب ٠

والعبادة تعود الإنسان على كبح جماح نفسه فلا يطيش ولا يبطر عند حصول النعمة ، فيصبر على دواعي النفس الأمارة بالسوء ويستمر على شكر النعم ، كما أن العبودية عصمة من وساوس الشيطان ومن الشهوات الداعية إلى الانغماس في الملذات ٠ والعبادة تدرب الإنسان على الصبر عند الغضب فلا يؤدي به ذلك إلى الظلم والعدوان ٠ ولأهمية العبودية في مجال الصبر قرن الله بينها وبينه في قوله تعالى : ﴿ وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴾ البقرة ٤٥ ٠ ولا شك أن رأس العبودية الصلاة ؛ فهي تعلم الصبر على المحن ومصائب الدنيا وتشغل العبد بذكر الله عز وجل ، وتدعوه إلى التفكر في جلال الله وقهره ورحمته وفضله ، فبذكر رحمته يصير مائلا إلى طاعته ، وبذكر عقابه يترك معصيته ، وبالصلاة يصير العبد خاشعاً تالياً لكتاب الله متدبراً لما فيه من الوعد والوعيد والمواعظ والآداب الجميلة ، ويصير - أيضاً - مدركاً لما يؤول إليه الخلق بعد هذه الحياة فيهوّن ذلك عليه ما فاته من عرض الحياة الدنيا ، والصلاة تدرب العبد على الخشوع والتذلل والخضوع لله والإحسان إلى عباده ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ١ ص ٢٤٩ - ٢٩٦ ، ج ٣ ص ٤٨ ، ٤٩) ٠

الأصول الإجتماعية للتربية عند الرازي

العلاقة بين الحاكم والمحكوم :

١ - الإنسان مدني بالطبع :

الإنسان - عند الرازي - مدني بطبعه ، فحياته لاتستقيم ومصالحه لاتنتظم إلا بالعيش في جماعة ، فأفراد الجماعة يقومون بأعمال وحرف مختلفة ، فمنهم من يشتغل بالحرث والزراعة ، ومنهم من يشتغل في حرفة النسيج ، ومنهم من يخيط إلى آخر ماهنالك من الحرف والأعمال التي تعد أمراً ضرورياً للجميع ، ولايتمكن الإنسان بمفرده من القيام بعمل كل مايحتاج إليه ، فكأن كل واحد من الجماعة مشغول بمايحتاجون إليه جميعاً ، فمصلحة الجميع تقتضي توزيع العمل والصنائع ، ثم يتبادل الناس المنافع والمصالح فيما بينهم .

ولكن اجتماع الناس في مكان واحد يؤدي إلى حدوث النزاع والخصام فيما بينهم ؛ ولذلك فهم محتاجون إلى سلطان لديه من القدرة والقوة والسياسة مايمكنه من ضبط أمورهم والفصل بينهم فيما يحدث من خصومات ومنازعات ولابد أن يكون لديه من القهر والقوة مايجعل حكمه نافذاً عليهم جميعاً وفق مايحقق مصالحهم .

٢ - ويشترط الرازي في الحاكم أن يكون عادلاً منصفاً ؛ لأن العدل هو العلاقة التي يجب أن تقوم بين الحاكم والمحكوم ، وهذا يستدعي أن تكون أحكام السلطان وفق الشرع ، فالعدل والانصاف لايتحققان إلا بتطبيق شرع الله، فالسلطان إذا كانت أحكامه وفق هواه ، فإنه في هذه الحالة يميل إلى تحقيق مصالحه الخاصة مما يعود بالضرر العظيم على الرعية ، لأن الحاكم في هذه الحالة يتخذ الرعية

وسيلة يتوصل بها إلى تحقيق مقاصده وأغراضه ، فتكون نتيجة ذلك الخراب والدمار ، فظلم الحاكم يؤدى إلى تذمر الرعية ونفاد صبرها ، فيقع الهرج والمرج والفوضى وتكون النتيجة هلاك ذلك الحاكم • ولكي يستتب الأمر ويسود النظام والاستقرار يؤكد الرازي على أهمية التزام السلطان بشرع الله ؛ لأن شرع الله هو النظام القادر على تنظيم مصالح العالم وهو الذي يؤدى إلى انفتاح أبواب الخيرات والنعم على الحاكم والمحكوم وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَاتَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ سورة ص رقم ٢٦ •

والحاكم الذي يريد الخير لنفسه ولرعيته لابد أن يقدم الدين على الدنيا كما فعل سليمان عليه السلام ، حيث طلب المغفرة أولاً وجعل طلب الملك ثانياً ، يظهر ذلك من قوله تعالى حكاية عن سليمان : ﴿ قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكاً لَايَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ ﴾ ص رقم ٣٥ •

٣ - إقامة العدل والقسط تستدعي من الملوك استخدام القوة لردع الظلمة الذين تدفعهم شهواتهم ونزواتهم إلى العدوان • ولذلك يشير الرازي في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ الحديد ٢٥ ، إلى أن المراد من الميزان إقامة العدل وفق أحكام الكتاب ، لأن ذلك إشارة إلى حمل الناس على أحكام الكتاب المبنية على العدل والانصاف ، والملوك هم الذين يستطيعون أن يحملوا الناس على ذلك • أما الحديد فهو إشارة إلى أن من تمرد على أحكام الكتاب فإنه يجب على الملوك ردعه بالوسيلة المناسبة **لذلك وهي القوة المتخذة من الحديد** ، وهي إحدى منافعه ، والملوك - أيضاً - مطالبون باتخاذ القوة من الحديد لاستخدامها للدفاع عن رعاياهم ضد أى عدوان يقع عليهم •

٤ - أما الرعية فهي مطالبة ومأمورة بطاعة الرعاة والولاة ، فالعلاقة القائمة بين الحاكم والمحكوم تقتضي من الحاكم العدل ومن المحكومين الطاعة لقوله تعـالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ النساء ٥٩ ، فولي الأمر إذا حكم بما أنزل الله وأدى الأمانة وجب على الرعية أن تطيعه وتنفذ أمره ، كما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : «« حق على الإمام أن يحكم بما أنزل الله ويؤدى الأمانة فإذا فعل ذلك فحق على الرعية أن يسمعوا ويطيعوا »» ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ٦ ص ١٩١ ، ج ١٠ ص ١٤١-١٥١، ج ٢٦ ص ١٩٩ - ٢٠٩ ، ج ٢٩ ص ٢٤١ ، ٢٤٢) ٠

العلاقات الاجتماعية المختلفة :

يمكن تفصيل العلاقات الاجتماعية عند الرازي كما يلي :

أولا : علاقة الإنسان بوالديه :

اعتمد الرازي في شرح هذه العلاقة على الآيات والأحاديث التي تحث على بر الوالدين والإحسان إليهما ، وخرج من ذلك كله بوجوب استعمال الكلام اللين اللطيف مع الوالدين ، كما تجب طاعتهما وتلبية مطالبهما ، ويجب الانفاق عليهما حسب القدرة،ويحرم على الولد معصية والديه بأي لون من ألوان المعصية، ويحرم عليه الاعتداء عليهما بأي لون من ألوان العدوان سواء كان ذلك بالقتل أو اشهار السلاح أو الضرب أو غير ذلك ٠

وللوالدين خصوصية يتميزان بها عن بقية الأقارب ؛ فمع أنهما داخلان في القرابة إلا أنهما أقرب القربات ، ولذلك خصهما الله بالبر أكثر ممن سواهما من الأقارب ٠

ويتبع الرازي ذلك بذكر الفضائل والنعم التي للوالدين على الولد ، فليس لأحد من الخلق نعمة على أحد كنعمة الوالدين على الولد ، ويتضح ذلك من عدة وجوه : -

أحدها : أن الولد قطعة من الوالدين لقول الرسول صلى الله عليه وسلم «فاطمة بضعة مني» فالله سبحانه وتعالى جعل الوالدين سبباً لوجود الولد .

الوجه الثاني : أنه لاتوجد شفقة أعظم من شفقة الأبوين على الولد حتى أنه أصبح من الطبيعي أن الوالدين يسعيان سعياً متواصلاً من أجل إيصال الخير إلى الولد مااستطاعا إلى ذلك سبيلاً ، كما أنهما يبذلان الجهد ويحترزان قدر الطاقة في دفع الضرر عنه ، فوصول خيرات الوالدين إلى الولد في غاية الكثرة بحيث لو قيست إلى كل النعم التي تصل من إنسان إلى إنسان لفاقتها من حيث الكثرة والفائدة .

والوجه الثالث : أن الإنسان عندما يكون في غاية الضعف والعجز يكون في أشد الحاجة إلى العطف والرحمة والمساعدة ، والولد عندما يكون في هذه الحالة تصل إليه نعمة الوالدين وعطفهما وحنانهما على أتم وأكمل مايكون ، ومن المعلوم أن إيصال الإنعام إلى الإنسان في وقت الحاجة والضرورة يكون أعظم موقعاً وأبلغ أثراً .

والوجه الرابع : أن الناس عندما يفعلون الخير ويقدمون المساعدة إلى غيرهم فإنهم - في الغالب - يقصدون من وراء ذلك أن يعود عليهم بالفائدة أو المجازاة على ذلك المعروف ، أو المدح والثناء ، أما مايحصل للولد من والديه فإنه لايكون مصحوباً بشيء من ذلك ، بل بدافع الأبوة والأمومة ، مما يثبت أن خيرهما أتم وأكمل من أي معروف ممن سواهما ، يؤيد ذلك أن الله تعالى بدأ بشكر نعمة الخالق فقال : ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ ، ثم أردف ذلك بشكر نعمة الوالدين فقال : ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ ، فدل ذلك على أن أعظم النعم على الإنسان بعد نعمة الله نعمة الوالدين .

الوجه الخامس : أن الوالدين هما البادئان بالفضل والإحسان ، أضف إلى ذلك أن الولد مهما بالغ في البر والإحسان إليهما فإنه لن يصل إلى حد مكافأتها فذلك يكاد يكون مستحيلاً ؛ ولذلك وجب على الولد أن يضاعف الجهد في بر الوالدين • (الرازي - المصدر السابق - ج ١٠ ص ٩٤ - ٩٥ ، ج ٢٠ ص ١٨٤ - ١٩١) •

إن الرازي - وهو يُذكِّر الأولاد بفضل الوالدين عليهم - يقدم درساً تربوياً لكل ابن ولكل بنت ليحرك فيهما العاطفة والوجدان نحو الأبوين اللذين انهكهما التعب وأمضيا عمرهما في كد وكدح من أجل تربية الأولاد متناسيين كل تعب وعناء ، بل إنهما يقدمان على ذلك بنفس راضية فرحين مسرورين ؛ لأن عملهما يجلب لأولادهما الخير والسعادة والهنا •

ياترى هل يحس الأبناء والبنات بهذا الجميل وهذا المعروف ؟

وهل يتفهمون ويستوعبون هذا الدرس التربوي ؟ وهل يشعرون ويحسون - قبل ذلك - بأن الله قد أوجب عليهم البر إلى الوالدين ، وأن من أحسن إلى والديه فاز برضا الله وثوابه ، وأن من أهملهما أو أساء إليهما وجد عاقبة نكران الجميل عقاباً شديداً ؛ فمن أحسن فإنما يحسن إلى نفسه ، ومن أساء فعليها • يقول سيد قطب(١٤٠٢هـ) في تفسيره لقوله تعالى : ﴿ وبالوالدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَاتَقُلْ لَهُمَا أُفٍ وَلَاتَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً ، واخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴾ الاسراء ٢٣ •

تحتاج البنوة إلى استجاشة وجدانها بقوة لتنعطف إلى الخلف ، وتلتفت إلى الآباء والأمهات • إن الوالدين يندفعان بالفطرة إلى رعاية الأولاد ••• فأما الأولاد فسرعان ماينسون ، ويندفعون إلى الأمام إلى الزوجات والذرية ، ومن ثم لايحتاج الآباء إلى توصية الأبناء • إنما يحتاج هؤلاء إلى استجاشة وجدانهم بقوة ليذكروا واجب الجيل الذي أنفق رحيقه كله حتى أدركه الجفاف •

وهنا يجيء الأمر بالإحسان إلى الوالدين في صورة قضاء من الله يحمل معنى الأمر المؤكد بعد الأمر المؤكد بعبادة الله • ج ٤ ص ٢٢٢١ •

ويذكر الرازي أن هناك حقاً للأولاد على الوالدين، وإن كان الأصل في هذا الأمر أن الوالد ميال بطبعه وفطرته إلى تربية الولد والعطف عليه - كما مر - إلا أن الرازي يرى أنه قد تحدث من الآباء - على سبيل الندرة - الإساءة إلى الأبناء، كما حدث من بعض الجاهليين، حيث قتل البعض منهم أولاده خشية الفقر • وقد نهى الله عن ذلك بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْئاً كَبِيراً ﴾ الاسراء ٣١، وقد أوضح الرازي في تفسيره لهذه الآية أن الله لما أرشد إلى كيفية البر إلى الوالدين في الآية المتقدمة، فإنه في هذه الآية أرشد إلى كيفية البر بالأبناء، لأن الابقاء عليهم وتربيتهم والإحسان إليهم يؤدى إلى عمارة العالم وبقائه، بينما التخلي عن ذلك يؤدى إلى خراب العالم، كما أن بر الأولاد بالآباء يكون أيضا سبباً في بقاء العالم وعمارته؛ لأن الآباء لو علموا من الأبناء عدم البر لأدى ذلك إلى اليأس وعدم الرغبة في تربية الأولاد وهذا يؤدى إلى خراب العالم • أما إذا حصل البر المتبادل بين الطرفين، فإن ذلك يكون له أثره في استمرار عمارة العالم وبقائه •

كما أن قتل الأولاد خشية الفقر يعد سوء ظن وسوء أدب مع الله الذي تكفل بأرزاق العباد • وقتل البنات خشية العار - كما هي عادة بعض الجاهليين - يعد - أيضاً - سعيا لتخريب العالم، وهو أمر ضد الشفقة والرحمة والعطف على خلق الله •

(الرازي - التفسير الكبير - ج ٢٠ ص ١٩٦) •

ثانيا : علاقة الإنسان بأقاربه :

تأتي هذه العلاقة في الدرجة الثانية بعد علاقة الإنسان بوالديه ، مما يدل على أهميتها ؛ فينبغي أن تكون علاقة المرء بأقاربه مبنية على المحبة والود والتراحم والصلة المتصلة ، ومساعدة القوي منهم للضعيف والغني منهم للفقير ٠ وقد بين الرازي أن هذه العلاقة تبلغ درجة عالية من الأهمية ولذلك ذكرها الله تعالى بصيغة الأمر بعد حق الوالدين فقال : ﴿ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ ﴾ الاسراء ٢٦ ٠

وعند الرازي أنه يجب على الإنسان بعد فراغه من بر الوالدين أن يشتغل ببر الأقارب وأداء حقوقهم حسب درجة القرابة ، ولا يجوز له اهمال حق أحد من سائر قرابته ، لكنه في أداء حقوقهم يبدأ بالأقرب فالأقرب ٠

ومن أنواع البر بالأقارب الصلة بواسطة المال ، والنفقة على المحتاج منهم ، وفي حالة عدم وجود المال يتعهدهم بالكلمة الطيبة ، والقول اللطيف الحسن الجميل ، ويعتذر إليهم لعدم وجود المال ، ويعدهم بإيفاء حقهم عندما يجد المال ، ففي ذلك تطييب لنفوسهم وخواطرهم ، عملاً بقوله تعالى : ﴿ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلاً مَيْسُوراً ﴾ الاسراء ٢٨ ٠

ولزيارة الأقارب من حين لآخر أثرها البالغ في الإبقاء على أواصر المحبة والمودة ٠

ويشير الرازي إلى أن للعلاقة بين الأقارب أساساً فطرياً ؛ فالإنسان - بطبعه - ميال إليهم ، ودلالة ذلك أنه يفرح إذا وجد من يمدحهم ويثني عليهم ، ويحزن ويغتم عند ذمهم أو الطعن فيهم ، فعلى الإنسان أن يحافظ على هذه الفطرة وينميها بمزيد من الرحمة والمودة والشفقة ، وإذا كانت الشفقة مطلوبة مع سائر الناس فإنها بين الأقارب أولى ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ٩ ص ١٦٠ ، ج ٢٠ ص ١٩٣ - ١٩٥٩)٠

من الواضح أن الرازي - في حديثه عن علاقة القربى - يريد إعطاء درس في أهم علاقة من العلاقات الإجتماعية ؛ فبعد فراغه من الحديث عن العلاقة الأولى في بناء المجتمع وهي علاقة الأسرة التي تضم الأبوين والأولاد انتقل إلى الحلقة الثانية في بناء المجتمع وهي علاقة القرابة التي تضم جميع الأقارب من ناحية الأب ومن ناحية الأم ، وهي - لا شك - حلقة واسعة ذات علاقات متشابكة ومتعددة ومتفرعة ، وكما هو معلوم فإن علاقة القربى امتداد لعلاقة الأبوين ، لأنها متفرعة عنهما ، ولذلك يُدخل الرازي الوالدين في القرابة بقوله (التفسير الكبير) : «« واعلم أن الوالدين من الأقارب أيضاً ، إلا أن قرابة الولاد لما كانت مخصوصة بكونها أقرب القربات ميزها الله تعالى في الذكر عن سائر الأنواع فذكر في الآية قرابة الولاد ، ثم أتبعها بقرابة الرحم »» ج ١٠ ص ٩٥ .

وإذا كان الكثير من الناس يغفل أولا يدرك مدى أهمية القرابة ومايترتب عليها من حقوق وواجبات شرعية واجتماعية مما يجعل هذه العلاقة فاترة بين الكثير من الأقارب ، فإن مسئولية التربية والمربين تحتم عليهم توعية الناس وارشادهم إلى أهمية هذه الرابطة ، وذلك عن طريق المعلمين الذين يلزمهم إحياء هذه العلاقة في نفوس تلاميذهم كلما جاءت مناسبة تستدعي النصح والتذكير ، وكذلك المختصون في التوعية العامة وأئمة وخطباء المساجد عليهم تحريك عواطف ومشاعر الناس لينمو ويقوى لديهم الميول نحو أقاربهم والعطف عليهم .

ووسائل الإعلام المختلفة عليها مسئولية كبيرة تجاه المجتمع من أجل الحفاظ على تماسكه وتوثيق عرى الترابط بين أفراده ، ابتداء من الأسرة والأقارب وانتهاء بالمجتمع العام ، فينبغي ان يكون هناك برامج موجهة وأحاديث ومحاضرات وندوات تعتمد على الحوار ، ومسرحيات هادفة تنقل عبر التلفاز أو الإذاعة أو الصحافة أو غير ذلك حسب الوسيلة المتاحة والمناسبة .

ثالثاً : علاقة الإنسان بسائر الناس :

سبق الحديث عن علاقة الإنسان بوالديه وأقاربه . وأما الآن فسنصحب الرازي من خلال ماأورده من أفكار حول علاقة الإنسان بالفئات الأخرى ، وذلك فيما يلي :

١ - اليتيــــم :

اليتيم من فقد أباه صغيراً ، وهو في هذه الحالة عاجز لصغره ولعدم وجود المنفق، لذا يحتاج إلى الرعاية والإحسان والرحمة من قبل من يتولى أمره بعد فقدان أبيه ، كما يحتاج إلى العطف من سائر الناس . ورعاية اليتيم لها جانبان : رعاية حسية مالية تتحقق بإطعامه والانفاق عليه ، ورعاية معنوية تعوضه فقد أبيه وتتحقق بالرفق والتلطف معه في الكلام من قبل الوصي عليه الذي ينبغي أن يعامله كما يعامل ولده ، ويورد الرازي كلاماً لابن عباس يتفق مع فكرته يقول فيه : « يرفق بهم ويربيهم ويمسح رأسهم ، وإن كان وصياً لهم فيبالغ في حفظ أموالهم » .

والوصي على اليتيم يجب أن يحافظ على ماله حتى يبلغ رشده ، فإذا صار راشداً دفعه إليه بعد التأكد من قدرته على الاستقلال بنفسه ، وقدرته على حفظ ماله ، فيختبره الوصي قبل دفع ماله إليه ،فيعرضه لمواقف يتضح من خلالها أنه أصبح أهلاً للتصرف ، وأن لديه من الفهم والعقل والقدرة ، ومعرفة المصالح من المفاسد مايمكنه من التصرف في ماله بطريقة سليمة . ويرى الرازي - أيضاً - أن على الولي أن يصطحب اليتيم عند البيع والشراء ليتدرب على ذلك وليكشف مدى قدرته على الأخذ والعطاء والبيع والشراء ، فإذا تحقق من قدرته على حفظ ماله واصلاحه والانتفاع به وعدم الاسراف فيه ، وأنه لايمكن لأحد أن يخدعه فليسلم له ماله . ويرى - أيضاً - أنه يجوز للولي أن يأكل من مال اليتيم إذا كان محتاجاً وليكن بقدر الحاجة وفي أضيق الحدود ، فذلك كالأجر له مقابل قيامه على المال وحفظه وتنميته ، والأفضل ألاّ يأخذ منه شيئاً إذا كان مستغنياً عنه .

ويشهد الولي على اليتيم عند دفعه ماله إليه ؛ ففي ذلك فوائد منها :

- أن اليتيم إذا علم بوجود الشهود قنع بماله ولم يطلب أو يدعي ماليس له •

- أن اليتيم إذا أقدم على إقامة دعوى كاذبة على الوصي ، فإنه يستطيع أن يدفع عن نفسه هذه الدعوى بشهادة الشهود الذين حضروا دفع ماله إليه •

- أن في الشهادة اظهاراً لأمانة الوصي وبراءة ذمته •

ويبرهن الرازي على الأهمية التي يوليها القرآن الكريم لليتيم مما يجعله مصاناً محفوظ الحقوق في المجتمع الإسلامي ، فقد ورد في القرآن الكريم الوعيد الشديد للوصي الذي يعتدي على مال اليتيم أو يتصرف فيه بطريقة غير مشروعة ، كما قال تعالى : ﴿ فَذَٰلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴾ أي يدفعه عن ماله ويظلمه ولايواسيه ويزجره ويضربه ويستخف به ، وإذا عمل طعاماً دعا إليه الناس ولم يدع إليه اليتيم ، وقد يدعوه لايطعمه بل ليستخدمه ، وفي ذلك مافيه من القهر والاستطالة والإهانة •

وقد بلور الرازي أفكاره هذه عن علاقة اليتيم بوليه على ضوء قوله تعالى : ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَىٰ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ، فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ النساء (• الرازي - التفسير الكبير - ج ٩ ص ١٧٠ ، ١٧١ ، ١٨٧-١٩٣ ، ج ١٠ ص ٩٦ ، ج ٣٢ ص ١١٣) •

٢ - المسكين :

يأتي المسكين في الترتيب بعد اليتيم وللمسكين حقوق يجب على الأغنياء الوفاء بها ، ليعيش المساكين والفقراء أعزاء كرماء ؛ ولذلك فرض الدين الإسلامي الزكاة ، وأوجبها في مال الأغنياء يدفعونها إلى الفقراء ، كما حث ورغب في الصدقة وجعل ثوابها مضاعفاً أضعافاً كثيرة ، وحذر من البخل والشح ، وذم الذين لايحضون

على طعام المسكين واستخدم في حقهم الوعيد الشديد ، وجعلهم مكذبين بالدين ، فالذي يصدق بيوم الدين لايمنع المسكين والفقير حقه ، فإذا أمسك عنه العطاء والمساعدة فتلك علامة تكذيبه بيوم الجزاء والحساب ، قال تعالى : ﴿ أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ﴾ الماعون ١، ٢، ٣ وقال تعالى ﴿ كَلَّا بَل لَّا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ، وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ الفجر ١٧، ١٨ ،

ويفرق الرازي بين حالة المسكين وحالة اليتيم ، فالمسكين وإن كان عديم المال إلا أنه أقدر من اليتيم ، لأنه يستطيع أن يبدي حاجاته نظراً لكبر سنه ، فبإمكانه عرض حاله على الغير ، فيجلب بذلك النفع لنفسه أو دفع الضرر عنها . أما اليتيم فلاقدرة له على ذلك ، ولهذا السبب قدم اليتيم في هاتين الآيتين على المسكين .

وقد أبان الرازي الكيفية التي يتم بها الإحسان إلى المساكين ، ففي حالة وجود المال يتم الإحسان إليهم بواسطة المال حتى تزول عنهم الحاجة وفي حالة تعذر المال يردون رداً جميلاً مصحوباً باللطف والاعتذار فلايجوز نهرهم أوردهم بغلظة ، لقوله تعالى ﴿ وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ ﴾ الضحى ١٠ .

ويحث الرازي على المواظبة على الإحسان إليهم ؛ فالإنسان مطالب بأن يحض نفسه ويحض غيره على الإحسان إلى المساكين ، فإذا تخلى المرء عن ذلك فقد منع المسكين حقه ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴾ .

ومنع المسكين حقه يدل على لؤم المانع وشدة بخله وخسة طبعه وقساوة قلبه . والذي لايحض على طعام المسكين لايكون مؤمناً بيوم الجزاء لأنه لو كان يعتقد أن في ذلك ثواباً لحض عليه ، فالإيمان بيوم القيامة يقتضي من الإنسان أن يكون مواظباً على الإحسان إلى المساكين ، وفعل المعروف وعدم إيذاء الضعيف ؛ وقد ذم الله الذين يبخلون ويأمرون الناس بالبخل ، وجعلهم في عداد الكافرين ، فأعمالهم لاتدل على أنهم يؤمنون باليوم الآخر ، ولذلك قال في حقهم : ﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا ﴾ النساء ٣٧ .

ويذكر الرازي - في شرحه لهذه الآية - أن هؤلاء قد ارتكبوا ثلاثة أمور مذمومة كل واحد منها أكثر شناعة وقبحاً من سابقه ، فهم يبخلون بأموالهم ، ولم يكتفوا بذلك بل ارتكبوا ماهو أشنع وهو أمرهم الناس بالبخل ، ولم يقفوا عند هذا الحد بل يكتمون ويخفون النعمة التى آتاهم الله وهذا الأمر أشد قبحاً ؛لأن إخفاء النعمة ونكرانها كفر.(الرازي - التفسيرالكبير - ج ١٠ ص ٩٦ - ٩٩ ، ج ٣٢ ص ١١٣).

٣ - علاقــة الجــوار :

يعطي الرازي درساً تربوياً في علاقة الجوار معتمداً - في ذلك - على بعض النصوص الواردة في الكتاب والسنة ، منها : قوله تعالى : ﴿ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ ﴾ النساء ، ٣٦ .

وقوله صلى الله عليه وسلم << لايدخل الجنة من لايأمن جاره بوائقه ألا وإن الجوار أربعون بيتاً >> (النووي - رياض الصالحين - بدون تاريخ - ص ١٤٩).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قيل : يارسول الله إن فلانة تصوم النهار وتصلي الليل وفي لسانها شيء يؤذي جيرانها ، فقال عليه الصلاة والسلام : << لا خير فيها هي في النار >> (البخاري / الأدب المفرد - بدون تاريخ - ص ٤١) .

وروي أنه صلى الله عليه وسلم قال : << والذي نفس محمد بيده لايؤدي حق الجار إلا من رحم الله وقليل ماهم ، أتدرون ما حق الجار ، إن افتقر أغنيته ، وإن استقرض أقرضته ، وإن أصابه خير هنأته وإن أصابه شر عزيته ، وإن مرض عدته وإن مات شيعت جنازته >> .

ويرى الرازي أن المراد بـ(الجار ذي القربى) من قرب جواره ، وأن المراد بـ(الجار الجنب من بعد جواره ، وأن قوله (الصاحب بالجنب) يعطي معنى أوسع

لدائرة الجوار ، فيشمل ذلك الجار الملاصق ، والرفيق في السفر ، والزميل في التعلم ، والشريك في أي صناعة أو حرفة ، والجالس إلى جنبك في المجلس أو في المسجد ، فهؤلاء جميعاً تربطهم وتشملهم علاقة الجوار ، فلهم ما للجار من حقوق وواجبات ، ويلزمهم جميعاً أن يلاحظوا هذا الأمر ويراعوا حق الجوار ، وألا ينسوه ، وأن يجعلوا ذلك وسيلة وذريعة إلى الإحسان إلى بعضهم . (الرازي - التفسير الكبير . ج ١٠ ص ٩٦ ، ٩٧) .

٤ - علاقة الإنسان بمماليكه وخدمه :

الإسلام دين الرحمة والرأفة والعدل والمساواة لا يفرق بين سيد ومسود ، ولا خادم ومخدوم ومالك ومملوك ، فالكل إخوة في الدين أكرمهم عند الله أتقاهم ، جعلهم الإسلام سواسية كأسنان المشط .

والرازي - من هذا المنطلق الإسلامي - يؤكد على هذه العلاقة ، ويرى أن الإحسان إلى المماليك يعد من أعظم الطاعات التي يتقرب بها العبد إلى ربه ، ويؤيد ذلك ببعض الأحاديث والآثار ، منها :

ما روى أن آخر كلام الرسول صلى الله عليه وسلم : << الصلاة وما ملكت أيمانكم >> (أحمد - بدون تاريخ - ج ٦ ص ٣١١) .

وروي أنه كان رجل بالمدينة يضرب عبده ، فيقول العبد أعوذ بالله ، ويستمعه الرسول صلى الله عليه وسلم ، والسيد كان يزيده ضرباً ، فطلع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقال أعوذ برسول الله فتركه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : << إن الله كان أحق أن يجار عائذه >> ، قال يا رسول الله فإنه حر لوجه الله ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : << والذي نفس محمد بيده لو لم تقلها لدافع وجهك سفع النار >> .

ثم أوضح الرازي الطريقة التي ينبغي أن يُعامل بها المماليك والخدم ، وهي :

أولاً : أن لا يشق عليهم : فلا يحملهم ولا يكلفهم فوق طاقتهم .

ثانياً : أن يعاشرهم معاشرة حسنة ؛ فلايعنفهم ولايؤذيهم بالكلام الخشن ، بل يلاطفهم ويستعمل معهم القول اللين الجميل الذي يدخل السرور إلى نفوسهم ٠

ثالثاً : أن يقدم لهم مايحتاجون إليه من الطعام والكسوة ٠

رابعاً: أن يكون متواضعاً معهم ، فلايتطاول عليهم ، ولايختال ولايتكبر ؛ فالله تعالى قد ذم المختال الفخور بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴾ ولاشك أن الإساءة إلى المماليك والخدم عادة جاهلية ، أما الإحسان إليهم فهو من المكارم والأخلاق الفاضلة الحميدة التي جاء بها الإسلام ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٠ ص ٩٧) ٠

٥ - علاقـة الزوجيـة :

ركز الرازي على العلاقة القائمة بين الزوجين ؛ فمن أجل بقاء هذه العلاقة واستمرارها ، لابد من الالتزام بالشرع الذي أبان مايترتب عليها من حقوق وواجبات ومسئوليات ، فقد جعلت الشريعة حدوداً واضحة لاينبغي للمرأة تجاوزها حتى لاتنهار هذه الرابطة ٠

فالمرأة إذا التزمت بتعاليم الشرع كان ذلك في صالحها وصالح زوجها وأولادها وكذلك مجتمعها ٠

ويبين الرازي ماللرجل من صفات ومقومات تجعله أهلاً للقوامة على المرأة ، فتكوين الرجل وقدراته وإمكاناته تمكنه من القيام بأشياء لاتستطيع المرأة القيام بها ، فالرجال يتفوقون في أمور بعضها صفات ، وبعضها أحكام شرعية : فالصفات مثل : العلم والقدرة ؛ فعقول الرجال وعلومهم أكثر ، وقدرتهم على المتاعب والأعمال الشاقة أكمل من قدرة النساء ٠

وفي الغالب أن الكتابة والفروسية والرمي أكمل وأكثر لدى الرجال •

أما الأمور الشرعية التي خص بها الرجال فمنها :

أن الأنبياء والعلماء من الرجال ، وأن فيهم الإمامة الكبرى والصغرى ، وأن فيهم الجهاد والأذان والخطبة والاعتكاف ، وفيهم الشهادة في الحدود والقصاص ، فهذه الأمور جميعها متفق عليها ، وفي الأنكحة عند الشافعي •

ويفضل الرجال على النساء في زيادة النصيب في الميراث ، والتعصيب في الميراث وتحمل الدية في القتل ، والقسامة ، والولاية في النكاح ، والطلاق والرجعة ، وعدد الأزواج ، وانتساب الأولاد إلى الرجل ، ولذلك كله قال الله تعالى : ﴿ الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ النساء ٣٤ • وقوله تعالى ﴿ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ ﴾ النساء ٣٤ •

فالرجال يفضلون على النساء بالانفاق من أموالهم ، فالرجل هو الذي يعطي المرأة المهر ، وهو الذي ينفق عليها •

وقد حث الشرع المرأة على طاعة زوجها ، وأثنى على الطائعات بقوله تعالى : ﴿ فَالصَّالِحَاتُ قَانِتَاتٌ حَافِظَاتٌ لِلْغَيْبِ ﴾ النسا ٣٤ •

وقد بين الرازي في تفسيره لهذه الآية أن للمرأة حالتين : حالة عند حضور الزوج وحالة عند غيابه ، فعند حضوره تكون قانتة ، أى مطيعة ، فالقنوت يعني دوام الطاعة ، وهذه الطاعة تكون شاملة لكل حقوق الزوج ؛ ولاتوصف المرأة بالصلاح إلا إذا كانت طائعة لزوجها • وعند غياب الزوج تحفظ المرأة الصالحة نفسها فلاتخون زوجها في عرضها ، وتحفظ ماله من الضياع ، ومنزله من أن يحدث فيه مالا يرضاه • ويستدل الرازي على ذلك بقول النبي صلى الله عليه وسلم : « خير النساء إن نظرت إليها سرتك وإن أمرتها أطاعتك وإن غبت عنها حفظتك في مالك ونفسها » (أحمد - بدون تاريخ - ج ٢ ص ٢٥١) •

ولم يغفل الرازي حقوق الزوجة على زوجها ، فهو يرى أن الأزواج مطالبون وملزمون بالوفاء بحقوق زوجاتهم تنفيذاً لأمر الله تعالى الذي أمر بالعدل فيهن وإمساكهن بالمعروف وإعطائهن أجورهن ، فأداء الحقوق من الجانبين لابد منه لتستمر العلاقة بينهما ، والله سبحانه وتعالى زجر الرجال وهددهم إذا هم ظلموا النساء بقوله تعالى : ﴿ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَاتَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلاً إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِياً كَبِيراً ﴾ النساء ٣٤٠

فيرى الرازي أن المقصود من قوله ﴿ إن الله كان علياً كبيراً ﴾ التهديد للأزواج على ظلم النساء ؛ فعلى الرجال الذين يستغلون ضعف النساء وعجزهن عن الانتصاف ودفع الظلم عن أنفسهن ، على الرجال أن يتذكروا أن الله سبحانه وتعالى علي قاهر كبير ينتصف للنساء ويستوفي حقهن ممن ظلموهن ، فلايغتر الرجال بكونهم أقوى وأكبر درجة من النساء ٠

وليس للرجل أن يتعسف مع المرأة بل عليه أن يعاملها بالظاهر من أمرها فإذا أطاعته وأدت حقه فلايفتش عما في قلبها من الحب أو البغض ويكتفي بما يظهر له من حالها ٠

ولايرى الرازي أن في زيادة الميراث للرجل تفضيلاً له على المرأة ؛ لأن تلك الزيادة مقابل مايدفعه من المهر ، وكذلك النفقة فإن الرجل هو الذي ينفق على المرأة ، فإذا زاد الرجل عليها في الميراث فإنها تزيد عليه في أخذ المهر والنفقة فكأنه لافضل لأحدهما على الآخر في هذا الجانب ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٠ ص ٨٧-٩١)٠

العلاقة الدينية توجب حماية المستضعفين :

رابطة الدين تفرض على المسلم أن يدافع عن إخوانه في الدين وحمايتهم إذا لم يكونوا قادرين على الدفاع عن أنفسهم ، فالولاية والنصرة تقتضي من المسلم أن يجاهد ويناضل من أجل حماية أولئك المستضعفين من الرجال والنساء والولدان

الذين يتعرضون لألوان الظلم والعدوان من قبل أعداء الإسلام ، فلايجوز للمسلم أن يتخاذل عن نصرة أخيه في الدين لقوله تعالى : ﴿ وَمَالَكُمْ لاتقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِياً وَاجْعَل لنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيراً ﴾ النساء ٧٥ .

ففي شرح الرازي لهذه الآية يرى أن فيها إنكاراً شديداً على من لم يَهُبّ لنجدة المستضعفين من المؤمنين المحتاجين إلى النصرة ، فلاعذر لمن ترك القتال والجهاد في هذا السبيل ، فالقتال والجهاد واجب من أجل هذه الفئة المستضعفة لتخليصها من أيدى الكفار ، فهم في أيديهم كالأسرى والجهاد من أجلهم كالجهاد من أجل فكاك الأسير . (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٠ ص ١٨١-١٨٢) .

وفي هذه الأيام كثر المستضعفون من المؤمنين في أيدى الكفار ، ولذلك فالتربية الإسلامية عليها مسؤولية كبيرة لتعبئة الناس وتحريك مشاعرهم وتوجيه الناشئة وزرع الشعور بالأخوة الإسلامية في نفوسهم وإشاعة روح التعاطف والتراحم ليتحول المسلم إلى قوة وعون وسند لأخيه في أي مكان ومن أي جنس ، ليتحقق قوله تعـالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إخوة ﴾ الحجرات ١٠ ، وقول الرسول صلى الله عليه وسلم : «**مثل المؤمنين في توادهم وتعاطفهم وتراحمهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى** » (مسلم - ١٣٣٤هـ - ج ٨ ص ٢٠) .

وفي أيامنا هذه أضحت روح التعاون والتعاطف بين المسلمين فاترة وضعيفة مما يشكل عبئاً على التربية التي يجب عليها أن تعبىء كل وسائلها لأحياء روح التعاون والتآزر بين المسلمين ، وليكن ذلك بوسائل التربية المتعددة سواء عن طريق المسجد أو المدرسة أو وسائل الاعلام المختلفة أو الندوات والمحاضرات أو غير ذلك . إن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان من المؤمنين في أنحاء العالم يعانون من الظلم والقهر والعسف والتشريد والتجويع مايفوق الوصف ويدمى القلب لا لشيء إلا

لأنهم مسلمون ·

أثر القرآن والميزان في إقامة علاقة العدل :

أنزل الله القرآن مشتملاً على الأحكام الشرعية التي بموجبها يتم الفصل بين الناس فيمايختلفون فيه ؛ ففي القرآن تبيان لكل شيء ، وعلى ضوء أحكامه يتم التعامل في البيع والشراء ، ولئلا يقع الخلاف والنزاع بسبب هذه المعاملات جعل لها القرآن أحكاماً ونظاماً · وجعل الله الموازين القسط حتى لايكون هناك غبن ولا غش ؛ فالموازين هي التطبيق العملي لتنفيذ أحكام القرآن الخاصة بالبيع والشراء ، لقوله تعالى: ﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ﴾ الرحمن ٧ ، ٨ ، ٩ ·

وقوله تعالى : ﴿ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾ الاسراء ٣٥ · وقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾ هود ٨٥ ·

وعلى ضوء هذه الآيات بيّن الرازي أهمية علاقة البيع والشراء في حياة الناس وأهمية تحقيق العدل بينهم في الكيل والوزن حتى لايحدث النزاع والشجار والخصومات التي تسبب الفرقة والقطيعة ، وقد تؤدي إلى سفك الدماء وسوء الحال في الدنيا والآخرة · وأوضح الرازي إلى أى مدى اهتم الشرع بإيفاء الكيل والوزن ، فيرى أنه على الرغم من أن النقصان الحاصل في الوزن والكيل قد يكون قليلاً جداً ، إلا أن الوعيد الحاصل بسببه شديد ومخيف للغاية ؛ لذلك وجب على العاقل أن يحترز عن الوقوع في نقص أي كيل أو وزن حتى ولو كان أقل القليل ، ويعلل الرازي سبب الوعيد الشديد المتعلق بهذا الشأن ؛ بأن جميع الناس محتاجون إلى المعاوضات في البيع والشراء ، وقد يغفل الإنسان عن الانتباه إلى حفظ ماله ؛ ولذلك بالغ الشرع في منع النقصان والتطفيف · ولذلك فوائد منها :

حفظ الأموال لأصحابها ، وحفظ سمعة الإنسان من أن يلطخ نفسه بسرقة

ذلك المقدار الحقير ، كما أن الذي يوفي الكيل والوزن يحصل له الذكر الحسن والسمعة الطيبة فيسلم بسبب ذلك من الذكر القبيح في الدنيا ومن العقاب في الآخرة ، هذا بالإضافة إلى أن الإنسان إذا اشتهر بالأمانة وعدم التطفيف مالت إليه قلوب الناس وأقبلوا عليه ورغبوا في التعامل معه فيجتني بسبب ذلك المال الكثير في الزمن اليسير ، وهذا أمر مجرب ومشاهد فكم من الفقراء الذين ذاع بين الناس مااشتهروا به من الأمانة والبعد عن الخيانة فأقبل الناس عليهم واطمأنوا إلى بيعهم وشرائهم فأصبحوا - لذلك - من أغنى الأغنياء في مدة وجيزة ٠ هذا في الدنيا ، ولهم في الآخرة الثواب العظيم والسلامة من العقاب الأليم ٠(الرازي - التفسير الكبير - ج ٢٠ ص ٢٠٦ - ٢٠٧)٠

ثم أوضح الرازي لماذا قرن الله سبحانه بين الكتاب والميزان في قوله تعالى : ﴿وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ﴾ الحديد ٢٥ ، فبين أن الله قرن بينهما ليعمل الناس بأوامر الكتاب ، وينفذوها بواسطة الميزان ، ولذلك يعد الكتاب والميزان نعمتين عظيمتين من نعم الله على الخلق ؛لأنه بسببهما تستقيم حياتهم وتتوثق علاقاتهم ،لما فيهما من العدل والانصاف ؛ وذلك أن النفوس لاتقبل الغبن ، ولايرضى الإنسان أن يغلبه احد ولو في أمر يسير ؛لأنه يرى في ذلك اهانة له وانتهاكاً لحقه ، فلايحتمل ذلك من خصمه فيقع النزاع ؛ فبالكتاب يتم بيان الحقوق وبالميزان يتم التساوي وإيفاء الحقوق ، فلايبقى مجال للشيطان للإيقاع بين الناس ٠ ولذلك فائدة أخرى وهي أن القرآن بيّن العدل وأمر بالعمل به ، وهذا يؤدي إلى بقاء العالم وعمارته ، ويعد الميزان أخص الأسباب وأدقها في إقامة العدل ، كما يعد نعمة كاملة وإن كانت نعمته خفية لاتظهر إلا عند فقدانها ، فهى تشبه نعمة الماء والهواء التي لايشعر بها المرء إلا إذا فقدت ٠ ويزيد الرازي الأمر إيضاحاً ببيان المناسبة بين القرآن والميزان ، وهي :

١- أنه يوجد في القرآن من العلوم الكثيرة والفوائد العظيمة مالايوجد في غيره ، كما أن في الميزان من العدل مالايوجد في غيره من الآلات ٠

٢ - بواسطة القرآن يتم التمييز بين الحق والباطل ، وبه - أيضاً - يتضح الفرق بين الحجة والشبهة ، ومعظم ذلك يكون في التكاليف الشاقة التي تتعلق بمعاملة

الناس مع بعضهم ، والانصاف في ذلك لايتم إلا بالميزان ٠

٣ - التعامل نوعان تعامل مع الخالق وطريقه ووسيلته القرآن ، وتعامل مع الخلق ووسيلته الميزان ، وقد أمر الله بتحقيق الأمرين معاً ٠

ويقسم الرازي الناس في طريقة تعاملهم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : السابقون : وهم الذين يعاملون غيرهم بمقتضى الكتاب فينصفون من أنفسهم ولاينتصفون لها احترازاً من الوقوع في الشبهات ٠

القسم الثاني : المقتصدون : وهم الذين ينصفون وينتصفون ، وهؤلاء لابد لهم من الميزان ليتم العدل ، فلازيادة ولانقصان ٠

القسم الثالث : الظالمون : وهم الذين ينتصفون لأنفسهم ويستوفون لكنهم لاينصفون غيرهم ولايوفونهم ، وهؤلاء لابد من زجرهم باستخدام القوة لدفع ظلمهم ٠

وإلى هذه الطوائف الثلاث الإشارة بقوله تعالى ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ الحديد ٢٥ ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢٩ ص ٩٠ ، ٩٢ ، ٢٤٠ ، ٢٤١) ٠

علاقـة العفـو والتسامح :

حث الرازي الإنسان على التمسك بعلاقة العفو والتسامح انطلاقاً من قوله تعالى : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ الأعراف ١٩٩ ، فهذه الآية وإن كانت خطاباً للنبي صلى الله عليه وسلم إلا أن خطاب النبي خطاب لأمته ، وقد اشتهر صلى الله عليه وسلم بالعفو والتسامح ، والأجدر بأمته أن تقتدي به فهو الأسوة الحسنة لها ٠

كما أشار الرازي إلى أن هذه الآية هي المنهج القويم والصراط المستقيم في التعامل بين الناس ، لكنه - مع ذلك - يرى أن الحقوق تنقسم إلى قسمين : قسم يجوز فيه التساهل والتسامح ، وقسم لايجوز فيه ذلك .

فالقسم الأول ، يتعلق بقوله : ﴿ خذ العفو ﴾ ويدخل في ذلك أمور كثيرة يجدر بالإنسان أن يتحلى بها ، منها : التسامح في الحقوق المالية ، والتعامل بالأخلاق الحسنة الطيبة ، واستعمال اللطف واللين ، وتجنب الغلظة والفظاظة ، اقتداءً بالرسول صلى الله عليه وسلم الذي وصفه الله باللين والرفق في قوله تعالى : ﴿ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ آل عمران ١٥٩ ، كما أن العفو والتسامح يرقق قلوب الناس ويستميلهم إلى الحق ، كما قال تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ النحل ١٢٥ .

أما القسم الثاني - وهو الذي لايجوز التساهل والمسامحة فيه - فهو الأمر الذي لابد من الاتيان به كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع أن الجدال بالتي هي أحسن مطلوب فيه ، لكن العفو عن الذين لايأتمرون بالمعروف ولاينتهون عن المنكر غير جائز ، لأن العفو عنهم يدفعهم إلى التمادي في باطلهم ، فالعفو عنهم والتسامح معهم قد يؤدى إلى تغيير الدين وابطال الحق ، وهذا لايجوز . غير أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ممكن مع عدم التعرض لأهل السفه والجهالة ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ الأعراف ١٩٩ .

ثم يشير الرازي إلى أن هذه الآية مشتملة على مكارم الأخلاق المتعلقة بمعاملة الإنسان للإنسان ، ويؤيد ذلك ببعض الأقوال منها :

مارواه عكرمة من أن هذه الآية لما نزلت قال الرسول صلى الله عليه وسلم : «يا جبريل ما هذا ؟ قال يا محمد إن ربك يقول هو أن تصل من قطعك وتعطي من حرمك وتعفو عمن ظلمك» . قال أهل العلم : تفسير جبريل مطابق للفظ الآية ؛ لأنك لو وصلت من قطعك ، فقد عفوت عنه ، وإذا آتيت من حرمك فقد أُتيت بالمعروف ، وإذا عفوت عمن ظلمك فقد أعرضت عن الجاهلين . وقال جعفر الصادق : وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية .

ويختم الرازي حديثه عن علاقة العفو والتسامح ، بأن على الإنسان إذا وقع خصمه في يده وكان قادراً على الانتقام منه أن يتذكر قدرة الله تعالى ، فإذا كان هذا الأسير قد وقع في قبضته فليعلم أنه هو نفسه أسير في قبضة الله ، فليعفو عن هذا العاجز في يده لعل الله يعفو عنه ، وليتذكر أن الله قد أمره بالعفو وترك الغضب ، فليمتثل لأمر الله ويدع الإيذاء والانتقام ، ويختار طريق العفو التي هي طريق الأنبياء والأولياء والصالحين ٠ وربما يتحول ذلك الضعيف العاجز إلى قوي قادر فينتقم لكنه عند العفو عنه يحفظ لخصمه ذلك المعروف وذلك العفو ، ويعده إحساناً إليه فيحاول مكافأة ذلك المحسن فيكون للمحسن الأول قد حاز ثواب الدنيا والآخرة ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٥ ص ٩٥ ، ٩٦ ، ١٠٠) ٠

التحذير ممايفسد علاقة الإنسان بالإنسان :

تعرض الرازي إلى بعض الصفات السيئة والأخلاق الذميمة التي تفسد العلاقات الإجتماعية وتنشر القلق والاضطراب وتؤدي إلى زعزعة ثقة الناس بعضهم في بعض ، ومن تلك الصفات الذميمة مايلي : -

١ - الحســـــد :

الحسد داء فتاك ومرض اجتماعي خطير إذا تمكن من النفوس البشرية حرمها الراحة والإطمئنان وجلب لها المتاعب والآلام بما يثيره فيها من كراهية وحقد يؤدى إلى عواقب وخيمة على الفرد والجماعة ٠ لذا نفر الرازي وحذر من هذه الخصلة القبيحة التي عدها أمّاً لكل الشرور ؛ فالحسد سبيل إلى الكفر ، وسبيل إلى التنافس والنزاع والخصام والشجار والظلم والعدوان والقتل وغمط الحقوق والوقوع في أعراض الناس ، وغير ذلك من الكوارث التي لاتعد ولاتحصى ، فالحسد - إذاً - مطية الشيطان ووسيلته إلى تنفيذ أغراضه ٠ ويرى الرازي أن الحسد هو السبب الذى يدفع الناس إلى قتل النفس ؛ ولذلك أمر الله الإنسان بأن يرضى بما قسم الله له في قوله

تعالى : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ النساء ٣٢ ؛ لأن الإنسان إذا لم يرض بما قسم الله له وقع في الحسد ، وإذا وقع فيه جره إلى أخذ الأموال بالباطل ثم يتمادى في ذلك حتى يصل إلى قتل النفوس ٠ والذي يعصمه من الوقوع في هذه المهلكات هي القناعة بما قسمه الله له ، ولذلك قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيماً ﴾ النساء ٣٠ ٠

ورسم الرازي طريقاً لسد باب الحسد وهو : أن يطهر المرء ظاهره بقوة الإرادة التي بها يكبح جماح نفسه ، فلا يقدم بجوارحه على قتل الناس وأخذ أموالهم ، فإذا استطاع تحقيق هذا الأمر فإنه يقوده إلى طهارة باطنه من الحسد ؛ لأنه بطهارة الظاهر يصير طاهراً من الأفعال القبيحة ، وبطهارة الباطن يصير طاهراً من الأخلاق الذميمة ٠

وقسم الرازي السعادات والفضائل التي يصير الإنسان بسببها محسوداً إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : السعادات النفسانية ، وهي نوعان : النوع الأول : القوة النظرية مثل : الذكاء التام ، والحدس الكامل ، والمعارف التي يتفوق بها الإنسان على غيره سواء في الكمية أو الكيفية ٠ النوع الثاني : القوة العملية مثل : العفة ، والشجاعة ، والحكمة ٠

القسم الثاني : السعادات البدنية : مثل : الصحة ، والجمال ، والعمر الطويل مع حصول اللذة والسرور ٠

القسم الثالث : السعادات الخارجية : مثل : كثرة الأولاد الصالحين ، وكثرة العشائر ، والأصدقاء والأعوان ، وحصول الرياسة والجاه ، ونفاذ الكلمة وكون الإنسان مذكوراً بالخير محبوباً بين الناس مسموع الكلمة مطاع الأمر فيهم ٠

وهذه السعادات بأنواعها الثلاثة : سعادات إما فطرية ، وإما مكتسبة ، وكلها

حاصلة بفضل الله الذي قسم الأرزاق وفضل بعض الناس على بعض في الرزق ٠ والإنسان إذا شاهد هذه السعادات وهذه الفضائل حاصلة لغيره، ووجد نفسه لاتملك منها شيئاً أو لاتملك أكثرها فإن قلبه يتألم وخاطره يتكدر ؛ وفي هذه الحالة يقع في حالة من حالتين :

الأولى : أن يتمنى زوال تلك النعمة وتلك السعادة عن صاحبها ٠

والثانية : أن لايتمنى زوال ذلك بل يتمنى أن يكون لديه مثل ذلك ٠

فالحالة الأولى تسمى بالحسد المذموم وهو الحسد المنهي عنه ؛ لأنه اعتراض على قسمة الخالق فيما تفضل به على عبيده من أنواع الكرم والجود والإحسان ٠ والأسوأ من ذلك أن الحاسد قد يعتقد في نفسه أنه أحق بتلك النعم وأنه الأولى بها من ذلك الذي حصلت له، وفي هذا اعتراض على الله وقدح في حكمته، وهذا الأمر ربما يصل بذلك الحاسد إلى الكفر والبدع وزوال الإيمان عن قلبه، وهذا - لاشك فساد عظيم في الدين ٠

وأوضح الرازي مايحدثه الحسد من أثر في علاقات الناس، فبين أن الحسد سبب كبير لفساد الدنيا حيث يقطع المودة والمحبة والموالاة ويقلب ذلك إلى البغضاء والشحناء والقطيعة وعدم النصرة والموالاة، ولذلك نهى الله عن الحسد بقوله : ﴿ وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾ النساء ٣٢ ٠

ويدعم الرازي رأيه في الحسد المنهي عنه ببعض النصوص، منها :

قوله تعالى : ﴿ لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ ﴾ الأنبياء ٢٣، فلايجوز الاعتراض على فعل الله، فهو الفعال لما يريد، وهو سبحانه علام الغيوب وهو تعالى أعلم بما يصلح به الخلق، فقد يكون بسطه الرزق لبعضهم سبباً في البغي والطغيان كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ بَسَطَ اللَّهُ الرِّزْقَ لِعِبَادِهِ لَبَغَوْا فِي الْأَرْضِ ﴾ الشورى ٢٧، فالعاقل هو من رضي بقضاء الله، وفي هذا المعنى حكى الرسول صلى الله عليه وسلم

عن رب العزة أنه قال : <<من استسلم لقضائي وصبر علي بلائي وشكر لنعمائي كتبته صديقاً وبعثته يوم القيامة مع الصديقين ، ومن لم يرض بقضائي ولم يصبر على بلائي ولم يشكر لنعمائي فليطلب رباً سواي >> ٠

وروى ابن سيرين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : << لايخطب الرجل على خطبة أخيه ولايسوم على سوم أخيه ولاتسأل المرأة طلاق أختها لتقوم مقامها فإن الله هو رازقها >>٠

فهذه النصوص صريحة في ذم الحسد والمبالغة في منعه ٠

أما الحالة الثانية : فهي الحسد المباح أو حسد الغبطة ، وهي أن يتمنى الإنسان أن يكون له مثل مالغيره ، ويفصل الرازي في هذه المسألة من خلال رأي العلماء ، فمن العلماء من جوز حسد الغبطة ، غير أن المحققين منهم لم يجيزوه ، وعللوا ذلك بأن الإنسان لايدرك الحكمة من حصول النعمة له فربما كانت تلك النعمة سبباً في حصول مفسدة له في دينه ودنياه ، ولهذا السبب رأى المحققون أنه لايجوز للإنسان أن يقول : اللهم أعطني داراً مثل دار فلان ، وزوجة مثل زوجة فلان ، بل ينبغي أن يقول : اللهم أعطني مايكون صلاحاً في ديني ودنياي ومعادي ومعاشي ٠

وذكر الرازي أنه لايوجد دعاء أفضل وأحسن مما ذكره الله تعالى في القرآن تعليماً لعباده ، وهو قوله تعالى : ﴿ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً ﴾ البقرة ٢٠١

وحذر الرازي من الجهل ؛ لأنه السبب الرئيسي في حصول الأخلاق الذميمة مثل البخل والحسد ، فهما أشد الأخلاق الذميمة قبحاً ، لأن جميع المضار الحاصلة لعباد الله ناشئة عنهما ، ولاشك أن البخل والحسد لايقعان إلا من الجهلاء الذين يؤثرون الدنيا على الآخرة ؛ فالبخيل يحبس المال عن الإنفاق ، ويرجح الدنيا على الآخرة ، وهذا جهل محض ٠

والحاسد يكره وصول نعم الله وإحسانه إلى العبيد ، وهذا محض الجهل أيضاً ، وقد وصف الله هذا الصنف من الناس بقوله تعالى : ﴿ أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذاً

لا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيراً ﴾ النساء ٥٣ ٠

ويزيد الرازي في تنفيره من الحسد ، فذكر أنه من صفات اليهود الذين منعهم حسدهم لمحمد صلى الله عليه وسلم من الإيمان به ، ولذلك وصفهم الله بقولـــــه : ﴿ أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَاآتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُلْكاً عَظِيماً ٠ فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفَىٰ بِجَهَنَّمَ سَعِيراً ﴾ النساء ٥٤ ، ٥٥ ٠

فالأحرى بالمسلم أن يكون حذراً من التشبه باليهود الذين كان الحسد أخص صفاتهم ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٠ ص ٨٠ - ٨٢ ، ص ١٢٩ - ١٣٣) ٠

٢ - الســـخرية :

السخرية صفة قبيحة يمقتها الدين والعقل وكل ذي طبع سليم ، ولا يمارس السخرية إلا ناقص عقل ودين ، وذو نفس خبيثة مريضة يجد في السخرية بالناس مايخفف عن نفسه ماتحمله من أعباء المرض والشعور بالنقص ، فيسخر من الناس ليوهم نفسه بأنه الأفضل وأن غيره أقل منه شأناً ٠

والسخرية داء عضال يؤدي إلى تفتيت المجتمع وقطع حبال الود والمحبة وزرع الضغائن والأحقاد في النفوس ٠

ولخطورة السخرية ومايتفرع عنها من اللمز والتنابز نهى الله عنها بأبلغ عبارة وآكدها ، فقال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَايَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلَانِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلَاتَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَاتَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ الحجرات ١١ ٠

لقد عالج الرازي مشكلة السخرية مؤكداً على أنه لاعلاج لها إلا بالتقوى لأن من يتق الله تشغله تقواه عن الاشتغال بعيوب غيره ، فالمسلم الحق يأتمر بأوامر الله ويجتنب نواهيه ، وللعبادة أثرها في هذا الشأن فكلما كان المرء مقبلاً على عبادة الله وطاعته كلما شغله ذلك عن عيوب الناس وعن الخوض في أعراض إخوانه المؤمنين ، فالمؤمن أخو المؤمن ؛ والأخوة تقتضي الود والمحبة بدلاً من السخرية والاستهزاء كما قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ الحجرات ١٠ .

وذكر الرازي أن للمؤمن حالتين : حالة الحضور ، وحالة الغياب ، فإذا كان حاضراً فلايجوز لأحد من الحاضرين معه أن يسخر منه أو ينظر إليه نظرة احتقار أو ازدراء بل ينبغي أن يكون الاحترام والتقدير هو السائد بين الجميع .

كما أوضح الرازي أن في الآية السابقة ترتيباً للعيوب الثلاثة وهي : السخرية ، واللمز ، والتنابز ، فقد وردت مرتبة حسب شناعتها وقبحها ؛ فذكرت السخرية أولاً لأنها أقبح ، وأتى اللمز في المرتبة الثانية ، والتنابز في المرتبة الثالثة . فالسخرية هي أن لاينظر الإنسان إلى أخيه بعين الإجلال ولايلتفت إليه بل يصد عنه احتقاراً له وحطاً من شأنه ، وتجده لشدة هوانه عليه لايذكره بشيء البتة اظهاراً لإمعانه في ازدرائه والتكبر والتعالي عليه ، فهو - في نظره - أقل من أن يذكر ، وأقل من أن يلتفت إليه ، والآية الكريمة ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَايَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ ﴾ تحذر من هذا السلوك بين المؤمنين .

أما الحالة الثانية : فهي أن يكون الإنسان غائباً ، فإذا ذكر بشيء من عيوبه في حالة غيابه سمي ذلك لمزاً ، واللمز أقل من السخرية ، لكنه أيضاً محرم ، وفي قوله تعالى: ﴿ ولاتلمزوا أنفسكم ﴾ دلالة على أن المؤمن أخو المؤمن ، فإذا وقع اللمز من المؤمنين لبعضهم فكأنهم قد عابوا أنفسهم لأن عيب الإنسان لأخيه عيب لنفسه ، فالمؤمنون بمثابة النفس الواحدة ، فالأجدر أن يترفعوا عن لمز بعضهم .

أما النبز فهو أن يُذكر الإنسان بعيب موجود فيه على سبيل الغض من قيمته والحط من منزلته ، مثل أن يُذكر بلقب مشعر بالذم ، وهذا أيضاً لايجوز ، فلايذكر

للمؤمن أخاه بأي اسم أو لقب يكرهه أولا يرغبه ٠

وكثيراً مايفضي التنابز إلى الشجار وشتم البعض للبعض فى الحال ٠

وفي آخر الآية زجر شديد لمن يمارس هذه القبائح، حيث وصف من يرتكبها بالفسوق، فيصبح من جراء فعله فاسقاً بعد أن كان مؤمناً ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢٨ ص ١٣٠ - ١٣٠) ٠

٣ - الظن السيىء والتجسس والغيبة :

قال الله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ ﴾ الحجرات ١٢ ٠

ثلاثة أمور قبيحة يجب على المؤمنين اجتنابها والاحتياط من الوقوع فيها ؛ لأنها تفسد العلاقات بينهم ، فالظن السيىء يؤدي إلى عدم ثقة المؤمن في أخيه المؤمن، ويؤدي إلى اتساع الفجوة بينهما حيث ينظر كل منهما إلى الآخر نظرة حذر وريبة ؛ وهذا له خطره على المجتمع المسلم سواء كان مجتمعاً كبيراً أم صغيراً ، حيث تسوده الفرقة وتمزق أوصاله ، وتمكن منه أعداءه ٠ والتجسس كذلك فيه تتبع لعورات المسلمين ومحاولة لكشف خفاياهم ، والشرع لايبيح ذلك ، فمن تتبع عورة أخيه كشف الله عورته ٠ وإذا أصبح الناس في المجتمع المسلم بهذه الصورة حيث يحرص كل أحد على الإطلاع على مايخفيه الآخر من خصوصيات وأسرار لايود أن يطلع عليها أحد ، إذا أصبح أفراد المجتمع بهذه الصورة فإنه سيتحول إلى مجتمع مشغول بالدنايا والأفعال الخسيسة ، وأقل مايمكن أن يوصف به هذا المجتمع بأنه مجتمع فاسد متخاذل لايدركماينفعه ومايضره في دنياه وآخرته ٠

والغيبة كذلك داء وبيل في الدنيا والآخرة ، ففي الدنيا تفرق الجماعة وتحدث

الانقسامات وتشتت الشمل وتوغر الصدور ، وتفسد على الناس عيشهم ، وأما في الآخرة فيكفي أنها تأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب ٠

ولشناعة هذه الخصال وفداحة نتائجها تجد الرازي يحذر منها أشد تحذير ويعطي درساً تربوياً لقطع دابرها ، وتحصين النفس عن الوقوع فيها ٠ فيدعو إلى الحذر من سوء الظن ، فهو السبب الرئيسي في كل القبائح السابقة ، فهو الأساس لحصول السخرية واللمز والتنابز وهو السبب في وجود العداوات ، والإحن ، فلو أن الإنسان بنى أموره على اليقين بدلاً من االظن لكان من النادر أن تحدث تلك العيوب ؛ لأن سوء الظن يدفع الإنسان إلى أن يتصور أشياء وهمية أو يتخيلها على خلاف ماهي عليه في الواقع فيكون - نتيجة لذلك - مخطئاً في حكمه على الأشياء ٠

ويشير الرازي إلى أن في قوله ﴿ كثيراً من الظن ﴾ اخراج للظنون الحسنة التي تكون سبباً في الكثير من الخير ، كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : «« ظنوا بالمؤمنين خيراً »» ٠

ويرى الرازي أن التجسس لايحدث إلا نتيجة لسوء الظن ، فهو الذى يدفع الإنسان إلى البحث والتنقيب عن عورات الآخرين ، وقد يكون الدافع إلى ذلك هو طلب اليقين ، حيث يعتقد أنه بالبحث في هذا الأمر يصل إلى اليقين وإلى معرفة الناس على حقيقتهم ، غير أن هذه وسيلة سيئة لاتبررها تلك الغاية ، فلايجوز للناس أن يجتهد وا في طلب اليقين في عيوب غيرهم ، فكما أنه لايجوز للمؤمن أن يقول في حق أخيه مالم يعلمه بناءً على الظن ، فإنه لايجوز له أن يدفعه حب اليقين إلى الكشف عن أموره لكي يستيقنها ٠ وإذا علم من أمور أخيه شيئاً بدون تجسس فلا يفشي ذلك ٠ ثم يشير الرازي إلى أن الآية قد رتبت هذه الأشياء ترتيباً جميلاً حيث نهت عن الأمر غير المعلوم وهو الظن ، ثم نهت عن طلب ذلك العلم بالتجسس ، ثم نهت عن إفشاء ماعلم عن طريق الغيبة ، فكان النهي أولاً عن الظن لأنه السبب فيما سيحدث بعده من التجسس والاغتياب ٠

ويرى الرازي أن الحكمة من تشبيه الغيبة بأكل لحم الميت ، لأن عرض الإنسان كدمه ولحمه ، بل إن عرضه أشرف من لحمه وبناء على ذلك فالعاقل يكره أن يقع في عرض أخيه المؤمن كما يكره لحوم الناس حيث ينفر ويشمئز من أكلها •

ويشير إلى أن في قوله : ﴿ لحم أخيه ﴾ تأكيداً شديدا على المنع من الغيبة وإذا كان العدو قد يحمله الغضب أحياناً على مضغ لحم عدوه ، فعلى النقيض من ذلك أصدق الأصدقاء وهو أخوك الذي ولدته أمك ، فأكل لحمه أشد قبحاً ، والأقبح من ذلك أن يكون ميتاً ، فتصور مدى قبح الغيبة ومدى سوء عاقبتها ، فكما أنه لايجوز للمرء أن يكل من لحم الميت إلا عند الضرورة بقدر الحاجة ، بل إن للمضطر إذا وجد لحم الشاة الميتة ولحم الآدمي الميت فإنه لا يأكل لحم الآدمي ، فكذلك المغتاب إذا كان في أمس الحاجة والاضطرار ثم وجد أي سبيل آخر غير الغيبة لدفع الضرورة فإنه لايجوز له الذهاب إلى الغيبة •(الرازي - التفسير الكبير - ج ٢٨ ص ١٣٤ - ١٣٦)•

الرسول صلى الله عليه وسلم هو القدوة المثلى في العلاقات الإنسانية :

يؤكد الرازي على أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو القدوة الحسنة لكل إنسان يبحث عن المثل الأعلى ، فمن أراد أن يكون كاملاً في بر الوالدين وصلة الرحم وذي القربى فله في رسول الله أحسن قدوة وأفضل مثال • والحاكم الذي يريد أن يطبق شرع الله ويحكم في رعيته بالعدل في شتى صوره فليقتد برسول الله ، ومن أراد أن يكون صديقاً وفياً ورفيقاً مخلصاً صادقاً حسن المعشر يألف ويؤلف فليتعلم هذا السلوك من سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، ومن أراد أن يكون متواضعاً ليناً رفيقاً محبوباً مطاعاً فليرب نفسه بسنة رسول الله ، ومن أراد أن يكون لطيفاً مع خدمه ومماليكه ومن تحت يده محسناً إليهم فليطبق على نفسه سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسيجد فيها درساً لامثيل له في هذا المجال وفي غيره من المجالات

الأخرى •

أما المعلم الذي يبحث عن الكمال وعن الشخصية المتكاملة في الاستقامة وفي الخلق الحميد وفي الطريقة وفي الاخلاص ليكون قدوة حسنة لطلابه في الفعل والقول وغير ذلك فعليه - قبل أن يباشر عمله في التدريس والتربية - أن يتتلمذ على سنة وسيرة محمد صلى الله عليه وسلم •

ويقدم الرازي درساً تربوياً عملياً من خلال سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وهو درس شامل يحتوي على العناصر التي تفيد الناس على اختلاف صور التعامل فيما بينهم • وقد استهل الرازي درسه بالنصوص والآثار والأقوال التي تسلط الضوء على شخصية الرسول صلى الله عليه وسلم من ذلك :

قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴾ آل عمران ١٥٩ •

وفي تعليق الرازي على هذه الآية : أن المسلمين لما انهزموا يوم أحد ثم عادوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم فإنه لم يكن غليظاً شديداً في مخاطبته لهم بل كان ليناً لطيفاً في قوله ، فمدحه الله لعفوه عنهم وتجنبه التغليظ عليهم بقوله تعالى : ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ﴾ • ويتمثل لينه صلى الله عليه وسلم مع أصحابه في حسن خلقه امتثالا لأمر الله تعالى في قوله : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الشعراء ٢١٥ ، وقوله : ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ الأعراف ١٩٩ ، ووصفه له بقوله ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم ٤ ، وقوله : ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ ﴾ التوبة ١٢٨•

والرسول صلى الله عليه وسلم دعا كل إمام وحاكم إلى الرفق والحلم في قوله :

« لا حلم أحب إلى الله تعالى من حلم إمام ورفقه ، ولا جهل أبغض إلى الله من جهل

إمام وخرقه ›› •

وهوصلى الله عليه وسلم إمام العالمين ؛ لذا وجب أن يكون أحسنهم خلقاً وأكثرهم حلماً •

وروي أن امرأة عثمان دخلت عليه صلى الله عليه وسلم، ومعه علي يغسلان السلاح ، فقالت مافعل ابن عفان ؟ أما والله لاتجدونه أمام القوم ، فقال لها علي : ألا إن عثمان فضح الزمان اليوم، فقال عليه الصلاة والسلام ‹‹ مه ›› وروي أنه قال حينئذ : أعياني أزواج الأخوات أن يتحابوا ، ولما دخل عليه عثمان مع صاحبيه مازاد على أن قال : ‹‹ لقد ذهبتم فيها عريضة ›› •

وروى عن بعض الصحابة أنه قال : ‹‹ لقد أحسن الله إلينا كل إحسان ، كنا مشركين فلو جاءنا رسول الله بهذا الدين جملة وبالقرآن دفعة لثقلت هذه التكاليف علينا فما كنا ندخل في الإسلام ، ولكنه دعانا إلى كلمة واحدة ، فلما قبلناها وعرفنا حلاوة الإيمان ، قبلنا ماوراءها كلمة بعد كلمة على سبيل الرفق الى ان تم الدين وكملت الشريعة " •

وروي أنه عليه الصلاة والسلام قال : ‹‹ إنما أنا لكم مثل الوالد فإذا ذهب أحدكم إلى الغائط فلايستقبل القبلة ولا يستدبرها ›› •

وقال سعيد بن هشام : قلت لعائشة : أخبريني عن خلق رسول الله ، قالت : ألست تقرأ القرآن ؟ قلت بلى ، قالت فإنه كان خلق النبي عليه الصلاة والسلام وسئلت مرة أخرى فقالت : كان خلقه القرآن •

وروى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : ‹‹ ما كان أحد أحسن خلقاً من رسول الله صلى الله عليه وسلم، مادعاه أحد من أصحابه ، ولا من أهل بيته إلا قال لبيك ›› •

وقال أنس رضي الله عنه : ‹‹ خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر

سنين فما قال لي في شيء فعلته لم فعلت ، ولا في شيء لم أفعله هلا فعلت >> •

وعند النظر إلى حسن الخلق - كما أوضح الرازي - ينبغي النظر إلى أمرين :

الأمر الأول : اعتبار حال القائل ، والأمر الثاني : اعتبار حال الفاعل •

فعند النظر إلى حال القائل يلاحظ أن النفوس مختلفة من حيث الماهية كما قال صلى الله عليه وسلم : << الأرواح جنود مجندة >> ، وقال : << الناس معادن كمعادن الذهب والفضة >> •

وكما هو معلوم فإن النفوس الناقصة تتدرج في انحدارها إلى غاية البلادة والمهانة والنذالة ، وسيطرة الشهوة والغضب عليها واستيلاء حب المال واللذات ، فكذلك في ناحية الصعود في مدارج الكمال تصل إلى الغاية في القوة والجلالة ، والرسول صلى الله عليه وسلم بلغ الغاية والكمال في القوة النظرية فينطبق عليه في هذه الناحية وصف الله له بقوله : ﴿ نُورٌ عَلَىٰ نُورٍ ﴾ النور ٣٥ - وقوله : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ النساء ١١٣ •

وبلغ صلى الله عليه وسلم الغاية في القوة العملية ، فهو - في هذه الناحية - كما وصفه الله بقوله : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم ٤ ، فنفسه صلى الله عليه وسلم لاتنقاد للشهوات ، ولاتنجر وراء دواعي الغضب ، ولاتتساق وراء حب المال والجاه والسلطان ؛ لأن نفسه أقوى من أن تؤثر فيها جميع هذه المؤثرات فهي في غاية الجلالة والكمال في هذه الناحية •

أما الأمر الثاني : وهو اعتبار حال الفاعل : فهو - صلى الله عليه وسلم - يعلم علم اليقين أن الحوادث لاتحدث إلا بقضاء الله وقدره ، فهي مستندة في حدوثها إلى الأسباب الإلهية ، ويعلم أن الحذر لايدفع القدر ، فإذا فاته أمر - كان يرغب في حصوله - لم يغضب لفواته ، فقد يكون الخير في ذلك ، وإذا حصل له أمر محبوب لم يفرح ولم يأنس بذلك ؛ ولذلك لم ينازع أحداً من الخلق في طلب لذات الدنيا

وطيباتها، ولايتملكه الغضب إذا فاته شيء من مطالب الدنيا بسبب أحد من الناس ،

ومن كانت هذه صفته وهذا خلقه فلابد أن يكون حسن الخلق طيب العشرة ، ولاشك أنه – صلى الله عليه وسلم أكمل البشر في هذه الصفات والخصال ٠

ويعلل الرازي كون الرسول صلى الله عليه وسلم يتمتع بالصفات والخصال الحميدة المتكاملة ، وهو أن الله تعالى قد اصطفاه ليكون مبعوثاً إلى الناس ومبلغاً لتكاليف الله إلى الخلق ، وهذا الهدف لايتم ويتحقق إلا إذا توافرت في الرسول صلى الله عليه وسلم صفات معينة تجعل قلوب الناس تميل إليه وتجعل نفوسهم تطمئن وتسكن لديه ، فلابد أن يتصف بالرحمة والكرم والتجاوز عن المذنبين ، والعفو عن المسئين ، وأن يتصف – أيضاً – بالبر والمكرمة والشفقة ؛ لذا وجب أن يكون الرسول مبرأ من ســـوء الخلق وقد كان محمد صلى الله عليه وسلم متصفاً بجوامع الخصال الفاضلة مبرأ من الغلظة والفظاظة كثير الميل إلى إعانة ومساعدة الضعفاء والفقراء يتجاوز عن سيآتهم ويصفح عن زلاتهم ٠

ويستدرك الرازي بأن صفح الرسول وتجاوزه لايكون في جميع الأحوال ؛ لأن هناك أموراً تستدعي معاقبة المذنب وإقامة الحدود ، فالرسول صلى الله عليه وسلم لايمكن أن يهمل حداً من حدود الله أو حقاً من حقوق العباد ، بل يقيم الشرع وينفذ أوامر الله وأحكامه في حق المذنبين ، كما قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ التحريم ٩ ، وقوله تعالى في إقامة حد الزنا : ﴿ وَلَاتَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ ﴾ النور ٢ ٠

كما أمر الله الرسول بالغلظة على الكفار في قوله ﴿ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ ﴾ ٠

ودعا الله إلى التفريق في التعامل بين المؤمنين والكفار بقوله : ﴿ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ المائدة ٥٤ ، وقوله ﴿ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ ﴾ الفتح ٢٩ ، وماذلك إلا لأن طرفي الإفراط والتفريط مذمومان ، والفضيلة هي الوسط لقوله تعالى : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ﴾ البقرة ١٤٣ ٠

ومن المبادىء التي يجب أن يلتزم بها الحاكم مبدأ الشورى ، وله في ذلك أسوة برسول الله صلى الله عليه وسلم الذي كان يشاور أصحابه تنفيذاً لأمر الله القائل:﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ الشورى ٣٨ ، فمشاورته لهم تشعرهم بمكانتهم وعلو شأنهم ، وتؤدي إلى محبتهم له وطاعتهم إياه ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : «ماتشاور قوم قط إلا هدوا لأرشد أمرهم» ، قال الحسن وسفيان بن عيينة إنما أمر بذلك ليقتدي به غيره في المشاورة ويصير سنة في أمته .

ويضيف الرازي إلى ذلك ما اشتهر به الرسول صلى الله عليه وسلم من تحمله للشدائد والمشقة فى سبيل تبليغ الرسالة ، حيث تعرض لامتحان شديد وصعب ، لكنه لم يحد عن سبيل الحق ، وقد حاولت قريش اغراءه بالأموال الكثيرة والأزواج ليترك دعوته ، لكنه لم يلتفت إلى شيء من ذلك ، بل قنع بالفقر وصبر على المشقة ولما علا شأنه وعظم أمره وفتح البلاد وحصّل الغنائم لم يتغير ولم يغير ما هو عليه ، فبقي زاهداً في الدنيا مقبلاً على تبليغ الرسالة.ويختم الرازي الموضوع بتذكير العرب بفضل الله عليهم ببعثة محمد صلى الله عليه وسلم ، فقد كانت أمة العرب من أرذل الأمم ديناً وأخلاقاً ، فكانوا يعبدون الأصنام ويغير بعضهم على بعض ويأكلون الطعام الردىء ، ثم نقلهم الله ببركة محمد صلى الله عليه وسلم حتى صاروا أفضل الأمم ديناً وعلماً وعبادة . (الرازي - التفسير الكبير - ج ٩ ص ٦٠ - ٦٦ ، ٧٩ -٨٠ ، ج ٣٠ ص ٨١) .

أثر الوعد والوعيد في العلاقات الاجتماعية بين الناس :

يتميز الوعد والوعيد بأثره البالغ في تنمية الروابط الاجتماعية والحفاظ على دوامها واستمرارها : فالثواب الذي ينتظره الإنسان في الآخرة يدفعه إلى العدل والإحسان ، وفعل أنواع البر مع كل فئات المجتمع ، من الوالدين والأقارب والأيتام والمساكين والفقراء والجيران وسائر الناس ، كما أن الوعيد بالعقاب يمنع الإنسان من الوقوع في شيء من المحظورات التي يحرمها الشرع ، فلايعق والديه ، ولايقطع رحمه ، ولايظلم اليتيم ولايأكل ماله ، ولايمنع حق للمساكين والفقراء من الزكاة ، ولايظلم من تحت يده من الموالي أو الخدم ، ولايؤذي الجار أو أي أحد من الناس .

ولاشك أن القوانين البشرية والأنظمة ، والرقابة من قبل السلطات على أعمال الإنسان تعجز مهما كانت دقتها ، فالكثير من الناس يستطيعون في الكثير من الأحيان الافلات من الرقابة ، كما يستطيعون إخفاء الكثير من أفعالهم . لكن الرقابة الإلهية هي الرقابة الوحيدة التي لايستطيع الإنسان الافلات منها ، فالإنسان عندما يحس برقابة الله الذي لاتخفى عليه خافية فإنه يرتدع ويزدجر ويصير عليه من نفسه رقيب ، ولاسيما المؤمن الذي يؤمن بالبعث والحساب والجزاء ، وأن المرء محاسب على كل كبيرة وصغيرة اكتسبها ، ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ ﴾ الزلزلة ٧ ، ٨ .

ولاشك أن هناك أموراً كثيرة من أفعال الخير والشر يقترفها الإنسان وليس هناك من القوانين البشرية مايثيبه أو يعاقبه عليها ، وإنما ثوابها وعقابها مدخر في الأخرة .

فالقوانين الدنيوية لاتثيب ولاتعاقب على الأخلاق ، فالإيثار والتراحم والتعاون ... واحترام الكبير والعطف على الصغير والضعيف ... وفي الجانب الأخر الحقد والحسد والغيبة والنميمة والبخل ... ، كل هذه أمور أهملتها القوانين الدنيوية ،

أما الإسلام فقد ركز عليها بل وجعل الثواب والعقاب في اليوم الآخر في هذه الأمور مقدماً على غيرها بعد الإيمان بالله سبحانه وتعالى . (محمد جميل خياط - ١٤٢٠هـ ص ٦٧) .

ولم ينس الرازي هذا الجانب التربوي في حياة الناس ، فقد لفت الانتباه الى أهمية الوعد والوعيد مشيراً إلى أثر ذلك في إقامة العلاقات الإنسانية وذكر بعض الأحاديث التي تحث على صلة الرحم وتنفر من قطيعتها ، مثل : قوله صلى الله عليه وسلم : « **يقول الله تعالى أنا الرحمن وهي الرحم اشتققت اسمها من اسمي فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته** » . (الألباني - ١٣٩٩هـ - ج٣ ص ١٣٧٩) .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «**مامن شيء أطيع الله فيه أعجل ثواباً من صلة الرحم ومامن عمل عصي الله به أعجل عقوبة من البغي واليمين الفاجرة** » .

وعن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « **إن الصدقة وصلة الرحم يزيد الله بهما في العمر ويدفع بهما ميتة السوء ويدفع الله بهما المحذور والمكروه** » .

وقال عليه الصلاة والسلام : « **أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح** » .

وعند الرازي أن الوعد والوعيد والترغيب والترهيب لها أثرها الكبير في المحافظة على علاقة الإنسان بالإنسان ؛ فالإنسان عندما يدرك أن الله يحصي عليه جميع أفعاله فإنه يكون خائفاً حذراً في كل عمل يقوم به أو يتركه ، ولكي يكون الإنسان كذلك ختم الله الآية بما يرغب في التقوى وصلة الرحم ومايمنع من الوقوع في القطيعة ، فقال : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً ﴾ النساء ١ .

وأورد الرازي حادثة تدل على تأثير الوعد والوعيد في سلوك الوصي مع اليتيم وهي أنه لما نزل قوله تعالى : ﴿ وَآتُوا الْيَتَامَىٰ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَىٰ أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴾ النساء ٢ ٠

كان هناك رجل من غطفان معه مال كثير لابن أخ له يتيم ، فلما بلغ الصبي طلب ماله من عمه فمنعه فتحاكما إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فنزلت هذه الآية فلما سمعها العم قال : أطعنا الله وأطعنا الرسول ، نعوذ بالله من الحوب الكبير ، ودفع مال اليتيم إليه ٠

وذكر الرازي أن الوعيد بخصوص مال اليتيم والتعامل معه تكرر كثيراً في القرآن الكريم ، وكان لذلك أثره على سلوك الناس مع الأيتام ؛ وما ذلك إلا من لطف الله ورحمته باليتيم نظراً لشدة ضعفه وعجزه عن القدرة على استيفاء حقه ؛ فاليتامى لما بلغوا الغاية في الضعف بلغت رحمة الله بهم الغاية القصوى من العناية ، ومن الأمثلة على شدة الوعيد في هذا المجال قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴾ النساء ١٠ ٠ ويستمر الرازي في تركيزه على أهمية الوعيد في الحفاظ على حقوق الناس ، فيحذر من مخالفة أوامر الله وتكاليفه ولاسيما فيما يتعلق بالحقوق التي ضمن الله حفظها وهدد من ينتهكها بالوعيد الشديد ، ومن ذلك حفظ الدماء وعدم سفكها ، فقد وعد الله سبحانه وتعالى بأنه سيقيم العدل بين الناس وينصف المظلوم من الظالم يوم الجزاء والحساب حيث يجمع الخلائق ويفصل بينهم ، لقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ النساء ٨٧ ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَىٰ ﴾ طه ١٥ ٠

كما أكد الرازي على قضية الإيمان وأثرها في ردع الناس عن العدوان ؛ فالإيمان بالخالق والإيمان بالبعث والحشر يؤدي إلى انتظام مصالح الناس في الدنيا ،

فلولا الإيمان لاختلت مصالح العالم واضطربت أحوال الناس ووقع بينهم الهرج والمرج وسفك الدماء ٠ (الرازي – التفسير الكبير – ج ٩ ص ١٦٦–٢٠٠، ج ١٠ ص ٢١٦ ، ج ٢ ص ٨٨) ٠

أما التعامل بين الناس في البيع والشراء ، فإن هذه العلاقة كثيراً مايحدث فيها النزاع والخصام ، وهي علاقة تستدعي – في الغالب – الكيل والوزن ، ويحدث فيهما النقص وبخس الناس أشياءهم ، ولذلك يرى الرازي أن الناس محتاجون إلى مايردعهم ويزجرهم عن الوقوع في بخس الوزن والكيل أو مايشبه ذلك من التعاملات التجارية التي يحدث فيه الغش والغبن مما يسيء العلاقات بين الناس ويفسد عليهم معاشهم ٠ والزاجر لهم عن ذلك – كما يرى الرازي – هو الوعيد الشديد الوارد في سورة المطففين في قوله تعالى : ﴿ وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِيْنَ الَّذِيْنَ إِذَا اكْتَالُوْا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُوْنَ وَإِذَا كَالُوْهُمْ أَوْ وَزَنُوْهُمْ يُخْسِرُوْنَ ﴾ ٠ المطففين ١ ، ٢ ، ٣ ٠

ففي هذه الآية تهديد وزجر شديد لأولئك الذين يبخسون المكيال أو الميزان حتى ولو كان البخس قليلاً وهو ماأُخِذَ على سبيل الخفية وهو التطفيف ، فإن الله تعالى لايهمل هذا الأمر مهما كانت قلته ٠

وقد أورد الرازي قصة لنزول هذه الآية وهي : عن عكرمة عن ابن عباس قال: لما قدم نبي الله المدينة كانوا من أبخس الناس كيلاً فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فأحسنوا الكيل بعد ذلك ، وقيل : كان أهل المدينة تجاراً يطففون وكانت بياعاتهم المنابذة والملامسة والمخاطرة فنزلت هذه الآية ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقرأها عليهم ، وقال : « خمس بخمس ، قيل يارسول الله ، وماخمس بخمس ؟ قال مانقض قوم العهد إلا سلط الله عليهم عدوهم ، وماحكموا بغير ماأنزل الله إلا فشا فيهم الفقر ، وماظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت ، ولاطففوا الكيل إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين ، ولامنعوا الزكاة إلا حبس عنهم المطر » ٠ (الرازي – التفسير الكبير – ج ٣١ ص ٨٧ ، ٨٨) ٠

ارتبط حديث الرازي عن الكون بحديثه عن العبودية ، فآيات الله في الآفاق وفي الأنفس دليل على عظمة الخالق وتفرده بالخلق والإيجاد وتفرده بالربوبية والعبودية ، فكلما دقق الإنسان النظر في هذه الآيات الكونية وأعمل فكره فيهــــا قاده ذلك إلى الإيمان العميق والقناعة التامة بأن وراء هذا الكون الرحيب العجيب إلهاً عظيماً قادراً ، فهو أثر من آثار قدرة الله التي لا حد لها ولانهاية . وفي النقاط التالية شيء من التفصيل عما أورده عن علاقة الإنسان بالكون :

آيات الآفاق وآيات الأنفس ودلالتها على التوحيد :

دلائل التوحيد تنحصر في أمرين : الأمر الأول دلائل الآفاق ، والأمر الثاني دلائل الأنفس .

الأمر الأول : دلائل الآفاق :

وهي أجل وأعظم شأناً من دلائل الأنفس ، ولذلك قال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ ﴾ غافر ٥٧ .

فدلالة السماوات والأرض أعجب وشواهدها أعظم ، ولذلك أمر الله بالتفكر في خلق السماوات والأرض في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ . الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ آل عمران ١٩٠ ، ١٩١ .

وكيف لايكون هذا الكون الكبير دليلاً على عظمة الخالق ، وكل ذرة من ذراته تدل على قدرته وحكمته ، فكل شيء فيه – سواء كان كبيراً أم صغيراً – دليل على

الخالق المبدع • ويضرب الرازي مثلاً لذلك بورقة الشجرة : ففي وسط الورقة عرق واحد ممتد ثم يتفرع من ذلك العرق عروق كثيرة ثم يتفرع منها كذلك عروق دقيقة وتستمر التفريعات حتى تصير في غاية الدقة بحيث لايراها البصر • ولله في خلق هذه الورقة أسرار عجيبة وحكم بالغة ، فجعل في تلك الورقة قوى تمتص الغذاء من أعماق الأرض ويجري الغذاء في عروقها ويتوزع في كل أجزائها ، وكل ذلك بتقدير العزيز العليم • والإنسان بفكره وعقله المحدود لايستطيع أن يحيط بكل مافي هذه الورقة من دقائق وأسرار مع كونها جزءاً صغيراً وبسيطاً للغاية بالنسبة لهذا الكون الكبير ، فإذا كانت هذه الورقة دليلاً على عظمة الخالق جل جلاله ، فكيف إذا فكر الإنسان وتأمل فيما هو أكبر ، مثل السماوات ومافيها من شمس وقمر ونجوم ، والأرض ومافيها من بحار وجبال ومعادن ونبات وحيوان وغير ذلك ، إنه لخلق عظيم يدرك الإنسان من خلاله أن فكره قاصر عن الإحاطة به ، فإذا عرف من نفسه هذا القصور وهذه الطاقة المحدودة لديه لم يبق أمامه إلا الاعتراف والتسليم بأن الخالق لهذه الآيات الكونية أعظم وأكبر من أن تحيط به العقول أو تدركه الأبصار أو يحيط به وصف الواصفين وحينئذ يسلم بعظمة الله وقدرته فيشتغل بعبادته فلايفتر لسانه عن التسبيح والتهليل والتحميد والدعاء • ويؤكد الرازي على أهمية التفكير ، لأن التفكير في الآيات الكونية يعد - في حد ذاته - عبادة ، ويؤيد ذلك بأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومنها : قوله صلى الله عليه وسلم : «« بينما رجل مستلق على فراشه إذ رفع رأسه فنظر إلى النجوم وإلى السماء وقال : أشهد أن لك رباً وخالقاً ، اللهم اغفر لي فنظر الله إليه فغفر له »» •

وقال عليه الصلاة والسلام : «« لاعبادة كالتفكر »» •

وقيل : الفكرة تذهب الغفلة وتجلب للقلب الخشية كما ينبت الماء الزرع •
(الرازي - التفسير الكبير - ج ٩ ص ١٣٧ - ١٣٨) •

وللبحث في الكون فوائد أخرى تعود على الإنسان بالنفع في حياته الدنيا •

فإذا كان الهدف الأول - عند الرازي - من التفكير في الكون هو معرفة الله وادراك عظمته وقدرته التي تتجلى في مخلوقاته ، فإنه يرى أن هناك فوائد يجنيها الإنسان في معاشه من جراء بحثه في هذا الكون ، فالله تعالى قد سخره له ليقوم بالعمل والبحث والتنقيب ليكون على علم بمعرفة الأفلاك وحركتها ومقاديرها ، والشمس ، والقمر ، والكواكب المختلفة ، فلكل واحد منها منافع وفوائد وكذلك النظر في أحوال الأرض ومافيها من العناصر المختلفة ذات المنافع المتعددة مثل المعادن وأنواعها ، والنبات وأنواعه ، والحيوان وأحواله ، ومايتفرع عن تلك الأجناس من أقسام وأنواع لاحصر لها . فنظر الإنسان في كل ذلك يعود عليه بالخير الكثير في الدنيا والآخرة ، وهو عندما يقوم بالنظر والبحث فإنما يمتثل أمر الله القائل : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يونس ١٠١ ، و يذكر الرازي أن الله تعالى لم يذكر التفاصيل في هذه الآية ، بل نبه فيها على القاعدة الكلية تاركاً للعقل البشري المجال لينظر في الأقسام والتفاصيل ، وحينئذ يظهر له - كلما تفكر وتدبر - حكمة جديدة من حكم الله التي لانهاية لها . لكن الناس - في نظر الرازي - يختلفون في الوصول إلى تلك الحكم بحسب القوة العقلية ، فالتفكر والنظر والتأمل لايستفيد منه إلا المؤمنون ، فلاعجب إذا لم يستفد غير المؤمنين من هذه الدلائل والآيات ، فالله قد أخبر عنهم بقوله تعالى: ﴿وَمَاتُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَايُؤْمِنُونَ ﴾ يونس ١٠١ .(الرازي - التفسير الكبير - ج ١٧ ص ١٦٩ - ١٧٠) .

بعض الظواهر والتغيرات الكونية :

أوضح الرازي - بشيء من التفصيل - بعض الظواهر والتغيرات التي تحدث في الكون وهي تدل على توحيد الله ووحدانيته وكمال علمه وقدرته ورحمته ، وهي قسمان :

القسم الأول : الأفلاك : وللأفلاك مقادير معينة ، وبعضها فوق بعض ، ولها أحوال في حركتها ؛ فمنها ماهو بطيء في حركته ، ومنها ماهو سريع الحركة ، وتختلف - أيضا - في اتجاهاتها • ويستدل بمقادير الأفلاك وأحوالها وحركاتها على وجود الخالق ؛ لأنه لايمكن حدوث تلك الأحوال بدون تقدير العزيز العليم •

القسم الثاني : الأجرام الكوكبية ، وهي - أيضاً - دليل على وجود الخالق الحكيم ، فتارة يستدل بمقاديرها وأحيازها وحركاتها ، وتارة بألوانها وأضوائها ،

وتارة بما ينتج عنها من ظواهر كحصول الضوء ، والظلال ، والظلام ، والنور وغير ذلك • وهناك العناصر الأرضية ، وهي عناصر تحتوي على دلائل وعجائب تدل على وجود الخالق الذي أتقن كل شيء •

والأرض عبارة عن البر والبحر ومنهما تحدث الكثير من الظواهر والتغيرات العجيبة ، وهي - في معظمها - مسخرة لمصلحة الإنسان ، وتلك الظواهر إما علوية كالسحاب والبرق والرعد والمطر والثلج والهواء وقوس قزح وإما سفلية وهي : المعادن على اختلاف أنواعها وطبائعها وصفاتها وكيفياتها والنبات وماينتج عنه من الخشب والورق والثمر ، واختصاص كل واحد منها بصفة خاصة ولون خاص وطعم خاص ، والحيوانات وماتتميز به من اختلاف في أحوالها وأشكالها وطبائعها وأصواتها وخلقتها •

فالدلائل والمنافع التي اشتملت عليها هذه الآيات الكونية براهين قاطعة على وجود الخالق المتفرد بالخلق والإيجاد ، فمن تدبر وتفكر فيها عرف أنه الواحد الأحد الفرد الصمد لامعبود بحق سواه • (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٨ ص ٢٢٣ - ٢٢٤) •

استحضار عظمة الله عند التكبير :

يوجـه الرازي إلى اسـتحضار عظمـة الله في الصلاة ، فعندما يقول المصلي «« الله أكبر »» فإنه يشعر بكبرياء الله فهو أكبر مما يصل إلى ذهنه ومالايصل إليه من هذا الكون العظيم ومايشتمل عليه من مخلوقات عجيبة وأسرار وحكم ظاهرة وخفية ، فعندما يقول المصلي في صلاته الله أكبر فليستحضر في نيته ماأمكنه استحضاره من معرفة آيات الأنفس والآفاق ، فليبدأ بنفسه ليدرك آثار حكمة الله في تخليق نفسه وبدنه وقواه العقلية والحسية والحركية ، ثم يتعدى ذلك إلى آثار حكمة الله في خلق جميع الناس وجميع الحيوانات ، ثم يتجاوز ذلك إلى آيات الآفاق التي هي أكبر من آيات الأنفس ، فيرى آثار حكمة الله في خلق الأرض والجبال والمفاوز والبحار والنبات والمعادن ، ومايحدث من ظواهر في أنحاء الأرض مثل السحاب والبرق والرعد والصواعق والعواصف وغير ذلك ثم يتجاوز ذلك إلى ما هو أعظم فيستحضر آثار قدرة الله تعالى في خلق أطباق السماوات وسعتها وعظمتها ومافيها من الأجرام السيارة والثابتة والمنيرة ، ثم يتجاوز ذلك إلى ماهو أعظم فيستحضر آثار قدرة الله في خلق الكرسي وسدرة المنتهى ، ثم ينتهي إلى ما هو أعظم وهو العرش العظيم المحيط بكل الموجودات ٠ فلايزال فكر الإنسان وعقله وفهمه يتجول بين هذه المخلوقات العظيمة على تفاوت درجاتها وتباين منازلها ومراتبها ويقول الله أكبر مشيراً بذلك إلى الموجود الأعظم الذي خلق هذه الأشياء وأوجدها من العدم ، وجعلها بهذا النظام وهذا الترتيب المتقن العجيب فالله أكبر أي أنه لايشبه في كبريائه وجبروته وعزته وعلوه وصمديته هذه الأشياء ، فالله أكبر من كل شيء ٠ (الرازي - التفسير الكبير ج ١٥ - ص ٧٠ - ٧١) ٠

الأمر الثاني : دلائل الأنفس :

لقد أنكر الله على أولئك الذين لايتفكرون في أنفسهم بقوله تعالى : ﴿ أَوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ ﴾ الروم ٨ ؛ لأن عدم تفكير الإنسان في نفسه وفي خلقه يدل على غفلته وذهوله عن أقرب آية دالة على توحيد الله ، فلو فكر الإنسان في نفسه لعلم الشيء الكثير من قدرة الله وعجيب صنعه ، فالله سبحانه وتعالى خلق الإنسان في أحسن تقويم وركبه من أجزاء لاحصر لها ، منها الواضح الجلي ومنها الدقيق الخفي ، فأنظر – مثلاً – إلى المعدة ، فالله خلقها ليتم فيها هضم مايتناوله الإنسان من الغذاء ، ثم يتسرب المفيد منه بعد الهضم إلى أعضائه فتتقوى بذلك • وجعل للمعدة منفذين ، أحدهما لدخول الطعام والآخر لخروجه ، فإذا دخل الطعام إلى المعدة انطبق منفذ الإخراج فلايخرج شيء من الطعام حتى يتم هضمه • ويوجد تحت المعدة عروق دقاق قوية تمتص الطعام الصالح وتصفيه ، ثم ينزل منها بعد تصفيته وتنقيته إلى الكبد ، أما الطعام الثقيل الذي لايصلح أولا يمكن امتصاصه فينصب إلى معي مستقيم تحت المعدة ، ومنه يتم اخراج الطعام غير الصالح مع منفذ الاخراج •

أما الكبد فتقوم بعملية هضم أخرى لانضاج ماوصل إليها عبر العروق المذكورة ، علماً بأن الغذاء المتوجه إلى الكبد من خلال تلك العروق يكون مصحوباً ببعض الماء من أجل ترقيقه ودفعه في العروق الدقاق ، والدم المندفع عبر هذه العروق مصحوب بالصفراء والسوداء والماء ، وفي مقابل ذلك ثلاثة أجهزة هي المرارة ، والطحال ، والكلية ، فالمرارة تجذب الصفراء ، والطحال تجذب السوداء ، والكلية تجذب الماء ، ويبقى بعد ذلك الدم الصالح للبدن •

وفي الكبد يستغني الغذاء الواصل إليها عن الماء فينفصل الماء وينصب من جانب حدبة الكبد إلى الكلية ومعه قليل من الدم تتغذى به الكلية وبعض الأجزاء الأخرى • أما الدم الخالص من الكبد فيتجه في عرق كبير ويتفرع منه في عروق أدق ،

ومنها يتفرع في عروق أكثر دقة ومنها يصل إلى جميع البدن وهكذا تتم عملية الغذاء في الإنسان ، وماذكر هنا يعد جزءاً مما يوجد أو يحدث في جسم الإنسان ، لكنه كاف للدلالة على معرفة كون الله فاعلاً مختاراً قادراً واحداً منزهاً عن الند والشـــريك .
(الرازي - التفسير الكبير - ج٢٥ - ص٩٦ ، تج ٢٠ ص ٦٦) .

إن الرازي وهو يتحدث عن عملية الهضم إنما يتحدث عن ذلك من واقع خبرته وتجربته كطبيب ، **لكن الهدف - عنده - ليس عملية الهضم** في حد ذاتها وإنما جَعَلَهَا وسيلة لإيضاح قدرة الخالق وبيان عظيم صنعه في هذا الكائن البشري الذي **يعد آية من آيات الله العظام والدالة على توحيده ، لذا** وجب على الإنسان أن يلتفت إلى نفسه ليعرف قدرة خالقه وربه فيوحده ، ويشكره ويحمده على هذه النعمة العظيمة .

نماذج من عجائب قدرة الله في هذا الكون :

بعد أن تكلم الرازي في النقاط السابقة عن دائل التوحيد في هذا الكون على على سبيل الاجمال خص بعض النماذج وأفاض في الحديث عنها ؛ لأن لها مساساً بحياة الإنسان أكثر من غيرها ، فهي أقرب إلى فكره وتأمله لكونها تتصل بغذائه الذي به قوام حياته منذ الولادة حتى الممات .

ومن تلك النماذج : الأشجار والمزروعات وأنواعها وماتمر به من أطوار خلال نموها حتى يتم جني الثمار . ومنها اللبن وكيفية حدوثه في الثدي حتي يصبح لبناً سائغاً يمتصه الطفل . ومنها العسل والكيفية التي يحصل بها من النحل حتى يصبح عسلاً فيه شفاء للناس .

إنه لمن السهل على الإنسان أن يتأمل ويتفكر في نعم الله التي لاتنفك عنه بأي حال ولايستغني عنها بأي حال ؛ فعندما يتناول الطعام يفكر كيف وصل إليه هذا

الطعام وماهي المراحل التي مر بها حتى أصبح لقمة سائغة يتناولها ، ويفكر فيمن هيأ الأسباب التي ساعدت على وصول ذلك إليه سواء كان طعاماً أو شراباً ؛ فالتفكير في هذه الأشياء يؤدي به إلى الاعتراف بالخالق الرازق فيؤمن به ويعبده ويحمده ويشكـره ·

وفيما يلي بعض من تلك النماذج :

أولاً : في النبات والثمار :

انطلق الرازي في فكرته عن النبات من قوله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ﴾ الأنعام ٩٥ · فاستهل ذلك بالبذرة التي تقع أو توضع في الأرض ، فإن البذرة أو النواة إذا وقعت في الأرض الرطبة ، فإنها تمكث مدة مقدرة من الزمن ثم – بقدرة الله – تنشق من أعلاها ومن أسفلها ، ومن الشق الأعلى تخرج شجرة على ظهر الأرض ، ومن الشق الأسفل تخرج شجرة تهبط في باطن الأرض وهي العروق التي تمتص الغذاء لتزود به الشجرة الصاعدة فوق الأرض ·

ويرى الرازي أن في ذلك مايدعو إلى العجب ؛ فالعقل والحس يدل على أن طبيعة الشجرتين الصاعدة والهابطة متضادتان مع حاجة كل منهما إلى الأخرى ، فإذا كانت الشجرة الهابطة في عمق الأرض تقتضي النزول في داخلها فكيف تولدت منها الشجرة الصاعدة على ظهر الأرض ؟ وإذا كانت الصاعدة فوق الأرض تقتضي الصعود فكيف تولدت منها الشجرة النازلة في جوف الأرض ، فطبيعة كل من الشجرتين متضادة مع طبيعة الأخرى ، فهذا يدل على أن حدوث هذا الأمر لايعتمد على الطبع والخاصية ، وإنما يحدث بإيجاد الله وابداعه وتكوينه،وهناك أمر آخر أشد عجباً وهو أن باطن الأرض شديد الصلابة بحيث لاتنفذ فيه الأشياء الصلبة الحادة كالمسلة القوية والسكين الحاد القوي بينما عروق الشجرة الطرية الضعيفة المتناهية في اللطافة والدقة تنفذ في تلك الأرض الصلبة وتغوص فيها إلى مسافات بعيدة ، فماذلك إلا بتقدير العزيز الحكيم ·

ويحصل في الشجرة أشياء متعددة مختلفة الصفات والطبائع والمنافع ؛ فساقها تعلوه القشرة ، وتحت القشرة الخشبة الصلبة ، وداخل الخشبة جسم رخو ضعيف ، ويتفرع من ساق الشجرة أغصانها ، ومن الأغصان تتولد الأوراق ، وتخرج من الأوراق الأزهار ثم الأنوار ، ثم الفاكهة ٠ والفاكهة قد يحصل منها أربعة أنواع ، مثال ذلك ، الجوز فالقشر الأعلى لثمرته أخضر وتحته قشر يشبه الخشب ، وتحت ذلك قشر رقيق ، ويكون تحت ذلك اللب ، واللب يحتوي على جسم كثيف يشبه القشر ويحتوى أيضاً على جسم لطيف وهو الدهن ، وهذا الدهن هو الجزء المفيد في ثمرة الجوز ٠

إن اختلاف هذه الأجسام في طبيعتها وصفاتها وألوانها وأحجامها وطعمها بينما التأثيرات الواصلة إليها من النجوم والفصول الأربعة وغير ذلك من الظواهر متساوية ، يدل على أن تلك الاختلافات لم تحدث بتدبير الطبيعة وإنما حدثت بتدبير الحكيم الرحيم القادر المختار جلت قدرته ، وإذا نظرت إلى الفاكهة الواحدة وجدت فيها أيضاً الخواص الأربع المذكورة فالعنب - مثلاً - قشره وعجمه بارد يابس ، واللب والماء حار رطب ، فهذه الطبائع والخواص المتنافرة في الحبة الواحدة أو الفاكهة الواحدة لايتصورالعقل أنها وجدت إلا بإيجاد الفاعل المختار الخلاق العليم ٠

ثم انظر إلى أحوال الفواكه المتعددة ؛ ففي الجوز واللوز تجد اللب في الداخل والقشر في الخارج ، وفي الخوخ والمشمش تكون النواة في الداخل والفاكهة فوق النواة ، ومن الفواكه مايكون لها لب في داخل النواة كالمشمش والخوخ ، ومنها ماليس لها لب كنواة التمر ، ومن الفواكه ماليس لها قشر ولانوى بل تؤكل جميعها مثل التين ٠

وإذا نظرت في الحبوب وأشكالها وصورها وجدت الحنطة على شكل نصف دائرة وحبة الشعير على شكل مخروطين متصلين بقاعدتيهما ، وحبة العدس على شكل دائرة ، فهذه الصفات والخواص والأشكال سواء كانت في الفواكه أو في الحبوب لابد أن تكون لأسرار وحكم يعلمها الخالق ، فلو لم يجعلها بتلك الصفات وذلك التركيب لاختلت ولم تحصل منها الفائدة ٠

وإذا أعاد الإنسان النظر في كل نوع من هذه الأنواع وجد أن الخالق - جلت قدرته - قد جعل في كل نوع من هذه الأنواع خاصية ، فقد تكون الثمرة الواحدة غذاء لحيوان وسماً لحيوان آخر مع أن تأثيرات الكواكب والفصول بالنسبة للجميع واحدة ، فما ذلك إلا لحكمة اقتضتها مشيئة الخلاق العليم .

ثم انتقل من ذلك كله إلى الأوراق فخذ ورقة واحدة من أوراق الشجرة وانظر فيها وتأملها ، فإنك واجد في وسطها خطاً هو بالنسبة لها كالنخاع بالنسبة لبدن الإنسان ، فإن نخاع الإنسان ينفصل منه أعصاب كثيرة في بدنه يمنة ويسرة ولا تزال تتفرع منها شعب تكون أدق وهكذا حتى تصبح في غاية الدقة بحيث لا يدركها البصر ، وفي ورقة الشجرة يحدث مثل ذلك ، والله - سبحانه - إنما جعل تلك الورقة على تلك الهيئة لتكون قادرة على امتصاص وجذب الأجزاء اللطيفة اللازمة لغذائها من خلال تلك الشعب الدقيقة الضيقة وهذا دليل على عناية الخالق في إيجاد تلك الورقة . وإذا عرفت هذا فاعلم أن عنايته في الشجرة أكمل ، وإذا عرفت هذا فاعلم أن عنايته في تكوين جميع النبات أكمل .

ويزيد الرازي الأمر إيضاحاً فيختار أربعة أنواع من أشجار الفاكهة وهي المذكورة في قوله تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ الانعام ٩٩ .

ويبين الرازي من خلال هذه الآية السبب في تقديم بعض تلك الأنواع على بعضها ، فيرى أن تقديم الزرع الذي يخرج منه الحب على أشجار الفاكهة لأنه غذاء ، والغذاء أهم من الفاكهة ، فالإنسان أحوج إلى الغذاء منه إلى الفاكهة ، وذُكر النخل قبل غيره لأنه عند العرب بمثابة الغذاء فهم يستخدمونه غذاء ، وذُكر العنب بعد ذلك لأنه أشـــــرف أنواع الفواكه حيث ينتفع به منذ بداية نموه ، ويدخل في كثير من أنواع

الطبـخ ، وهو مفيد للأصحاء والمرضى ويتخذ منه شراب لذيذ المذاق نافع للمصابين بالصفراء • وإذا نضج العنب صار ألذ الفواكه وأشهاها ، ويمكن ادخاره لأكثر من سنة ، ويدخر منه الزبيب ويستخلص منه الدبس والخل • ويستخدم الأطباء عجم العنب للمعدة الضعيفة فهو عظيم النفع لها ، وللعنب منافع كثيرة غير ماذكر ، ولذلك يأتي على رأس الفواكه لأنه أعظمها نفعاً وأعمها فائدة •

أما الزيتون فهو كبير النفع أيضاً ، لأنه يُتناول كما هو على حاله ، ويستخلص منه دهن كثير يستخدم في كثير من وجوه الاستعمال •

والرمان له فوائد جمة ، فهو يشتمل على أربعة أنواع : قشر ، وشحم وعجم ، وماء ، فالثلاثة الأولى قابضة ، وماؤه بعكسها فهو ملين ، وشرابه ألذ الأشربة وألطفها ، ويستخدم كغذاء ودواء •

وفي قوله تعالى : ﴿ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ ﴾ بيان لأوجه التشابه والاختلاف بين أشجار الفواكه وثمارها فتجد أشجارها قريبة الشبه من بعضها ، وتجد الأوراق متشابهة ، بينما تجد الثمار مختلفة في الشكل والطعم ، بل قد تكون الفاكهة الواحدة متشابهة وغير متشابهة ، مثال ذلك : عنقود العنب فإنك تجد أكثر حباته ناضجة حلوة ، وتجد بعضها لاتزال كما كانت في بدايتها خضراء حامضة،كما تجد اختلافاً في لون حبات العنقود •

أما قوله تعالى : ﴿ انْظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ فهو أمر بالنظر والتأمل في الثمرة عند بداية حدوثها ، وأمر كذلك بالنظر فيها بعد نضجها وتمامها ؛ لأن لها صفات مخصوصة في أول أثمارها ، وبعد نضجها تكون لها صفات مختلفة ؛ ففي البداية تكون الثمرة خضراء أو سوداء أو حمراء وتكون حامضة المذاق ، وبعد النضج يتغير لونها وطعمها • وعند التدبر في تلك التغيرات يتضح أن تأثيرات الطبائع والفصول والأنجم والأفلاك متساوية متشابهة بالنسبة لجميع الأحوال التي مرت بها تلك الثمار ، فلايمكن أن تكون هي التي فعلت تلك التغيرات ، وإنما الفاعل والمدبر

لذلك هو الله سبحانه فهو المدبر لهذا العالم وفق ماتقتضيه حكمته • (الرازي – التفسير الكبير – ج ١٣ ص ٩٠ – ١١١ ، ج ١٩ ص ٦ – ٧) •

يلاحظ هنا أن الرازي ينفي تأثير الظواهر الطبيعية ، مثل الفصول الأربعة ، والكواكب كالشمس وغيرها ، فهو يرى أنه لاأثر لها على النباتات والمزروعات والثمار ، وهو يريد أن يسند الفعل والتأثير في ذلك إلى الله سبحانه وتعالى ، وهذا صحيح فكل شيء يحدث إنما يحدث بتدبير الله وتقديره ، لكن الأفضل أن يقال إن تلك الظواهر من شمس وقمر وهواء ومطر واختلاف الفصول الأربعة قد جعلها الله أسباباً لاحداث تلك التغيرات والتأثيرات في المزروعات والثمار والفواكه وغيرها ، فلو حجب الزرع عن الشمس لما نما ، ولو منع عنه الماء لمات ، وكذلك الفصول لها تأثيرها بإذن الله ، فهناك مزروعات ومحاصيل تصلح في فصل دون آخر ، فمعظم الفواكه لاتنتج إلا في الصيف ، وهناك محاصيل وفواكه تصلح في أرض دون أخرى ، وكذلك الجو الحار يناسب فواكه دون أخرى والجو البارد والمعتدل كذلك • إذن فالله تعالى قد هيأ الأسباب وأمر الإنسان باستخدامها حسب ماتقتضيه مصلحته وهذا لايتعارض مع كون الله هو الخالق المدبر الحكيم المختار الفعال لما يريد •

ثانياً : حدوث اللبن في الثدي :

ذكر الرازي لحدوث اللبن في الثدي أسراراً وحكماً بديعة يمكن إيرادها فيما يلي :

١ – ينصب جزء كبير من الدم إلى الرحم أثناء وجود الجنين فيه ليكون غذاء للجنين؛ فنموه ونمو أعضائه المختلفة وزيادة حجمه وتكامل جسمه يتوقف على ذلك الغذاء •

٢ - يعد خروج الجنين من الرحم ينصب الدم عبر عروق تصل الكبد بالثدي ٠ والثدي عبارة عن غدة لحمية لينة بيضاء أودع الله فيها خاصية تُحوِّل الدم الواصل إليها إلى لبن أبيض ليكون غذاء مستساغاً للطفل ٠

٣ - إذا كبر الطفل واستغنى عن لبن أمه توقف الدم عن الانصباب إلى الثدي ، لأنه - بحكمة الله وتدبيره - لاينصب إلى الرحم إلا لحاجة الجنين ، ولاينصب إلى الثدي إلا لحاجة الطفل ، وعند انتهاء هذه الحاجة يعود دماً كما كان ليتغذى به بدن الأم ٠

٤ - توجد ثقوب ومسام ضيقة في حلمة الثدي ، والحكمة من وجودها لتكون مصفاة للبن ، فيخرج منها عند مص الطفل له وهو في غاية الصفاء واللطافة ، وتبقى الأجزاء الكثيفة فلاتسمح لها تلك المسام الضيقة بالخروج ، ومن جراء ذلك يكون اللبن خالصاً سائغاً لبدن المولود ٠

٥ - اللبن - سواء كان لبن المرأة أو لبن الحيوان - يتكون من الدم الذى يتكون - في الأصل - من العشب والماء بالنسبة للحيوان ، ومن الغذاء والماء بالنسبة للمرأة ٠ وينتج من لبن الحيوان الدهن والجبن ، مع أن الخواص الموجودة في اللبن والدهن والجبن ليست موجودة في العشب الذي يتناوله الحيوان ، فظهر أن هذه الأنواع الثلاثة لاتزال تتحول من صفة إلى صفة ومن حالة إلى حالة ، على أن بعضها لايشابه بعضاً ولايشاكله ، فظهر بذلك أن هذه الخواص والصفات إنما تحدث بتدبير الحكيم الرحيم الذي يدبر أحوال هذا العالم لتكون مناسبة وموافقة لمصالح العباد ٠

٦- ثبت بالحس والتجربة أن المراد من قوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِيْنَ ﴾ النحل٦٦ أن اللبن يتولد من الدم والدم يتولد من الغذاء وهو الفرث الموجود في الكرش ، فبإرادة الله يتكون اللبن من بين أجزاء الفرث أولاً ثم من الدم ثانياً، ثم جعل الله في ثدي المرأة وضرع الحيوان الخواص التي تحوله إلى لبن سائغ للإنسان ومناسب لبدنه .(الرازي - التفسير الكبير- ج٢٠ ص ٦٤ -٦٧) .

ثالثا : النحل والعسل :

والنحل - أيضا - فيه حكم وأسرار عجيبة تظهر في النظام الذي يسير عليه سواء في طريقة سكنه وبنائه البيوت التي يضع فيها العسل أو في خروجه جماعات بنظام معين أثناء تنقله من مكان إلى آخر أو في عودته إلى سكنه ، كل هذا النظام المحكم الذي يعجز الناس عن القيام بمثله يدل على أن الله قد أودع في النحل قدرة وغرائز وإلهامات ترشده إلى القيام بهذه الأعمال المنظمة المتقنة . فالنحل آية من آيات الله العجيبة في هذا الكون ، كما قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَىٰ النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتاً وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ النحل ٦٨ ، ٦٩ .

يبدو من شرح الرازي لهذه الآية الكريمة أنه قام بملاحظة ومتابعة النحل ليقف على نظامها الذي تسير عليه وليعرف الكيفية التي تجمع بها العسل وطريقتها في بناء بيوت العسل بشكل هندسي بديع ، يتضح ذلك فيما يلي :

١- تبني النحل بيوت العسل على هيئة شكل سداسي متساوي الأضلاع بدقة متناهية ، فلايزيد أحد الأضلاع على الآخر ، وهذه العملية الهندسية لايستطيع الإنسان القيام بها إلا بآلات وأدوات معينة مثل المسطرة والفرجار .

٢ - لو عُملت تلك البيوت المسدسة الشكل بطريقة هندسية أخرى سوى المسدسات لبقي بينها فراغات وفرج فتبقى غير محكمة ، أما بناؤها بالشكل المذكور فهو في غاية الإحكام ولن يقوم أي شكل آخر مقامه ، فاهتداء النحل إلى هذه الطريقة يدل على حكمة الله البالغة في هذا العمل العجيب لهذا الحيوان الضعيف ، فسبحان من هداه إلى ذلك •

٣ - النحل لاتنفذ أعمالها بطريقة عشوائية بل لها رئيس يحكمها وتنفذ أوامره ، وحاكمها يفوقها حجماً فهو أكبرها جثة • ويقوم النحل بخدمة الرئيس وتحمله عند الطيران ، ولا شك أن هذا أمر عجيب يدل على حكمة الله وتدبيره •

٤ - تخرج النحل من سكنها مجتمعة بنظام وترتيب معين ، وعندما تريد العودة إلى سكنها فإنها تبعث أصواتاً تشبه صوت الطنبور وآلات المسيقى لترشد بعضها إلى أنه قد حان وقت الرحيل والعودة إلى السكن ، وهذه - أيضاً - حالة عجيبة لم تحدث إلا بالهام الله لها ، كما قال تعالى : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل ﴾ •

٥ - تتغذى النحل على الطل الذي ينزل في الليل على الأوراق والأزهار، ويعرف هذا الطل بـ« الترنجبين » وهو طل ينزل من الهواء ويجتمع على أطراف الزهور والأوراق في بعض البلدان وهو قريب في شكله وطعمه من العسل ، فإذا شبعت النحل من هذا الطل عادت حاملة منه ماتدخره في البيوت التي بنتها لذلك ،

وبهذه الطريقة يتكون العسل المعروف ، فمعنى ﴿ يخرج من بطونها ﴾ أي من أفواهها لأن كل تجويف في داخل البدن يسمى بطناً • ويستدل الرازي على صحة رأيه هذا بأن العسل نفسه غذاء للنحل ، والناس يتركون بعضه في المنحل ليكون غذاءً لها • ويرى أن النحل لاتتغذى على رحيق الأزهار بل تتغذى بأجزاء الطل الذي يشبه العسل ، ثم تحمل منه الباقي لتجمع منه العسل فيتكون من ذلك العسل المعروف •

وبناء على هذا فالعسل لايخرج من بطون النحل ٠

ويبدو أن رأي الرازي هذا مخالف لظاهر الآية ؛ لأن لفظها صريح في أن العسل يخرج من بطون النحل ، وليس هناك قرينة تصرف اللفظ عن ظاهره ، وكذلك الواقع يخالف ماذهب إليه الرازي ؛ ففى العصر الحديث أهتم الناس بتربية النحل ومتابعتها من قبل الخبراء والمهندسين الزراعيين بالطرق العلمية الحديثة ولم يقل أحد بما قال به الرازي ٠

٦- العسل عظيم النفع سواء في الغذاء أو الدواء والعسل فيه شفاء للناس ، لكنه شفاء للبعض وليس لكل الناس ولا لكل الأدواء بل من بعضها ٠

ويدخل العسل في كثير من المعاجين وفي الكثير من الأشربة ، وقد ختم الله تعالى الأية بقوله : ﴿ إن في ذلك لأية لقوم يتفكرون ﴾ ليلفت إلى أنه لايستفيد من هذه العلوم الدقيقة والحكم العجيبة التي تظهر في النحل وماتقوم به من عمل محكم وماتنتجه من عسل فيه شفاء إلا أولئك الذين يفكرون ويستخدمون عقولهم فيدركون أن الله حكيم خبير رحيم خلق النحل وسخره من أجل عباده ٠ (الرازي - التفسير ج ٢٠ ص ٦٩ - ٧٣) ٠

يتضح أن الرازي لايرى أن العسل علاج لكل داء بل علاج لبعض الأمراض دون بعضها ، فقوله تعالى : ﴿ فيه شفاء ﴾ يختلف عن القول : فيه الشفاء ؛ لأن شفاء نكرة تدل على أنه ليس شفاء لكل الأمراض ، أما كلمة الشفاء فمعناها الشفاء الكامل من كل داء ٠ والاطباء في العصر الحديث يمنعون مرضى السكر من تناول العسل لأنه ثبت بالتجربة أنه لايشفى من هذا المرض بل يرفع درجة السكر في الدم بنسبة عالية ، وهناك خلاف بين العلماء في كون العسل علاجاً لكل الأمراض ؛ فمنهم من يرى أنه علاج من بعض الأمراض - كما يرى الرازي - ومنهم من يرى أنه دواء من كل داء فكلمة « شفاء » على هذا الرأي الأخير نكرة تقتضى العموم ٠ وقد ذكر

ذلك الخلاف القرطبي في تفسيره فقال (١٣٨٧هـ) «« اختلف العلماء في قوله تعالى : ﴿ فيه شفاء للناس ﴾ هل هو على عمومه أم لا ؟ فقالت طائفة : هو على العموم في كل حال ولكل أحد ... وقالت طائفة : إن ذلك على الخصوص ولايقتضى العموم في كل علة ، وفي كل إنسان . ومما يدل على أنه ليس على العموم أن «« شفاء »» نكرة في سياق الإثبات ، ولاعموم فيها باتفاق أهل اللسان ومحققي أهل العلم ومختلفي أهل الأصول»» ج ٩ ص ١٣٦ - ١٣٧ .

وهناك من يرى أن العسل عند خروجه من النحل يكون شفاء لكل داء ، لكنه يفقد خاصيته وكثيراً من فوائده بعد أن يتعرض للتسخين أو للرطوبة ، وهو في هذه الحالة يشبه الأدوية الأخرى المركبة التي تفقد قيمتها العلاجية إذا تجاوزت مدة صلاحيتها أو تعرضت لما يفسدها أو تعرضت للحرارة العالية أو الرطوبة المرتفعة ، والعسل كذلك إذا صادف ظروفاً غير ملائمة فإنه يفسد . (الخطيب - ١٤٠٤هـ - ص ٥٠ - ٥١) .

الأخذ بالقوانين والأسباب التي سنها الله في الكون :

وجه الرازي الإنسان إلى الأخذ بالأسباب التي أودعها الله في الكون ، وهي أسباب لاتستقيم حياته بدونها ؛ فالله سبحانه وتعالى جعل هذا الكون بنظام معين بحيث يسير وفق قانون لايتخلف .

وطالب الرازي الإنسان بأن يجد ويجتهد ويستخدم فكره للاستفادة من الأسباب والسنن الكونية ، وطالبه بأن يكون عابداً شاكراً حامداً لأنعم الله ، فعندما يأخذ بالأسباب وتتحقق له مطالبه فليعلم أن ذلك لم يحصل إلا بفضل الله الذي سخر هذا الكون لمصلحة البشر .

ويضرب الرازي مثالاً لذلك باللقمة التي يتناولها الإنسان : فعليه أن يفكر في المراحل التي مرت بها تلك اللقمة قبل أن تكون صالحة للتناول ، ثم ليفكر ماذا يحدث بعد تناولها ، فبالتأمل والتفكير يدرك أن تلك اللقمة من الخبز لاتتم إلا إذا كان هذا الكون قد أقيم بنظام على وجه الصواب : فلابد من الحنطة التي يصنع منها الخبز ، ولكي تنبت الحنطة فلابد من وجود الفصول الأربعة التي تتكرر كل عام ، ولابد من وجود سبب آخر وهو حصول الرياح والأمطار ، وهناك سبب آخر لابد من وجوده لكي تتحقق تلك الأسباب السابقة وهو دوران الأفلاك واتصال بعض الكواكب ببعضها بطريقة معينة وحركات مقدرة وكيفية مخصوصة تتعلق بالجهة والسرعة والبطء : فلو اختل شيء من هذا النظام أو هذا القانون الإلهي لما استقامت حياة البشر في هذا الكون : فالشمس – مثلا لها تأثيرها البالغ على الحياة ، فلو لم يجعلها الله بهذه الكيفية لهلك كل كائن حي ، فطلوعها على الكائنات أمر ضروري لاستمرار حياة الأحياء من إنسان وحيوان ونبات ، وكما أن شروقها ضروري فكذلك غروبها ضروري أيضاً ، ففي الليل يكون الهدوء والنوم ، فلذلك تأثيره على بدن الإنسان من حيث الهضم ونفاذ الغذاء إلى الأعضاء ، ولولا الغروب لارتفعت درجة الحرارة على الأرض ممايؤدي إلى احتراق كل ماعليها من إنسان وحيوان ونبات ، لكن رحمة الله وحكمته اقتضت أن تطلع الشمس مدة من الزمن لتحصل الفائدة بقدر معين ، وتغيب مدة من الزمن لتتم الفائدة أيضاً . وبهذا يتضح أن النهار والليل سببان هامان في استمرار الحياة على هذا الكوكب الأرضي .

وارتفاع الشمس في وقت وانخفاضها في وقت آخر يؤدي إلى حدوث الفصول الأربعـــة ، وهذا له أثره على الحياة ولاسيما حياة النبات وحصول الثمار : ففي الشتاء تنخفض الحرارة في الأشجار والنبات فيؤدي ذلك إلى تولد الثمار وتلطف الهواء وكثرة السحاب والأمطار ، وفيه تقوى الحرارة الغريزية في أبدان الحيوانات . وفي الربيع يطلع النبات وتورق الأشجار وتظهر الأزهار وتهيج الحيوانات وتميل للسفاد .

وفي الصيف تنضج الثمار ، وتتحل فضول الأبدان وتصح ، وتجف الأرض وينشط الناس للبناء والعمران • أما الخريف فهو فصل مناسب معتدل تنتقل فيه الأبدان بالتدريج شيئاً فشيئاً إلى الشتاء مرة أخرى ، فلو أن الانتقال تم دفعة واحدة لأدى ذلك إلى هلاك الأبدان ومرضها •

ويدعو الرازي الإنسان إلى أن يتأمل هذا ليدرك فضل الله عليه بما تحدثه هذه الشمس التي سخرها الله لمصلحته ، فلو كانت واقفة في موضع واحد لما حدث شيء من ذلك كله ولاستحالت الحياة على الأرض •

ولكي تتم الفائدة من وجود الحنطة فلابد من توافر أسباب أخرى يستخدمها الإنسان من أجل اتمام هذه العملية ، ولذلك وضع الله الحديد في الأرض وهو سبب رئيس يدخل في شتى الاستعمالات ، ومنها استخدامه في الطحن والخبز ، حيث تصنع منه الآلات الخاصة بذلك ، والحديد أيضاً لايمكن الاستفادة منه إلا بعد تصنيعه وتجهيزه بآلات أخرى سابقة قد أعدت لذلك ، وهي كذلك مصنوعة من الحديد ، وهكذا نجد أن الحديد نعمة عظيمة هيأها الله وسخرها وهدى الإنسان إلى معرفتها والقدرة على استخدامها ، وتصنيعها بالطرق المختلفة حسب احتياجاته لتجعل عيشه سهلاً ميسراً•

والإنسان بعد وجود الدقيق محتاج إلى أربعة أسباب حتى يتم طبخ الدقيق وهي : الأرض ، والماء ، والهواء ، والنار •

فهذه الأسباب المذكورة جميعها لابد من توافرها قبل وصول تلك اللقمة إلى فم الإنسان •

وهناك أسباب أخرى تتعلق ببدن الإنسان بحيث لو فقدت تلك الأسباب المتعلقة ببدنه لما استفاد من الأسباب السابقة ، فالله سبحانه خـــلق بدن الإنسان

بكيفية مخصوصة ليتمكن من الانتفاع من الطعام الذى به يتمكن من الحياة والبقاء ، فالطعام ينزل إلى المعدة فتحصل عملية الهضم الأولى ، ثم يتحول الصالح منه إلى الكبد فتتم عملية الهضم الثانية فيتحول إلى دم ، والدم في هذه الحالة مختلط بالصفراء والسوداء والماء ، فتذهب الصفراء إلى المرارة ، والسوداء إلى الطحال ، والماء إلى الكلية ومنها إلى المثانة ، أما الدم فيدخل إلى الأوردة المنبثقة من الكبد ، وهنا تحصل عملية الهضم الثالثة.والإنسان قد يحدث له أضرار بسبب الأكل ، فلابد له أن يعرف كيف يتخلص من الضرر ، ولذلك هيأ الله له أمراً آخر وهو الدواء ليكون سبباً لدفع الكثير من الأمراض ، لكن الإنسان لايتمكن من استخدام ذلك إلا بعد معرفته بعلم التشريح وعلم الطب ، وقد هيأ الله له ذلك أيضاً .

إذن فالانتفاع بتلك اللقمة الواحدة لايتم إلا بمعرفة تلك الأسباب السابقة لحصولها ، والأسباب اللاحقة بعد حصولها ؛ لذا وجب على الإنسان معرفتها والأخذ بها والتفكير فيمن أوجدها وييسرها وهو الله تعالى ، وليعلم - بعد ذلك - أنه لم يصل إلا إلى النزر اليسير مما أودعه الله في هذا الكون ، وأن العقول مهما بحثت ودققت البحث فإنها تبقى قاصرة عن ادراك واحصاء معظم النعم التي يحتوي عليها هذا الكون العظيم كما قال تعالى : ﴿ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ﴾ النحل ١٨ . (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢ ص ١٠٧ - ١٠٨ ، ج ١٩ ص ١٣٠ ، ج ٢٠ ص ٦٤-٦٥ ، ج ٢٩ ص ٢٤٢) .

الفصـــل الســـادس

المعرفـــــة

١ - أدواتهـــا .

الوحـــي - العقـــل - الحـــواس .

٢ - شـــروط المعرفـــــة .

المعرفـــــــــة :

ميز الله الإنسان بالعقل والذكاء والقدرة على التأمل والفهم والتذكر والتخيل وإدراك العلاقات بين الأشياء ، فعن طريق هذه المقومات يتمكن الإنسان من تكوين معارفه ، ولايكون إنسانا حقاً إلا بالمعرفة ، وقد مَنَّ الله عليه إذ خصه بهذه المقومات الأساسية لتساعده على تحصيل المعرفة واكتسابها ، ومَنَّ عليه إذ جعله خليفة وزوده بالمعرفة اللازمة للخلافة ؛ فعلم آدم الأسماء كلها ، قال تعالى : ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ . وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ، قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَالَاتَعْلَمُونَ . وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . قَالُوا سُبْحَانَكَ لَاعِلْمَ لَنَا إِلَّا مَاعَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَاآدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَاتُبْدُونَ وَمَاكُنْتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾ البقرة ٣٠ ، ٣١ ، ٣٢ ، ٣٣ .

ذكر الرازي في شرحه لهذه الأية أن الله تعالى بين فيها أفضيلة آدم على الملائكة بما آتاه من العلم ، وقد عرض ذلك عليهم ليُظهر كمال فضل آدم وقصور الملائكة عنه في العلم . (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢ ص ١٧٥) .

الفرق بين المعرفة والعلم :

يفرق بعض العلماء بين المعرفة والعلم من حيث التعريف . والبعض منهم يرى أنهما بمعنى واحد . والأرجح أن بينهما فرقاً ، فمفهوم المعرفة أشمل وأعم بينما مفهوم العلم أخص ، فالمعرفة تشتمل على معارف علمية ومعارف غير علمية ، أما إذا أصبحت

المعرفة حقائق صادقة وثابتة ومنظمة فيمكن وصفها بالعلمية ، وبناء على هذا يمكن تعريف المعرفة : «« بأنها مجموعة من المفاهيم والاتجاهات والمعتقدات والآراء والتصورات الفكرية التي تتكون لدى الفرد كنتيجة لخبراته في فهم الظواهر والأشياء المحيطة به ، ويمكن تعريف العلم : بأنه المعرفة المنظمة المصاغة بشكل قواعد وقوانين تم التوصل إليها بواسطة الأسلوب العلمي السليم • (حنان ، وغانم - ١٤٠٤هـ - ص ٣٩)•

وهذا التعريف لاينطبق على كل معرفة ، بل خاص بالمعرفة الإنسانية التي ينتجها عقل الإنسان ، وأغلبها يتعلق بالمعارف الكونية كدراسة ظواهر الكون والبحث فيها • أما المعرفة التي تحصل عن طريق الوحي من الله إلى الأنبياء فهي معرفة صادقة ثابتة يجب على الإنسان تصديقها والإيمان بها وعدم التردد إزاءها ؛ ولذلك يفرق الكندي بين نوعين من المعرفة •

النوع الأول :

العلم الإلهي : وهو العلم الذي خص الله به الأنبياء والرسل ، وهذا العلم لايحصل للإنسان عن طريق الطلب والبحث أو أعمال العقل بل بإرادة الله تعالى ووحيه إلى أنبيائه الذين اصطفاهم وطهر أنفسهم وزكاها وأنارها للحق •

النوع الثاني :

المعرفة الإنسانية : مثل الرياضيات ، والمنطق ، والطبيعة ، والأخلاق ، والسياسة، فهذه من تحصيل البشر ونتاج تفكيرهم على قدر طاقتهم ، وهي تدرك عن طريق الحس ، أو عن طريق الحس مقترناً بالعقل ، أو عن طريق العقل فقط ، وهي معرفة تقتضي من الإنسان الاجتهاد والبحث والطلب (نُقل بتصرف عن صابر طعيمة - بدون تاريخ - ص ١٩٥ - ١٩٦) •

أما عند الرازي فالعلم والمعرفة مترادفان ؛ ولذلك لايمكن تعريف العلم بالمعرفة ، فتعريفه بها تعريف للشيء بنفسه ، لكنه بعد أن ذكر أنهما بمعنى واحد عاد فذكر أن العلم يفيد معنى أدق من كلمة « معرفة » ، لأن « المعرفة عبارة عن حصول العلم بعد الالتباس ، ولهذا يقال ماكنت أعرف فلاناً والآن فقد عرفته » ولذلك فإن الله تعالى « يوصف بأنه عالم ولايوصف بأنه عارف لأن المعرفة تستدعي سبق الجهل وهو على الله محال (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢ ص ٢٠١) .

والمعرفة الإنسانية - عند الرازي - طريقان :

الطريق الأول : طريق الفكر والنظر والاستدلال .

والطريق الثاني : طريق الأخذ عن الأمم السابقة ماانتجته من معارف ، لكن الإنسان - في سلوكه لهذين الطريقين - محتاج إلى توفيق الله وهدايته لكي يحصل على المعرفة النافعة المفيدة التي تكمل بها النفس الإنسانية ، وللهداية في الطريق الأول أشار بقوله تعالى : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾ ، وللهداية في الطريق الثاني أشار بقوله ﴿ صِرَاطَ الَّذِيْنَ أَنْعَمْتَ عليهم ﴾ ، لأن محصولات الأمم السابقة من المعارف فيها الصحيح وفيها الفاسد ، فالذين أنعم الله عليهم هم الطائفة التي جمعت بين العقيدة الصحيحة والعمل الصائب ، فمن أخذ عنهم واقتدى بهم فقد هُدي إلى الصراط المستقيم .

والطائفة الأخرى هم أهل الجهل الذين سلكوا طريق الضلال فكانت عقائدهم فاسدة ومعرفتهم باطلة ، فمن سار على نهجهم وأخذ بعقيدتهم وطلب معرفتهم دخل في زمرة الضالين وزمرة المغضوب عليهم . (الرازي - التفسير الكبير - ج ١ ص ٣٦٩) .

والرازي في هذه الفكرة يوجه إلى عمل تربوي لابد منه ، فالتراث المعرفي الذي انتجته الأمم الماضية فيه الصحيح وفيه الفاسد ، لذا يحتاج إلى النقد والتمحيص قبل تقديمه إلى الأجيال اللاحقة ، لأن ذلك التراث يحمل أفكار تلك الأمم ومعتقداتها وتصوراتها فلايصح الأخذ به إلا بعد تخليصه مما يتعارض مع العقيدة الإسلامية ، فيجب على التربية أن تسند ماتحتاجه من معرفة إلى ذوي العقول السليمة الذكية القادرة على النقد والتمحيص والتمييز بين الحق والباطل سواء كان ذلك في العلوم الكونية أو العلوم الإنسانية ، فالمعرفة في الناحيتين تتأثر بفكر وثقافة وعقيدة الأمة التي انتجتها ٠

ولايقتصر ذلك النقد على معارف الماضين بل يأخذ في الحسبان معارف المحدثين من الأمم المعاصرة فهي تحمل الكثير من الأفكار الهدامة ، فواجب التربية أن تتصدى لهذه المعرفة - أيضاً - فتأخذ منها مايفيد بعد تنقيته ، وتنبذ منها مايهدم ويفسد ، وهذا العمل هو مايعرف حالياً بـ« أسلمة المعرفة » وهي تعني إخضاع المعرفة للنقد والتقويم الموضوعي من خلال معيار العقيدة الإسلامية الذي يبين زيف الحقائق من صحتها ٠ قال تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ الأنعام ١٥٣ ٠

القرآن الكريم منبع العلوم والمعارف الإسلامية :

القرآن الكريم هو الأساس الذي اشتقت منه المعارف الإسلامية وتفرعت عنه وعلى ضوء ارشاداته وتوجيهاته انطلق العقل الإسلامي إلى البحث في آيات الآفاق والأنفس وغيرها من الظواهر الطبيعية والإنسانية ، مما كان سبباً في وجود معارف كثيرة ومتعددة ٠ ولذلك يقرر الرازي أن القرآن الكريم هو الكتاب الشامل الكامل الذي يتضمن علوماً ومعارف لاحصر لها ، فهو الينبوع الذي لاينضب معينه ولاتنتهي عجائبه ، فبالقرآن تتم معرفة الله ومعرفة أسمائه وصفاته ، ومايتصف به من كمال العلم والقدرة والرحمة والحكمة ٠

والقرآن مشتمل على مايرشد الإنسان إلى عجائب قدرة الله في خلق السماوات والأرض والكواكب ، وتعاقب الليل والنهار ، وأحوال النبات والحيوان ، والإنسان ٠

وبواسطة القرآن يطلع الإنسان على المعارف الغيبية مثل الوعد والوعيد ، والثواب والعقاب ودرجات أهل الجنة ، ودرجات أهل النار ٠

وفي القرآن للمواعظ والنصائح والأخلاق التي تهذب سلوك البشر ٠

وفي القرآن قصص الأولين ، وتاريخ الأمم الماضية ، وقصص وتاريخ الأنبياء والملوك وأحوال الناس من أول خلق العالم إلى قيام الساعة ٠

وفي القرآن من الآداب والحكم وسائر العلوم مالايوجد في غيره ، فلايوجد أي كتاب اجتمع فيه من العلوم المختلفة والمباحث المتباينة مثل ما في القرآن الكريم ٠

والعلماء - على اختلاف مقاصدهم ومطالبهم - يستمدون من القرآن ؛ فالفقيه يستدل به ، والحكيم يأخذ منه مايدعم به حجته ، والأديب يستمد منه المعاني السامية ، والأساليب الرفيعة ٠

والقرآن يفتق القرائح والمواهب والأفهام ؛ فمن اشتغل به سَهُلَ عليه الاشتغال بالعلوم الأخرى كالنحو واللغة وأصول الفقه وغير ذلك ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ٧ ص ١٧٢ ، ج ٢٦ ص ٢٦٨ - ١٧١ ، ج ٢٧ ص ٩٤ ، ج ٢٩ ، ص ١٩٢ ، ج ٣٠ ص ١٠١)٠

أدوات المعرفة :

تطرق الرازي إلى أدوات المعرفة وطرقها ، وهي - عنده - ثلاث أدوات رئيسة ، وهي : الوحي ، والعقل ، والحواس ٠

أولا : الوحـــي :

الوحي هو الطريق الوحيد لمعرفة علم الغيب الذي لايمكن الوصول إليه لابالحواس ولابالعقل ، فعن طريق وحي الله إلى أنبيائه يصل الإنسان إلى معرفة أشياء كثيرة من أمور الغيب ، مثل الساعة وأشراطها ، والملائكة ، ومايحدث للإنسان بعد الموت ، والجنة ، والنار ، والميزان ، والصراط ، وغير ذلك من الغيبيات التي وردت في القرآن الكريم ، أو في حديث الرسول صلى الله عليه وسلم •

ويجب تصديق كل الأخبار التي جاء بها الوحي والإيمان بها •

وقد امتدح الله المتقين ، لأنهم يؤمنون بالغيب ، فقال تعالى ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَارَيْبَ فِيْهِ هُدىً لِلْمُتَّقِيْنَ • ٱلَّذِيْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِٱلْغَيْبِ ••• ﴾ البقرة ٢ ، ٣ •

ويُعدّ الإيمان بالغيب أعلى درجات الإيمان ، ولذلك وصف الله إيمان الذين آمنوا بالغيب بأنه يقين لاشك فيه ولاتردد ، فقال تعالى ﴿ وَبِٱلآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُوْنَ ﴾ البقرة ٤ •

والمرء لايُمدح لأنه آمن بالآخرة فقط ، بل يُمدح لأنه أيقن إيقاناً جازماً بالآخرة ومافيها من الحساب والسؤال ووجود الجنة التي أعدت للمؤمنين ، ووجود النار التي أعدت للكافرين •(الرازي – التفسير الكبير – ج ٢ ص ٣٣) •

وفي القرآن مايدل على أنه لاسبيل إلى معرفة علم الغيب إلا بتعليم الله للإنسان عن طريق الوحي كقوله تعالى : ﴿ قَالُوْا سُبْحَانَكَ لَاعِلْمَ لَنَا إِلَّا مَاعَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ ٱلْعَلِيْمُ ٱلْحَكِيْمُ ﴾ سورة البقرة ٣٢ ،وقوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ ﴾ الانعام ٥٩ ، وقوله تعالى : ﴿ عَالِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَايُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِنْ رَسُوْلٍ ﴾ سورة الجن ٢٦ •

ويرى الرازي أن هذه الآيات برهان ساطع ودليل قاطع على أنه لاطريق إلى معرفة الغيب إلا بالوحي وتعليم الله تعالى ، أما أعمال المنجمين والكهنة والعرافين فهي

طرق باطلة لايمكن التوصل بها إلى علم الغيب ·(الرازي - التفسير الكبير - ج ٢ ص ٢٠٩) ·

وهذا يعطي إشارة إلى التربية لتغرس في نفوس النشىء الايمان بالغيب من خلال توجيهات الوحي لئلا يتأثروا بأى طريق آخر من طرق الضلال التي تنحرف بالفطـرة البشـرية عن الطـريق الصـحيح للإيمان بالغـيب ، كما هي أفعال أصحاب الضلالات الذين يدّعون معرفة علم الغيب بطريق التنجيم والكهانة وغيرها من طرق للشعوذين والسحرة وأهل الخرافات ·

ويفرق الرازي بين دلائل التوحيد ودليل الحشر ؛ فدلائل التوحيد ظاهرة ومحسوسة يتوصل إليها بالعقل بالإضافة إلى دعوة الرسل ، أما الحشر وصفته ومايحدث فيه من أهوال ، وقيام الساعة وأحوالها فلابرهان ولادليل على ذلك إلا الوحي ، فلولا ذلك لما تبين الأمر لأحد · وكل هذه الأحداث الغيبية لا خلاف بين العلماء في كونها من علم الغيب الذي لايُعرف إلا بالوحي ، ولذلك الإشارة بقوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴾ سورة سبأ ٤٨ ·

كما أشار الرازي إلى أن الله تعالى يلقي الايمان في القلوب فتقبله قلوب المؤمنين ، بينما ترفضه قلوب الكافرين وتقذفه فلاتؤمن به ، لأن القذف هو القول بدون علم ، وقد أخبر الله تعالى بأن قلوب الكفار تقذف الغيب ولاتقبله بقولـه تعـالى : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ سورة سبأ٥٣ ·

وعندما ينتقل منكرو الغيب إلى الآخرة يشاهدون الحقيقة بحواسهم فيؤمنون بها ، لكن إيمانهم حينئذ لاينفعهم ·(الرازي - التفسير الكبير - ج ٢٥ ص ٢٧٠ - ٢٧٢)

ثانيا : العقـــل :

تعريف العقـــــل :

تناول علماء المسلمين - العقل - بتعريفات متعددة ، فهو - عند الرازي - العلم بصفات الأشياء والتمييز بينها وإدراك الحسن من القبيح ، والكامل من الناقص ، والضار من النافع حتى يصير ذلك العلم مانعاً من الوقوع في الضرر وداعياً إلى العمل بما هو نافع ٠

وينقل الرازي عن بعض الصالحين قوله : << العقل هو العلم بخير الخيرين وشر الشرين ، والعاقل من عقل عن الله أمره ونهيه >> ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢ ص ٢٠٥ - ٢٠٦)٠

أما عند المحاسبي :

فالعقل - هو غريزة وضعها الله سبحانه في أكثر خلقه ، لم يطلع عليها العباد برؤية ولا بحس ولا ذوق ولا طعم ٠ فمن عرف ماينفعه مما يضره في أمر دنياه عرف أن الله تعالى قد مَنَّ عليه بالعقل ٠ فهو غريزة لايُعرف إلا بفعله في القلب والجوارح ، ولايقدر أحد أن يصفه في نفسه ولا في غيره بغير أفعاله ، ولايقدر أن يصفه بجسمية ولابطول ولابعرض ولا طعم ولا شم ولا مجسة ولا لون ٠ وبالعقل تكون المعرفة ٠ (المحاسبي - ١٤٠٦هـ - ص ١٧ - ٢٠) ٠

وأما عند الغزالي :

فالعقل له أربعة معان :

١ - العقل هو الوصف الذي يتميز به الإنسان عن سائر البهائم ، وبه يصير الإنسان مستعداً لقبول العلوم النظرية ، والقدرة على تدبير الصناعات الدقيقة التي تحتاج إلى قوة فكرية ٠

٢ - العقل يطلق على العلوم التي تظهر في الطفل المميز كعلمه بالأمور الجائزة ، والأمور المستحيلة ، كعلمه بأن الاثنين أكثر من الواحد ، وأن الشخص لا يكون في مكانين في وقت واحد ٠

٣ - العقل عبارة عن علوم تستفاد بالتجربة ، فمن حنكته التجارب يقال عنه إنه عاقل ٠

٤ - أن تنتهي القوة العقلية إلى أن يعرف الإنسان عواقب الأمور ، ويقمع الشهوة الداعية إلى اللذة العاجلة ويقهرها ، فإذا حصلت هذه القوة سمي صاحبها عاقلاً ٠

ويرى الغزالي أن العقل الذي ينطبق عليه التعريفان الأول والثاني موجود في الإنسان بالطبع ، أما الثاني والثالث فيوجدان فيه بالاكتساب ٠ (الغزالي - ١٤٠٦هـ - ص ٥٨ - ٦٠)

يتضح من التعريفات السابقة : أن الرازي يقتصر في تعريفه للعقل على ماينتجه العقل من معرفة ، ومايقوم به من عمل ، فإذا استطاع الإنسان أن يفرق بين الأشياء ، ويعرف الضار من النافع ، ويسعى فيما ينفعه ويتجنب مايضره ، سمي ذلك عقلاً ٠

أما المحاسبي والغزالي فيظهر من تعريفهما : أن العقل عقلان :

فالعقل الأول عبارة عن « غريزة » مطبوع عليها الإنسان وهي التي تميزه عن الحيوان وهذه الغريزة موجودة عند كل إنسان ، أما العقل الثاني فمكتسب يستفيده الإنسان عن طريق العلم والتربية والتجارب وغير ذلك ، والعقل المكتسب هو الذى يختلف فيه الناس وبه يحصل التفاضل بينهم ٠

ويظهر أن الرازي يتفق مع المحاسبي والغزالي في الجزء الثاني من التعريف أي في العقل المكتسب الذي لا يُعرف إلا بآثره ومايكتسبه أو ينتجه من معرفة •

وبالنظر إلى القرآن الكريم لاتجد أنه يذكر لفظة «عقل» صريحة وإنما يشير إلى العقل بما ينتج عنه من أفعال وعمليات عقلية مثل : التدبر ، والتأمل ، والتفكر ، والنظر ، كما يطلق القرآن لفظتي «القلب» و «اللب» بمعنى العقل • وإليك بعض الآيات التي تشير إلى عمل العقل : ففي اللب والتفكر قال تعالى ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ • الَّذِيْنَ يَذْكُرُوْنَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوْداً وَعَلَىٰ جُنُوْبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُوْنَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴾ آل عمران ١٩٠ ، ١٩١ •

وفي التدبر ، والقلب قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُوْنَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوْبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ محمد ٢٤ • وفي استخدام العقل قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ تَرَكْنَا مِنْهَا آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُوْنَ ﴾ العنكبوت ٣٥ • وفي الحث على استخدام النظر بمعنى التفكير قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوْا فِيْ الْأَرْضِ فَانْظُرُوْا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ﴾ العنكبوت ٢٠ •

إن القرآن الكريم عندما يشير إلى العمليات العقلية دون الإشارة مباشرة إلى لفظة «العقل» فإنما يُعد ذلك دليلاً على أن العبرة بأعمال العقل وبما ينتجه العقل من معرفة إيجابية تعود على الإنسان بالخير والسعادة في الدنيا والآخرة ، فالأمر الذي يعوّل عليه القرآن هو عمل العقل وليس العقل في حد ذاته •

ويقول صلاح الدين المنجد (١٩٧٤م) : «إن الفعل (عَقَلَ) قد استعمل في القرآن الكريم إما بمعنى الفهم والإدراك والعلم وإما بمعنى التمييز بين الخير والشر وإمساك النفس عن الأمور القبيحة» ص ١٨ •

وبالمقارنة بين هذا التعريف وتعريف الرازي نجد أنهما متطابقان تقريباً ، وبهذا يكون الرازي قد استند في تعريفه للعقل إلى فعل العقل لا إلى العقل نفسه ، ومعنى هذا أنه متأثر في تعريفه بالقرآن الكريم الذي ينظر إلى عمل العقل ونتائجه •

أهمية العقل في تحصيل المعرفة :

يعتبر الرازي العقل أداة هامة في الوصول إلى المعرفة ؛ فالله سبحانه وتعالى أعطى الإنسان العقل والفكر من أجل تحصيل المعارف الحقيقية والأخلاق الفاضلة التي تجلب له السعادة الحقيقية وهي سعادة الآخرة ، فإذا استعمل الإنسان قوته العقلية وقوته الفكرية لتحقيق هذه السعادة فاز بأسمى غاية وإذا اقتصر في استخدام عقله وفكره على تحصيل اللذات والسعادات الدنيوية العاجلة دون النظر إلى الآخرة فقد خسر خسراناً مبيناً ، وأكثر مايقع هذا الخسران لمنكري البعث ومنكري القيامة، لأنهم لايؤمنون بالآخرة فهم يظنون أنه لا حياة إلا الحياة الدنيا فيقصرون أعمالهم عليها ويشغلون عقولهم وأفكارهم في الحصول على المعرفة التي تحقق لهم تلك اللذة العاجلة الفانية ٠

أما المؤمنون بالبعث والقيامة فلايغترون بالحياة الدنيا ولايقتصرون على مافيها من خيرات عاجلة بل يستعملون تلك المنحة الربانية التي ميز الله بها الإنسان – وهي قوة العقل والفكر – في الاستعداد لليوم الآخر ، وتحصيل المعرفة التي تحقق لهم السعادة في الآخرة ٠

ثم يشير الرازي إلى أن المراد من آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن العقل حث الناس وتوجيههم إلى استعمال عقولهم في التأمل والتدبر، وخاصة أهل العقل والفهم والدراية الذين يستطيعون التوصل إلى المعرفة المفيدة والعلم النافع ، ولذلك قال تعالى : ﴿ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ آل عمران ١١٨ ٠ (الرازي التفسير الكبير – ج ١٢ ص ١٩٧ ، ج ٨ ص ١٩٩) ٠

القلب عند الرازي :

القلب - عند الرازي - محل للعقل ؛ لأن الأدلة العقلية والنقلية تدل على ذلك : فمن الأدلة النقلية قوله تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ۝ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ سورة البقرة ١٩٣ ن ١٩٤ ، وقوله تعالى : ﴿ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا ... ﴾ الأعراف ١٧٩ .

ومن الحديث مارواه النعمان بن بشير ، قال سمعته عليه السلام يقول : << **ألا وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب** >> .

ومن الأدلة العقلية : أنه بسبب القلب يشعر الإنسان بكل مايحصل في الأعضاء من ألم ، كما أنه في حالة الإغماء - التي تحدث للقلب - تفقد جميع الأعضاء الأحساس فلو قُطِّعت سائر الأعضاء - في حالة الاغماء - لم يحدث شعور بذلك ، فدل هذا على أن القلب هو الذي يدفع جميع الأعضاء إلى العمل ؛ لأنه محل التمييز والاختيار وجميع الأعضاء مسخرة له ، فدل هذا الدليل العقلي على أن مكان العقل هو القلب ومادام الأمر كذلك فالقلب هو محل العلم والفهم ، كما أنه محل الجهل والغفلة .

ويذكر الرازي أنه وُجد - بالتجربة - أن العلوم حاصلة في جهة القلب ، والدليل على ذلك أن الإنسان إذا أكثر من التفكير وأطال في ذلك أحس من قلبه ضجراً وضيقاً وألماً ، فدل هذا - أيضاً - على أن موضع العقل هو القلب .

ويرى أنه لايمكن الفصل بين القلب والحواس والدماغ ، فكل منها يؤثر على عمل الآخر ؛ فالحواس تؤدي جميع مايصل عن طريقها إلى الدماغ ، ثم الدماغ يوصل تلك المعلومات والآثار إلى القلب . ويفترض الرازي أن العملية قد تكون بالعكس ، فمن المحتمل أن يصل الأثر من القلب إلى الدماغ ، والدماغ نتيجة لذلك يؤثر في الأعضاء ويحركها بواسطة الأعصاب النابتة منه ، ولايُسْتَبْعَدُ أن تكون سلامة

الدماغ شرطاً لتأثير القلب في سائر الأعضاء • (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢٤ ص ١٦٦ - ١٦٨) •

عدم تعارض الوحي والعقل :

المعرفة - عند الرازي - قسمان :

القسم الأول : المعرفة البدهية : وهي التي يدركها العقل ويسلم بها بسهولة دون بذل جهد أو تعب ، مثل إدراك أن الضدين لايجتمعان وأن الكل أكبر من الجزء ، والواحد نصف الاثنين ، وغير ذلك من المسلمات البدهية •

والقسم الثاني : هي المعرفة التي يحتاج الإنسان في الوصول إليها إلى طلب واجتهاد ، وهذا القسم ينقسم إلى قسمين : القسم الأول : معارف يتوصل الإنسان إليها عن طريق الاستنباط العقلي ، لكونها تعتمد على الحجة والبرهان العقلي • أما القسم الثاني فيتم الوصول إليه عن طريق الوحي والإلهام •

وهذان الطريقان - الوحي والعقل - هما الطريقان اللذان يُعتمَدُ عليهما في الوصول إلى المعرفة ، << فإذا اجتمعا واعتضد كل واحد منهما بالآخر بلغا الغاية في القوة والوثوق >> ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى : ﴿ أَفَمَنْ كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِنْهُ وَمِنْ قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَىٰ إِمَامًا وَرَحْمَةً ••• ﴾ هود ١٧ ، <<فالمراد بـ«البينة» الدلائل العقلية واليقينية ، والمراد بقوله (ويتلوه شاهد منه) الوحي الذي حصل لمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقوله ﴿ومن قبله كتاب موسى إماماً ورحمة ﴾ الوحي الذي حصل لموسى عليه السلام ، وعند اجتماع هذه الثلاثة يبلغ هذا اليقين في القوة والظهور والجلاء إلى حيث لايمكن الزيادة عليه >> • (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٧ ص ٢٠٢ - ٢٠٣) •

والفقهاء والمحدثون من أهل السنة لايطلقون العنان للعقل ، بل يرون أنه مساعد ومعين يُرجع إليه في تعقل الشريعة وفهمها ، ولايعتد بمدركات العقل مالم يصادق عليها الشرع ، فإذا اختلف العقل مع الشرع عُدَّ ذلك من أوهام العقـــل .
(شوكت عليان - ١٤٠٠هـ - ص ١٠٨) .

ويرى الرازي أن العقل محدود وله نهاية يقف عندها ، فلا يجوز له أن يخوض فيما لاطاقة له في معرفته وادراكه فلا يصح للعقل أن يفكر في ذات الله ، لأن تصور ذاته - تعالى - وصفاته من الأمور التى لايمكن للعقل أن يتصورها ، فالله سبحانه وتعالى << غير متناه في الذات والصفات ، والعقل متناه في الذات والصفات، والمتناهي لاسبيل له إلى إدراك غير المتناهي >> ويشير الرازي إلى أن الطريق المستقيم هو الإعتدال في البحث وعدم التعمق .

ويستدل على ذلك بقول الرسول صلى الله عليه وسلم << تفكروا في الخلق ، ولا تتفكروا في الخالق >>.

أما المجال الذي يرى الرازي أنه الأولى بالنظر والتدبر والتفكر وإعمال العقل فهو ماورد في ســـورة البقرة ، وهي الدلائل الخمس الـواردة فى قوله تعــــالى :

﴿ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً ، وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ سورة البقرة ٢١ ، ٢٢ .

فهذه الدلائل الخمس تدعو الإنسان إلى استعمال العقل للوصول إلى اليقين وتثبيت العقيدة ، ويمكن تلخيص ذلك كما يلي :

١ - في قوله تعالى : ﴿ اعبدوا ربكم الذي خلقكم ﴾ دعوة إلى النظر في نفس الإنسان وخلقه الدال على وجود الخالق جلت قدرته .

٢ - في قوله تعالى : ﴿ والذين من قبلكم ﴾ دعوة إلى النظر في التاريخ لمعرفة أحوال الأمم الماضية من الآباء والأجداد .

٣ - في قوله تعالى : ﴿ الذي جعل لكم الأرض فراشاً ﴾ دعوة إلى النظر في أحوال الأرض .

٤ - في قوله تعالى : ﴿والسماء بناءً ﴾ دعوة إلى النظر في أحوال السماء .

٥ - وفي قوله تعالى : ﴿ وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم﴾ دعوة إلى البحث والنظر في الأحوال والحوادث المتعلقة بالسماء والأرض .

ويؤكد الرازي على أن الهدف من هذه الدلائل الخمس هو افراد الله تعالى بالعبودية ، فهي دلائل تدل على وجود الخالق القادر الواحد الذي لاند له ولانظير ولاشريك ، ويُتْبِع الرازي ذلك بالحث على الاتباع والاستسلام لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والاقتداء بالخلفاء الراشدين فذلك هو الصواب ، أما الاعتماد على العقل في سلوك سبيل السنة فإنه قد يعود بالخطر الشديد على العبد ؛ لأنه قد يؤدي إلى مخالفة طريق السنة بدلاً من اتباعها . (الرازي - ١٤٠٢ هـ - ص ٢٥ ، ٢٦ ، ١٦١) .

ثالثا : الحـــــواس :

تعتبر الحواس أدوات فعالة في تحصيل المعرفة ، فهي المنافذ التي يطل منها الإنسان على محيطه فيسمع ويرى ويتذوق ويشم ويلمس ، فتتكون لديه معارف كثيرة، ويمكن القول بأن الإنسان لو وُلد بدون هذه الحواس الخمس لما تمكن من الحصول على أية معرفة ، وكلما فقد شيئاً من هذه الحواس انخفض مستوى المعرفة لديه . لكن هذه الحواس تختلف من حيث أهميتها في الوصول إلى المعرفة ، فالسمع والبصر هما الحاستان الأهم في تحصيل المعرفة ، ولذلك ركز الرازي في حديثه عن وسائل المعرفة على هاتين الحاستين خاصة منطلقاً في ذلك من قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ النحل ٧٨ .

فقد أبان الرازي – على ضوء هذه الآية – أن الإنسان في بداية خلقه خال عن أية معرفة ، فالنفس الإنسانية في أول الخلقة ليس لديها شيء من المعارف أو العلوم ، ونظراً لحاجة الإنسان إلى الاستفادة من المعارف والعلوم التي تمكنه من معرفة الله ومعرفة مايفيده في الدنيا والآخرة أنعم الله عليه بهذه الحواس .

والمعرفة بقسميها – البدهي والنظري – لم يكن لدى الإنسان منها شيء في بداية الخلقة ، فعندما كنا أجنة في أرحام أمهاتنا لم نكن نعرف أن الكل أكبر من الجزء

ولم نكن نعرف أن النفي والاثبات لايجتمعان ، فهذه المعرفة البدهية لم نتمكن من اكتسابها إلا بعد الولادة بواسطة الحواس التي هي السمع والبصر << فإذا أبصر الطفل شيئاً مرة بعد أخرى ارتسمت في خياله ماهية ذلك المبصر ، وكذلك إذا سمع شيئاً مرة بعد أخرى ارتسمت في سمعه وخياله ماهية ذلك المسموع ، وكذلك القول في سائر الحواس >>.

ولأن العلوم - بقسميها البديهي والنظري - لايمكن اكتسابها وحدوث تصوراتها في الذهن إلا بمساعدة الحواس ، صارت هذه الحواس سبباً في انتقال النفس الإنسانية من الجهل إلى العلم . (الرازي - التفسير الكبير- ج ٢٠ ص ٨٩ - ٩٠).

مقارنة بين السمع والبصر:

أجرى الرازي مقارنة بين السمع والبصر أظهرت أنه يفضل السمع على البصر في تحصيل المعرفة ، وإليك هذه المقارنة :

١ - الإنسان لايستفيد العلم إلا بطريق التعلم من الأستاذ . ولايتمكن من ذلك إلا بحاسة السمع ، فقوة السمع أمر ضروري لتتم عملية التعلم ، لأن فاقد السمع - في هذه الحالة - لايحصل له التعلم إلا بصعوبة ، أما غير المبصر فإن بإمكانه التعلم مادام أن حاسة السمع لديه سليمة فدل هذا على أن حاسة السمع أهم من حاسة البصر في تحصيل المعرفة .

٢ - لأن السمع أكثر أهمية قرن الله - سبحانه وتعالى - بينه وبين العقل في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴾ سورة ق ٣٧ ، والمراد بالقلب في الآية << العقل >> .

٣ - يعد النطق من أهم المميزات التي تميز الإنسان عن الحيوان ، والإنسان لا يتمكن من الاستفادة من النطق وتعلم الكلام إلا بقوة السمع فإذا تعطل السمع أصبح النطق غير مسموع وانعدمت الإفاوة ، أما الكفيف فلايعاني من هذه المشكلة ، مما يدل على أن تميّز الإنسان بالسمع أكثر من تميّزه بالبصر ، ولذلك كان السمع أفضل من البصر.

٤ - الأنبياء عليهم السلام كانوا - جميعاً - يتمتعون بقوة السمع ،لأنها أمر ضروري لتبليغ الشرائع وبيان الأحكام والتخاطب مع الناس وسماع أسئلتهم والإجابة عليها ، فالصمم غير جائز في حق الأنبياء لأنه يخل بالرسالة وليس كذلك البصر ، وقد وقع العمى لبعض الأنبياء ، وهذا يدل على أن السمع أكثر أهمية من البصر وأن المعرفة التي يحصل عليها الإنسان بواسطة السمع أكثر أهمية وأكثر دقة وفائدة . (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٧ ص ١٠١ - ١٠٢) .

التكامل بين الحواس والعقل في تحصيل المعرفة :

الإنسان في بدء خلقه خال عن المعرفة ، ثم تحصل له المعرفة بواسطة حواسه ، فالإنسان يحس بالمحسوسات فتصل تلك المحسوسات إلى العقل فيميز بينها ويدرك الأمور المشتركة والأمور المتباينة ، وينتزع العقل من ذلك علوماً أولية صادقة ، كمعرفتنا أن الواحد نصف الاثنين وأن الكل أكبر من الجزء ، وهذه العلوم الأولية التي ترد إلى الذهن عن طريق الحواس هي وسيلة العقل إلى العلوم النظرية ، لأنه بتحليلها وتركيبها يتوصل إلى علوم نظرية كانت مجهولة من قبل . وبهذا يتضح أن الحس مقدم في الوجود على العقل ، ولذلك قيل : « من فقد حساً فقد علماً »، فعن طريق منفذي السمع والبصر تصل إلى العقل معارف وعلوم كثيرة ، وبواسطة هاتين الآلتين تصل إلى العقل صور المبصرات والمسموعات فالتلازم والارتباط بين العقل والسمع والبصر قائم

ولابد منه لتحصيل المعرفة ، وهذا التكامل واضح وظاهر في قوله تعالى : ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً ﴾ الاسراء ٣٦ .

فالعقل محتاج إلى الحواس لتمده بأشياء كثيرة من ألوان للعرفة ، لكن تلك المعرفة لافائدة منها إلا بوجود العقل ، فلا «« طائل في السمع والإبصار إلا بمايؤديان إلى القلب ليكون القلب هو القاضي فيه والمتحكم عليه »» ، وقد دل على هـذا التـلازم - بين السمع والبصر والعقل - أن الله تعالى جعل الإنسان مسئولاً عن هذه الثلاثة في الآية السابقة ، وأقام عليه الحجة بوجودها جميعاً في قوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَاهُمْ فِيْمَا إِنْ مَكَّنَاكُمْ فِيْهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصَاراً وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلاَأَبْصَارُهُمْ وَلاَأَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ ﴾ الأحقاف ٢٦ ، فكانت الحجة قائمة عليهم بوجود السمع والأبصار والأفئدة مجتمعة . (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢٤ - ج ٢٤ ص ١٦٦ ، ج ٣٠ ص ٢٣٧) .

ويشير الرازي إلى مدى التكامل بين المحسوس والمعقول في القرآن الكريم مما يجعل الأمور العقلية أكثر وضوحاً وأقرب إلى الفهم ، فالقرآن الكريم يضرب الأمثلة المحسوسة التي تقع تحت حواس الإنسان من أجل تقريب الأمور المعقولة ، فعند ذكر القضية العقلية المحضة المجردة التي يراد أيصالها إلى عقل كل إنسان يذكر لها القرآن مثالاً محسوساً«« من الأمور المحسوسة الداخلة تحت القضية العقلية الكلية ليصير ذلك المعقول بمعاونة هذا المثال المحسوس مفهوماً لكل أحد »» مثال ذلك في الأمر المعقول قوله تعالى : ﴿ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَايَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ ﴾ الأنعام ٥٩ ، فقد أُكد هذا المعقول الكلي المجرد بجزئي محسوس وهو قوله ﴿ وَيَعْلَمُ مَافِي الْبَرِ وَالْبَحْرِ ﴾ لأن الحس والخيال مطلع على عظمة أحوال البر والبحر وهي أمور محسوسة تكشف عن عظمة ذلك المعقول ، فالبر والبحر ومافيهما من عجائب هي مما أحاط الله بعلمه ، وهي داخله تحت قوله : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ﴾ فيصير هذا المثال

المحسوس من البر والبحر مقوّياً ومكملاً للعظمة الحاصلة تحت قوله : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو ﴾ . (الرازي- التفسير الكبير - ج ١٣ ص ٩ - ١٠).

مقارنة بين العقل والحس :

أجرى الرازي مقارنة بين العقل وبعض الحواس توصل من خلالها إلى تفضيل العقل ، وذلك فيما يلي :

١ - قوة البصر لاتدرك نفسها ولاتدرك العين التي تبصر بها ، ولاتدرك ادراكها ، أما القوة العقلية فإن الإنسان يدرك بها أنه عاقل ، ويدرك بها المدركات ، ويدرك بها الآلة التي تم بها الإدراك ، وهي القلب والدماغ ، وهذا يعطي دلالة على أن نور العقل أكمل من نور البصر .

٢ - القوة الباصرة لاتدرك الكليات وإنما تدرك الجزئيات بينما القوة العقلية تدرك الكليات ، والكل عبارة عن كل ماحصل في الماضي والحاضر والمستقبل ، وهذا لايمكن ادراكه بالبصر ، أما العقل فبإمكانه إدراك ذلك ، كما أن العقل يدرك الجزئيات بالإضافة إلى الكليات ؛ لأن الجزء داخل تحت الكل ، وبهذا تظهر ميزة العقل على البصر .

٣ - العقل منتج والبصر غير منتج ، فالادراك الحسي إذا أحس بشيء فإن ذلك الإحساس لايكون سبباً لحصول إحساس آخر له ، فلو أعاد الإنسان بصره مرة أخرى إلى ذلك المحسوس لأبصره كما هو في المرة الأولى ، أما الإدراك العقلي فإنا إذا أدركنا أموراً ثم ركبناها في عقولنا فإنا نتوصل بتركيبها إلى اكتساب علوم أخرى ، وهكذا فكل تعقل يؤدي إلى تعقل آخر إلى مالانهاية ، فثبت بهذا أن

الإدراك العقلي منتج والإدراك الحسي غير منتج ، فهذه ميزة يتميز بها العقل على الحس •

٤ - الإدراك الحسي لايتسع لأمور كثيرة بينما الإدراك العقلي يتسع لها ، فالبصر - مثلاً - إذا توالت عليه ألوان كثيرة فإنه يعجز عن تمييزها حيث تختلط عليه الألوان ، والسمع إذا توالت عليه كلمات كثيرة التبست عليه ولم يحصل التمييز بين الكلمات والأصوات ، أما الإدراك العقلي فإنه كلما كان تحصيله للعلوم أكثر كلما كانت قدرته على كسب الجديد أسهل •

٥ - القوة الحسية إذا أدركت المحسوسات القوية فإنها تعجز عن إدراك المحسوسات الضعيفة إذا اجتمعت مع المحسوسات القوية في آن واحد، فإذا سمع الإنسان الصوت الشديد فإنه في تلك الحالة لايمكنه سماع الصوت الضعيف ، أما القوة العقلية فإنه لايشغلها معقول عن معقول آخر •

٦ - القوى الحسية تضعف بعد الأربعين ، والقوى العقلية تقوى بعد الأربعين •

٧ - القوة الباصرة لاتدرك المرئي مع القرب القريب ولامع البعد البعيد ، والقوة العقلية لايختلف حالها بحسب القرب والبعد •

٨ - القوة الحسية لاتدرك من الأشياء إلا ظواهرها وتعجز عن النفوذ إلى بواطن الأشياء ، أما القوة العقلية فإنها تدرك الظواهر وتغوص إلى بواطن الأشياء وأجزائها •

٩ - القوة العقلية لها قدرة على توحيد الكثير وتكثير الواحد ، والقوة الحسية لاتقدر على ذلك ، فالقوة العقلية تضم الجنس إلى الفصل فيحدث منهما طبيعة نوعية واحدة ، وتقوى على تكثير الواحد فتأخذ الإنسان - مثلاً - وهو عبارة عن ماهية واحدة فتقسمها إلى مفهوماته وإلى عوارضها اللازمة وعوارضها المفارقة ،

ثم تقسم مقوماتها إلى الجنس وجنس الجنس والفصل وفصل الفصل ... الخ أي أن القوة العقلية تقوم بعمليتي التركيب والتحليل .

١٠ - القوة العقلية تقوى على ادراكات غير متناهية ، والقوة الحسية لاتقوى على ذلك ؛ فالقوة العقلية يمكنها أن تتوسل بالمعارف الحاضرة إلى استنتاج معارف مجهولة ثم تجعل النتائج التي تتوصل إليها مقدمات إلى نتائج أخرى وهكذا ، بينما القوة الحسية لاقدرة لها على الاستنتاج أصلاً .

١١ - الإنسان يتميز عن البهائم بالقوة العقلية التي يدرك بها الحقائق بينما يشارك البهائم في القوة الحسية ، فدل هذا على شرف العقل .

١٢ - القوة العقلية بإمكانها إدراك المعقولات وإن لم تكن في الخارج بينما القوة الحسية محتاجة في إدراكها الحسي إلى وجود المحسوس في الخارج .

١٣ - الإدراك البصري لايتصرف في كل الجهات في آن واحد بل يرى الشيء المقابل ، بينما العقل لاتحكمه الجهة فإنه يدرك أن الشيء إما أن يكون في الجهة وإما أن لايكون فيها .

١٤ - القوة الباصرة تغلط كثيراً فإنها تدرك المتحرك ساكناً وبالعكس كالجالس في السفينة فإنه يخيل إليه أن السفينة ساكنة والشط يتحرك ، ولولا العقل لما تميز خطأ البصر من صوابه ، ولذلك فالعقل حاكم والحس محكوم عليه .

وبهذا يظهر أن الإدراك العقلي أشرف وأهم من الإدراك الحسي في اكتساب المعارف والعلوم . (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢٣ ص ٢٢٥ - ٢٢٨).

أدب الحواس والعقل :

يختم الرازي هذا الموضوع بإعطاء درس عن أدب الحواس والعقل ، فهي نعم عظيمة أفاء بها الخالق على عبيده لتكون وسيلة إلى مرضاته ، ولاشك أن أشرف أعضاء الإنسان هي : السمع والبصر والقلب ، فالأذن هي آلة السمع ، والعين هي آلة الإبصار ، والقلب محل الحياة والعقل والعلم ، وإذا حدث أي اختلال في هذه الأعضاء فإنه يؤدي إلى اختلال أمر الإنسان واختلال مصالحه المتعلقة بالدين والدنيا ؛ ولذلك يجب على الإنسان أن يفكر ويتأمل في نعمة العقل والحواس ليدرك أن الله تعالى هو الذي خلقها وزوده بها ، وأن الله - جلت قدرته - هو الذي يصونها ويحفظها له ، وأنه جعلها سبباً في حصول الخيرات والنعم الكثيرة التي لا حصر لها ، فإذا فكر الإنسان في ذلك عرف أن الله سبحانه هو المستحق للتعظيم والثناء والعبودية وأنه تعالى إنما وهب للإنسان هذه الأدوات ليتوصل بها إلى تحصيل المعارف الحقيقية والأخلاق الفاضلة ، فلا يستخدم حواسه ولا قوته العقلية إلا فيما يعود عليه بالنفع في الدنيا والآخرة .

ويورد الرازي بعض الآيات القرآنية التي أشارت إلى أدب الحواس الخمس وهي :

في أدب البصر قال تعالى ﴿ فَاعْتَبِرُوا يَاأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ الحشر ٢ .

وفي أدب السمع قال تعالى ﴿ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ ﴾ الزمر ١٨ .

وفي أدب الذوق قال تعالى ﴿ يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحاً ﴾ المؤمنون ٥١ .

وفي أدب الشم قال تعالى ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴾ يوسف ٩٤ .

وفي أدب اللمس قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴾ المؤمنون ٥ ·
(الرازي - التفسير الكبير - ج ١٢ ص ١٩٧ ، ٢٢٧ ، ج ١ ص ٢٨٧)·

إنه بإمكان التربية أن تستفيد من توجيهات الرازي بشأن العقل والحواس ، فتحاول أن توجه هذه الأدوات للعمل في الطريق السليم ليعود ذلك على الأمة الإسلامية بالخير والفلاح ، فلقد عملت التربية الإسلامية في الماضي على توجيه عقل الإنسان وحواسه في سبيل المعرفة المفيدة مما أدى إلى بناء حضارة عظيمة جعلت المسلمين سادة العالم ، وحين أهمل المسلمون حواسهم وعقولهم وعطلوها عن العمل أدى ذلك إلى جمودهم وتوقف حركتهم العلمية والحضارية ·

إن سر المعرفة - كما يرى المودودي - يكمن في ثلاث كلمات هي السمع ، والبصر ، والفؤاد · فالسمع معناه اكتساب المعرفة التي أحرزها الآخرون ، والبصر يعني تنمية تلك المعرفة والإضافة إليها عن طريق البحث والملاحظة ، والفؤاد يعمل على تنقية تلك المعرفة مما علق بها من أدران ، ثم استخلاص النتائج التي يمكن تطبيقها ، ولابد من تظافر هذه القوى الثلاث مع بعضها لتنجم عن ذلك المعرفة الحقة التي مَنَّ الله سبحانه بها على بني آدم وجعلهم بها مسيطرين ومسخرين لسائر المخلوقات ، ومن الواضح أن من استخدم هذه القدرات والقوى ووظفها على أوسع نطاق فإنه يتمكن من السيطرة وقيادة العالم ، ومن عطلها فإنه يعيش في حالة من التأخر والانحطاط في كنف الآخرين · (المودودي - بدون تاريخ - ص ١٣ - ١٥) ·

شـــروط المعرفة عند الرازي :

للمعرفة عند الرازي شروط لابد من توافرها لتحقق المعرفة النافعة . وتلك الشروط هي : التفكير ، والتأمل ، والتدبر ، والفهم ، فهذه القدرات هي التي تمكن الإنسان من تمييز المعرفة وتمحيصها ونقدها ، ثم الإضافة إليها ، فاستخدام الإنسان لفكره في مجال المعرفة أمر لابد منه من أجل نمو المعرفة وبناء الحضارة على ضوء مايجنيه من معرفة نافعة .

كما يشترط الرازي عدم التقليد الأعمى للآباء ، لأنه أمر عائق للمعرفة يقيد العقل ويمنعه من معرفة الحقيقة ويبقيه حبيس معتقدات وآراء ومعارف الآباء الباطلة.

ويشترط - أيضا - العمل بالاستدلال والبرهان ، لأنهما يقودان إلى المعرفة السليمة . ومن شروطه لاكتساب المعرفة السير في الأرض لأن ذلك يؤدي بالإنسان إلى تحصيل معارف كثيرة لايمكن الوصول إليها إلا بالسير المصحوب بالنظر .

ويمكن اعطاء إيضاح عن شروط المعرفة كما يراها الرازي ، وذلك فيما يلي :

١ - التفكيـــــــير :

يعتمد الرازي في دعوته إلى التفكير على القرآن الكريم ، فقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَابِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴾ الأعراف ١٨٤ . « يأمر بالفكر والتأمل والتدبر والتروي لطلب معرفة الأشياء كما هي عرفاناً حقيقياً تاماً »؛ فهذه الآية تحث كفار قريش على التفكر والتأمل فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم - من البينات ، ولو أنهم فعلوا ذلك لما نسبوه إلى الجنون ؛ لأنه عليه السلام كان يدعوهم إلى الحق وهو توحيد الله ، ويعتمد في ذلك على الدلائل القاطعة والبينات الباهرة التي وقف أمامها الأولون والآخرون حيارى عاجزين عن معارضتها ، ولو أنهم

فكروا في أمره عليه السلام لأدركوا من خلال سيرته وأفعاله أنه على الحق المبين وأنه نبي مرسل من رب العالمين ٠

فقد كان - صلى الله عليه وسلم - على خُلُق عظيم طيب العشرة نقي السيرة قدوة للعقلاء في المواظبة على البر وأعمال الخير ، وقد اشتهر بينهم بهذه الطريقة وعُرف بها ، ولو أنهم تأملوا فيما يعرفونه عنه لما وصفوه بالجنون ولعرفوا أن اجتهاده في الدعوة إلى دين الله إنما كان لأنه نذير مبين أرسله الله تعالى لترهيب الكافرين وترغيب المؤمنين ٠

وقد امتدح الله أولئك الذين يستخدمون عقولهم في التفكير في الآيات والبينات فيدركون أنها حق لاريب فيه ، ومن تلك الآيات التي امتدح الله فيها أصحاب العقول المفكرة قوله تعالى : ﴿ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ آل عمران ٧ ٠

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ ﴾ النور ٤٤ ٠

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِأُولِي النُّهَىٰ ﴾ طه ١٢٨ ٠

كما أنه تعالى ذم المعرضين الذين لايستخدمون عقولهم ولايتفكرون في آيات الله في الآفاق والأنفس ، فيمرون عليها مرور الغافلين اللاهين ، من ذلك :

قوله تعالى :﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ فصلت ٥٣ ٠

وقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴾ الغاشية ١٧ ٠

وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ﴾ الرعد ٤١ ٠

وقوله تعالى : ﴿ قُلِ انْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يونس ١٠١ ٠

وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الأعراف ١٨٥ ٠

وقوله تعالى : ﴿ وَكَأَيِّن مِّنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ يوسف ١٠٥ ·

والله سبحانه وتعالى يدعو إلى التدبر ، لأنه يؤدي إلى الفهم العميق ويصل بالإنسان إلى المعرفة النافعة في الدنيا والآخرة ، ولا سيما التدبر في آيات القرآن الكريم ولذلك قال تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ محمد ٢٤ · (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٥ ص ٧٥ - ٧٦ ، ج ٢ ص ٩١) ·

٢ - عدم التقليد الأعمى للآباء :

يؤدي التقليد الأعمى للآباء إلى الاستمرار في الجهل والضلال والبعد عن العلم والحق · والتقليد للآباء يعني التعصب لأفكارهم ومعتقداتهم ومعارفهم الباطلة التي تحول دون قبول الحقيقة وتحجب أصحابها عن الحق وتعوقهم عن السير في طريق البحث عن المعرفة الصحيحة · ولذلك حذر الرازي من التقليد الذي قد يكون سبباً إلى الشرك والكفر والتحجر والجمود وعدم قبول أي معرفة سليمة أو أي دعوة إلى الحق ·

ويرى أن من دعا إلى النظر والاستدلال كان متفقاً مع دعوة القرآن الكريم ومن دعا إلى التقليد كان على خلاف مادعا إليه القرآن ·

ويؤيد الرازي رأيه بآيات من القرآن الكريم تبين مدى تشبث الكفار بما كان عليه آباؤهم من دين باطل ، مثل قوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴾ الزخرف ٢٣ ، وقوله تعالى : ﴿ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ﴾ لقمان ٢١ ، وقوله : ﴿ بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴾ الشعراء ٧٤ ، وقوله : ﴿ إِن كَادَ لَيُضِلُّنَا عَنْ آلِهَتِنَا لَوْلَا أَن صَبَرْنَا عَلَيْهَا ﴾ الفرقان ٤٢ ·

وقال عن والد إبراهيم عليه السلام: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً﴾ مريم ٤٦ ·

فهذه الآيات تذم التقليد وأصحابه، كما تدل على وجوب النظر والاستدلال، ولو لم يكن في كتاب الله إلا هذه الآيات لكانت كافية في إبطال القول بالتقليد فقد بين الله تعالى أن الكفار ليس لديهم من الأدلة النقلية ولا العقلية ما يثبت ما ذهبوا إليه، فليس لديهم إلا تقليد الآباء والأسلاف ·

كما أن طريق التقليد هي طريقة المترفين المنعمين الذين أبطرتهم النعمة فلا يرغبون إلا في الشهوات وللذات والملاهي مما دفعهم إلى كراهية تحمل المشاق وعدم الجد في طلب الحق، فمنعم الكسل وحب طيبات الدنيا من تحمل مشاق النظر والاستدلال، ولذلك قال الله تعالى في حقهم: ﴿ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ ﴾ الزخرف ٢٣ ·

فهذه الآية وأمثالها تدل على أن طريق الكفار في الالتزام بتقليد الآباء والأسلاف طريق باطل ومنهج فاسد وأن الطريق الصحيح هو الرجوع إلى الدليل، فهو أولى من الاعتماد على التقليد ·(الرازي - التفسير الكبير - ج ٢ ص ٩١، ج ٢٧ ص ٢٠٦) ·

ولا يمكن أخذ كلام الرازي على اطلاقه في نبذ التقليد جملة وتفصيلاً، فإذا كان الرازي يقصد التقليد المحرم كتقليد الآباء المشركين في أفكارهم وعقائدهم ومعارفهم الخاطئة - كما هو واضح من أفكار الرازي - فهذا أمر صحيح ولا غبار عليه، ومثل ذلك تقليد أصحاب الآراء الضالة والبدع المنحرفة من الفرق والأحزاب الخارجة عن نهج القرآن والسنة فإنه لا يجوز اتباعهم ولا تقليدهم ولا يجوز التعصب لهم ولا الأخذ بأفكارهم ومبادئهم الهدامة التي أدت إلى تراكم معرفي مبني على أسس عقدية منحرفة وخارجة عن عقيدة التوحيد التي هي عقيدة أهل السنة والجماعة ·

أما تقليد الأنبياء والصالحين والعلماء المجتهدين الملتزمين بنهج الكتاب والسنة فإنه أمر واجب ومشروع ، فهم قدوة حسنة ينبغي تقليدها والاقتداء بها .

وإذا كان أصحاب المبادىء الضالة قد بنوا الكثير من معارفهم على أساس ما خلفه لهم آباؤهم وأسلافهم الضالون ؛ فإن الآباء والأسلاف المهتدين الذين ورّثوا علماً ومعرفة صحيحة هم الأجدر والأولى بأن يقلدهم أتباعهم وأن يأخذوا بما خلفوا من معارف تخدم الحق وتدحض الباطل .

٢ - الاعتماد على الدليل في اثبات الحق ودحض الباطل :

بعد أن تكلم الرازي عن التقليد وعدم جوازه طريقاً إلى المعرفة ، ذكر بديلاً لذلك . وهذا البديل هو النظر والاستدلال واستخدام الحجج والبراهين التي تؤدي إلى المعرفة السليمة وتوصل إلى الحق والحقيقة وتدحض الخصوم ومايحملونه من معارف باطلة لاتستند إلى أي دليل مقنع ، ويبرهن الرازي على صحة دعواه بأن الاعتماد على الدليل هو الذي اعتمده الأنبياء عليهم السلام واتخذوه طريقا لاثبات صدقهم، فإبراهيم عليه السلام اتبع الدليل ولم يتبع الآباء بل تبرأ من دين آبائه بناء على الدليل الذي دل على فساد دينهم ، فثبت أن الأخذ بالدليل والرجوع إليه في الدنيا والدين هو الأولى والأسلم ، فالأمور التي تستند إلى التقليد تندثر وتزول ، فقد جعل الله دين إبراهيم ومذهبه باقياً في عقبه إلى يوم القيامة ، أما دين آبائه فقد اندرس وزال .

وذكر الرازي أن موسى عليه السلام اعتمد في مناظرته لفرعون - من أجل إثبات التوحيد والنبوة - على الدلائل ، منها ماحكاه الله تعالى في سورة طه : ﴿ قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ طه ٥٠ .

وقوله تعالى : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ الشعراء ٢٦ .

كما استدل موسى على صدق نبوته بالمعجزة ، من ذلك ما حكاه الله عنه في قوله تعالى ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ ﴾ الشعراء ٣٠ ٠

أما دلائل محمد صلى الله عليه وسلم على التوحيد والنبوة والمعاد فالقرآن مملوء منها ، وهي دلائل أبطلت أقوال الدهرية ، والمنكرين لقدرة الله ، والمشركين ، واليهود ، والنصارى ، ومنكري الحشر والنشر وغيرهم ، فالقرآن الكريم مليء بالبراهين والدلائل التي تبطل أقوال وحجج جميع الفرق المعارضة ، وقد أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بدعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة ومجادلتهم بالتي هي أحسن ، في قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ النحل ١٢٥ ٠

والمراد بالحكمة البرهان والحجة ، وهذا يدل على أن الدعوة تعتمد على الدليل وافحام الخصم بالحجة والبرهان ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢ ص ٨٩-٩١ ، ج ١٥ ص ٧٧، ج ٢٧ ص ٢٠٧ - ٢٠٨) ٠

٤ - السير في الأرض للاعتبار وكسب المعرفة :

قال الله تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ الأنعام ١١ ٠

أشار الرازي في شرحه لهذه الأية إلى أن فيها تحذيراً من الركون إلى الدنيا وملذاتها وشهواتها التي تشغل الإنسان عن التفكير وتجلب له الغفلة فلايبالى بانذار الرسل ويتمادى في غيه وتكذيبه لأنبياء الله ٠ وفي هذه الأية توجيه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بأن يدعو أولئك الذين لايصدقون بنزول العذاب على العصاة السابقين أن يسيروا في الأرض ليروا بأعينهم آثار ما حل بالأمم السابقة من ألوان الدمار نتيجة تكذيبهم رسلهم ، فالسفر في البلاد والتنقل في أرجائها يحمل الإنسان

على المشاهدة لتلك الآثار والتعرف على ما حل بأهلها فيحصل الاعتبار والاتعاظ ويراجع الناس أنفسهم خشية أن يحدث لهم مثل ما حدث لمن قبلهم ٠

ويشير الرازي - أيضا - إلى أن هناك فوائد أخرى يجنيها الإنسان من جراء سيره في الأرض ، منها المنافع الحاصلة بسبب التعامل التجاري والتعارف بين الناس ، واكتساب علوم ومعارف جديدة ، والاطلاع على تجارب الأمم الأخرى ، ومعرفة قصص وأخبار الملوك الذين ملكوا الأرض وأفسدوا في البلاد وقهروا العباد ثم ماتوا ولم يرحلوا من دنياهم إلا بالوزر والآثام ، وفي ذلك عبرة وزاجر لمن كان له قلب ٠

ومن فوائد السير في الأرض أن الإنسان يشاهد ما تشتمل عليه أقطارها من جبال وأنهار وبحار وأشجار ونبات وحيوان ، ويطلع من خلال ذلك على أشياء جديدة لم يكن قد رأها من قبل فيفكر ويتأمل في تلك المخلوقات العجيبة التي يشتمل عليها هذا الكون ، فهي تدل على عظمة الخالق وقدرته ٠

والسير في الأرض يبعث على الإيمان بقدرة الخالق وأنه كما كان قادراً على بدء الخلق ، فإنه كذلك قادر على البعث والنشور كما قال تعالى : ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ العنكبوت ٢٠ ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٢ ص ١٦٣-١٦٤ ج ١٨ ص ٢٢٤، ج ٢٥ ص ٤٧) ٠

الفصل السابع

العلم

١ - مفهوم العلم .

٢ - فضل العلم والعلماء .

١ - مفهــوم العلـــم :

استعرض الرازي بعضاً من أقوال العلماء في مفهوم العلم ، فأورد عدداً من المفاهيم ، وناقشها ، وتوصل من خلال ذلك إلى أنه لايمكن الاعتماد على شيء من تلك المفاهيم ليكون تعريفاً صالحاً للعلم.ولكن الرازى لم يأت بتعريف من عنده بل رأى أنه قد يكون المانع من وجود التعريف إما أن يكون لخفاء المطلوب جداً ، وإما أن يكون لبلوغه الغاية في الظهور والجلاء بحيث لايوجد شيء أعرف منه ليُجعل معرفاً له فالعجز عن تعريف العلم ناتج عن كون ماهيته متصورة تصوراً بد هياً جلياً فلاحاجة في معرفته إلى معرِّف ، والدليل عليه أن كل أحد يعلم بالضرورة أنه يعلم وجود نفسه وأنه يعلم أنه ليس على السماء ولافي لجة البحر ، والعلم الضروري بكونه عالماً بهذه الأشياء علم باتصاف ذاته بهذه العلوم ، والعالم بانتساب شيء إلى شيء عالم لامحالة بكلا الطرفين ، فلما كان العلم الضروري بهذه المنسوبية حاصلاً كان العلم الضروري بماهية العلم حاصلاً ، وإذا كان كذلك كان تعريفه ممتنعاً ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢ ص ٢٠١ - ٢٠٣) ٠

يبدو أن الرازي يريد بنفيه لوجود تعريف للعلم أنه لايوجد تعريف شامل جامع مانع لكلمة << علم >> بحيث يدخل ضمن أفراده كل علم أياً كان نوعه سواء كان علماً ضرورياً بدهياً أو علماً نظرياً كسبياً ٠

لكن الرازي اقتصر في مناقشته لمفهوم العلم على تعريفات لأشخاص عرفوا باعتمادهم كثيراً على علم الكلام والفلسفة وعلم المنطق بل إنهم قد تأثروا ببعض المذاهب والمعتقدات مما كان له أثره في تعريفهم للعلم.

وهذا عكس التعريف الذي طرحه أعلام السنة فيما بعد • من ذلك تعريف ابن القيم الذي يتسم بالوضوح والسهولة ، حيث يُعرّف العلم : بأنه نقل صورة المعلوم من الخارج وإثباتها في النفس •

والعلوم التي تثبت في النفس - عنده - نوعان : النوع الأول : مايكون مطابقاً للحقيقة في نفسها وهذا هو العلم الصحيح الذي تكمل النفس بإدراكه وهو العلم بالله وأسمائه وصفاته وأفعاله وكتبه وأمره ونهيه ، ومن هذا العلم الصحيح علم مطابق للحقيقة كذلك لكنه لايحصل للنفس به كمال مثل علم الفلك وغيره من العلوم الدنيويـــة •

أما النوع الثاني : فهو عبارة عن علوم تثبت في النفس لكنها غير مطابقة للحقيقـة بل صور خيالية ليس لها وجود حقيقي وأكثر علوم الناس من هذا النوع • (ابن القيم - ١٤٠٦هـ - ص ١٢٧) •

ويظهر أن ابن القيم يريد بالعلوم غير الحقيقية مايقع في نفوس الكثير من الناس من تصورات وأفكار واعتقادات مخالفة يظنون أنها صحيحة وهي مخالفة للحقيقة وللعقيدة السليمة فينتج عن تلك التصورات مفاهيم خاطئة .

ألفاظ مرادفة للعلم :

أورد الرازي تسعة وعشرين لفظاً يُظَنّ أنها مرادفة للعلم وهي :

١ - **الإدراك** : وهو اللقاء والوصول يقال أدرك الغلام وأدركت الثمرة ، قال تعالى : ﴿ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴾ الشعراء ٦١ ·

فالقوة العاقلة إذا وصلت إلى ماهية المعقول وحصّلتها كان ذلك إدراكاً ·

٢ - **الشعور** : وهو إدراك بغير استثبات وهو أول مراتب وصول المعلوم إلى القوة العاقلة ·

٣ - **التصور** : وهو وقوف القوة العاقلة على المعنى وإدراكه بتمامه ·

٤ - **الحفظ** : إذا حصلت الصورة في العقل وتأكدت واستحكمت وصارت بحيث لو زالت لتمكنت القوة العاقلة من استرجاعها واستعادتها سميت تلك الحالة حفظاً ·

٥ - **التذكر** : وهو أن الصورة المحفوظة إذا زالت عن القوة العاقلة فإذا حاول الذهن استرجاعها فتلك المحاولة هي التذكر ·

٦ - **الذكر** : إذا عادت الصورة المراد استرجاعها إلى الذهن وحضرت بعد الطلب سمي ذلك ذكراً ·

٧ - **المعرفة** : اختلفت الأقوال في تفسير هذه اللفظة ، فمنهم من قال المعرفة التصور ، والعلم التصديق ، وهؤلاء جعلوا العرفان أعظم درجة من العلم ·

٨ - **الفهم** : وهو تصور الشيء من لفظ المخاطب · والإفهام هو اتصال المعنى باللفظ إلى فهم السامع ·

٩ - الفقــــه : وهو العلم بغرض المخاطب من خطابه يقال فقهت كلامك أي وقفت على غرضك من هذا الخطاب ، قال تعالى في كفار قريش : ﴿ لَايَكَادُوْنَ يَفْقَهُوْنَ قَوْلاً ﴾ النساء ٧٨ ٠

أي لا يقفون على المقصود الأصلي والغرض الحقيقي ٠

١٠ - العقــــل : وهو العلم بصفات الأشياء من حسنها وقبحها وكمالها ونقصانها، فإنك متى علمت مافيها من المضار والمنافع صار علمك بما في الشيء من النفع داعياً لك إلى الفعل ٠ وعلمك بما فيه من الضرر داعياً لك إلى الترك فصار ذلك العلم مانعاً من الفعل مرة ومن الترك أخرى فيجري ذلك العلم مجرى عقال الناقة ٠

١١ - الدرايــــة : وهي المعرفة الحاصلة بضرب من الحيل ، وهو تقديم المقدمات واستعمال الروية ، وأصله من دريت الصيد ، والدرية لما يتعلم عليه الطعن ، والمدرى لما يصلح به الشعر ٠

١٢ - الحكمــة : وهي اسم لكل علم حسن وعمل صالح وهي أخص بالعلم العملي منها بالعلم النظري ، واستعمالها في العمل أكثر من استعمالها في العلم ، فيقال أحكم العمل إحكاماً إذا أتقنه ٠

١٣ - اليقيــــن : ومنه علم اليقين ، وعين اليقين ، وحق اليقين ٠

قالوا إن اليقين لا يحصل إلا إذا اعتقد أن الشيء كذا وأنه يمتنع كون الأمر بخلاف معتقده إذا كان لذلك الاعتقاد موجب وهو إما بديهية الفطرة وإما نظر العقل ٠

١٤- الذهــــن : وهو قوة النفس على اكتساب العلوم التي هي غير حاصلة ، فاستعدادها لتحصيل المعارف هو الذهن ٠

١٥ - **الفكـــر** : وهو انتقال الروح من التصديقات الحاضرة إلى التصديقات المستحضرة ، قال بعض المحققين إن الفكر يجري مجرى التضرع إلى الله تعالى في استنزال العلوم من عنده •

١٦ - **الحـدس** : الفكر لايتم عمله إلا بوجدان شيء يتوسط بين طرفي المجهول لتصير النسبة المجهولة معلومة ، فإن النفس حال كونها جاهلة كأنها واقفة في ظلمة ولابد لها من قائد يقودها وسائق يسوقها وذلك هو المتوسط بين الطرفين وله إلى كل واحد منهما نسبة خاصة فيتولد من نسبته إليهما مقدمتان ، فكل مجهول لايحصل العلم به إلا بواسطة مقدمتين معلومتين ، والمقدمتان هما كالشاهدين ، فكما أنه لابد في الشرع من شاهدين فكذا لابد في العقل من شاهدين وهما المقدمتان اللتان تنتجان المطلوب ، فاستعداد النفس لوجدان ذلك المتوسط هو الحدس •

١٧ - **الذكـاء** : وهو شدة الحدس وكماله وبلوغه الغاية القصوى •

١٨ - **الفطنــة** : وهي عبارة عن التنبه لشيء قصد التعريض به ولذلك فهي تستعمل في الأكثر في استنباط الأحاجي والرموز •

١٩ - **الخاطـر** : هو حركة النفس نحو تحصيل الدليل ، وفي الحقيقة أن ذلك المعلوم هو الخاطر بالبال والحاضر في النفس وكذلك يقال : هذا خطر ببالي ، إلا أن النفس لما كانت محلاً لذلك المعنى الخاطر جُعلت خاطراً إطلاقاً لاسم الحال على المحل •

٢٠ - **الوهــم** : وهو الاعتقاد المرجوح وقد يقال إنه عبارة عن الحكم بأمور جزئية غير محسوسة لأشخاص جزئية جسمانية كحكم السخلة بصداقة الأم لها وعداوة المؤذي لها •

٢١ - **الظـــن** : وهو الاعتقاد الراجح ، ولما كان قبول الاعتقاد للقوة والضعف غير مضبوط فكذا مراتب الظن غير مضبوطة فلهذا قيل إنه عبارة عن ترجيح أحد طرفي المعتقد في القلب على الآخر مع تجويز الطرف الآخر ثم إن الظن المتناهي في القوة يطلق عليه اسم العلم فلاجرم قد يطلق أيضاً على العلم اسم الظن كما قال بعض المفسرين في قوله تعالى :﴿ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ ﴾ البقرة ٤٦ ، قالوا إنما أطلق لفظ الظن على العلم ههنا لوجهين ، أحدهما : التنبيه على أن علم أكثر الناس في الدنيا بالإضافة إلى علمه في الأخرة كالظن في جنب العلم ٠

والثاني : أن العلم الحقيقي في الدنيا لايكاد يحصل إلا للنبيين والصديقين الذين ذكرهم الله في قوله تعالى ﴿ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ الحجرات ١٥ ، واعلم أن الظن إن كان عن أمارة قوية قُبِلَ ومُدِحَ وعليه مدار أكثر أحوال هذا العلم ٠ وإن كان عن أمارة ضعيفة ذُمَّ كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الظَّنَّ لَايُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً ﴾ يونس ٣٦ ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ الحجرات ١٢ ٠

٢٢ - **الخيـــال** : وهو عبارة عن الصورة الباقية من المحسوس بعد غيبته ٠ ومنه الطيف الوارد من صورة المحبوب خيالاً ، والخيال قد يقال لتلك الصورة في المنام وفي اليقظة ، والطيف لايقال إلا فيما كان في حالة النوم ٠

٢٣ - **البديهـــة** : وهي المعرفة الحاصلة ابتداء في النفس لابسبب الفكر كعلمك بأن الواحد نصف الاثنين ٠

٢٤ - **الأوليـــات** : وهي البديهيات بعينها ، والسبب في هذه التسمية أن الذهن يُلحق محمول القضية بموضوعها أولاً لابتوسط شيء آخر ، فأما الذي يكون بتوسط شيء آخر ، فذلك المتوسط هو المحمول أولاً ٠

٢٥ - الرويـــة : وهي حصول المعرفة بعد فكر كثير •

٢٦ - الكياســـة : وهي تمكن النفس من استنباط ما هو أنفع ولهذا قال عليه الصلاة والسلام : << الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت >> •
(الترمذي - بدون تاريخ - ج ٤ ص ٦٣٨) •

من حيث أنه لا خير يصل إليه الإنسان أفضل مما بعد الموت •

٢٧ - الخبــرة : وهي معرفة يتوصل إليها بطريق التجربة ، فالخبرة هي غزارة المعرفة •

٢٨ - الرأي : هو إحاطة الخاطر في المقدمات التي يرجى منها إنتاج المطلوب ، وقد يقال للقضية المستنتجة من الرأي رأي ، والرأي للفكر كالآلة للصانع •

٢٩ - الفراســة : وهي الاستدلال بالخَلْق الظاهر على الخُلُق الباطن ، وقد نبه الله تعالى على صدق هذا الطريق بقوله تعالى :﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ الحجر ٧٥ ، وقوله تعالى ﴿ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ ﴾ البقرة ٢٧٣ ، وقوله تعــالى : ﴿ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ ﴾ محمد ٣٠ •

والفراسة ضربان : ضرب يحصل للإنسان عن خاطره ولا يعرف له سبب ، وذلك ضرب من الإلهام ، وإياه عنى النبي صلى الله عليه وسلم بقوله : << إن في أمتي لمحدثين وإن عمر لمنهم >> (ابن حجر - بدون تاريخ - ج ٧ ص ٤٢) •

والضرب الثاني : ما يكون بصناعة متعلمة وهي الاستدلال بالأشكال الظاهرة على الأخلاق الباطنة • (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢ ص ٢٠٣ - ٢٠٨) •

٢ - فضل العلم والعلماء :

بلور الرازي فكرته عن فضل العلم والعلماء من خلال الآيات والأحاديث والآثار التي بينت فضل العلم والعلماء وحثت على طلب العلم ٠

وقد استهل الرازي بيانه لفضل العلم بقوله تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ البقرة ٣١ ٠

فهذه الآية - كما أوضح الرازي - تدل دلالة واضحة على فضل العلم ، فقد أظهر الله تعالى حكمته في خلق آدم بأن علمه العلم ، فلو كان هناك شيء أفضل أو أشرف من العلم لفضله به ، لكن لما كان العلم أشرف الأشياء أظهر الله ميزة آدم به (الرازي - التفسير الكبير ج ٢ ص ١٧٨) ٠

ثم أخذ الرازي يفصل في هذا الموضوع من خلال ماورد في الكتاب والسنة والآثار ، وكذلك دلالة العقل على فضل العلم والعلماء ، وذلك كما يلي :

أولاً : الكتاب :

دل الكتاب على فضل العلم والعلماء ، وإيضاح ذلك كما يلي :

١ - أن الله تعالى سمى العلم بالحكمة ثم عظم الحكمة ، وتعظيمها يدل على تعظيم العلم ، وقد روي عن مقاتل أنه قال : تفسير الحكمة في القرآن على أربعة أوجه :

أحدها : أن المراد بها مواعظ القرآن كما في قوله تعالى ﴿ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ ﴾ البقرة ٢٣١ ٠

ثانيها : الحكمة بمعنى الفهم والعلم ومنه قوله تعالى : ﴿ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴾ مريم ١٢ ، وقوله : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ ﴾ لقمان ١٢ ، يعني الفهم والعلم ٠

وثالثها : الحكمة بمعنى النبوة ، ومنه قوله تعالى : ﴿ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ النساء ٥٤ .

ورابعها : الحكمة بمعنى القرآن ومنه قوله تعالى ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ ﴾ النحل ١٢٥ ، ويعلق الرازي على ذلك بأن هذه الوجوه جميعها ترجع إلى العلم .

٢ - أن الله تعالى فرق بين أشياء أظهر من خلالها فضل العلم وشرفه ، ففرق بين الذين يعلمون والذين لايعلمون بقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ الزمر ٩ .

وفرق بين الخبيث والطيب بقوله تعالى : ﴿ قُل لَّا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ ﴾ المائدة ١٠٠ ، يعني بالخبيث والطيب الحرام والحلال ، وفرق بين الأعمى والبصير بقوله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴾ الأنعام ٥٠ ، وفرق بين النور والظلمة بقوله تعالى : ﴿ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ ﴾ الرعد ١٦ ، ويشير الرازي إلى أن المتأمل في هذه الآيات يجد أن الفرق بين كل أمر وضده حاصل بسبب الفرق بين العالم والجاهل .

٣ - قوله تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ النساء ٥٩ ، يذكر الرازي في شرحه لهذه الآية أن المراد بأولي الأمر العلماء على الأصح ، ويعلل ذلك بأنه يجب على الملوك أن يطيعوا العلماء ، لأن مرتبة العلماء أرفع ، فالله تعالى ذكر العالم في المرتبة الثانية في موضعين من كتابه فقال : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ ﴾ آل عمران ١٨ ، وقال تعالى : ﴿ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ النساء ٥٩ .

وزاد الله في اكرام العلماء فجعلهم في المرتبة الأولى في آيتين ، فقال تعالى : ﴿ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾ آل عمران ٧ ، وقال تعالى : ﴿ قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴾ الرعد ٤٣ .

٤ - ذكر الله تعالى الدرجات لأربعة أصناف :

الصنف الأول : المؤمنون من أهل بدر ، قال فيهم : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ إلى قوله : ﴿ لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ الانفال ٤ ٠

الصنف الثاني : المجاهدون ، قال تعالى : ﴿ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ ﴾ النساء ٩٥ ٠

الصنف الثالث : الصالحون ، قال تعالى : ﴿ وَمَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِناً قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى ﴾ طه ٧٥ ٠

الصنف الرابع : العلماء ، قال تعالى ﴿ يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ ﴾ المجادلة ١١ ٠

ويصل الرازي من تقسيمه هذا إلى أن العلماء قد فضلوا على جميع الأصناف المذكورة « بدرجات ، فوجب أن يكون العلماء أفضل الناس » ٠

٥ - وصف الله تعالى العلماء بخمس مناقب :

الأولى : الايمان ، قال تعالى ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ ﴾ آل عمران ٧ ٠

الثانية : التوحيد والشهادة ، قال تعالى : ﴿ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ ﴾ آل عمران ١٨ ٠

الثالثة : البكاء ، قال تعالى : ﴿ وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ ﴾ الاسراء ١٠٩ ٠

الرابعة : الخشوع ، قال تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّداً ﴾ الاسراء ١٠٧ ٠

الخامسة : الخشية ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ فاطـر ٢٨ .

ومما يدل على فضل العلم وشرفه أن الله شرف به الأنبياء وفضلهم ، فعلم آدم الأسماء ، قال تعالى ﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ ﴾ البقرة ٣١ ، وعلم الخضر الفراسة ، قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْماً ﴾ الكهف ٦٥ ، وعلم يوسف علم التعبير ، قال تعالى ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ ﴾ يوسف ١٠١ ، وعلم داود صنعة الدروع ، قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَكُمْ ﴾ الأنبياء ٨٠، وعلم سليمان منطق الطير ، قال تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ ﴾ النمل ١٦ ، وعلم عيسى علم التوراة والإنجيل ، قال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ ﴾ آل عمران ٤٨ ، وعلم محمداً صلى الله عليه وسلم الشرع والتوحيد ، قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ النساء ١١٣ ، وقال تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ البقرة ١٢٩ ، وقال تعالى : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ الرحمن ٢ .

فعلم آدم كان سبباً في سجود الملائكة له ، وعلم الخضر كان سبباً في جعل موسى تلميذاً له ، وعلم يوسف كان سبباً لوجدان الأهل والمملكة ، وعلم داود كان سبباً لوجدان الرياسة والدرجة ، وعلم سليمان كان سبباً لوجدان بلقيس والغلبة ، وعلم عيسى كان سبباً لزوال التهمة عن أمه ، وعلم محمد صلى الله عليه وسلم كان سبباً لوجود الشفاعة .

ثم يُذَكِّر الرازي العلماء بأن يتذكروا دائماً مِنَّةَ الله وفضله عليهم ، وخاصة الذين مَنَّ الله عليهم بتفسير كتابه الكريم ، فذلك أجل وأعظم نعمة ، حيث جعل عالم التفسير مفسراً لكلام الله ووارثاً لنبيه وداعياً لخلقه وواعظاً لعباده ، وزاجراً لهم عن ناره وعقابه .

٦ - أول ما نزل من القرآن قوله تعالى : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ـ يشير الرازي – هنا – إلى وجه التناسب بين قوله تعالى : ﴿ خلق الإنسان من علق ﴾ وبين قوله : ﴿ اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم ﴾ ، فوجه التناسب أن الله تعالى ذكر أول حال الإنسان ، ثم ذكر بعد ذلك آخر حالات الإنسان وهي صيرورته عالماً وهي أجل المراتب وأعلاها ، فكأنّ الله تعالى يذكر الإنسان بحالته الأولى التي تعد في غاية الحقارة وبآخر حالته التي تعد في غاية الشرف ، وهذا دليل على أن أجل المراتب وأشرفها هي مرتبة العلم ، فلو كان هناك أمر اشرف من العلم لكان أولى بالذكر في هذا المقام ٠

يضاف إلى ذلك أن الله تعالى قد وصف نفسه بالأكرم لأنه أكرم الإنسان بأعظم أنواع الإكرام وهو العلم ، فلما وصف نفسه بالأكرم لهذا السبب دل ذلك على أن العلم أشرف من غيره ٠

٧ - يستنتج الرازي من قولـه تعالى : ﴿ إنما يخشى اللّهَ من عباده العلماءُ ﴾ ، فاطر ٢٨ ، عدة أمور :

الأول : أن العلماء من أهل الجنة ، لأنهم من أهل الخشية ، يؤيد ذلك قوله تعالى : ﴿ جَزَاؤُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ إلى قولـه : ﴿ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ البينة ٨ ٠

الثاني : كلمة ﴿ إنما ﴾ في قوله : ﴿ إنما يخشى ﴾ للحصر ، فدل ذلك على أن خشية الله لاتحصل إلا للعلماء ، والآية الثانية ﴿ ذلك لمن خشي ربه ﴾ دلت على أن الجنة لأهل الخشية ، فمجموع الآيتين دال على أنه ليس للجنة أهل إلا العلماء ٠

الثالث : الآية مشتملة على تنبيه وتخويف شديد ، فهي تثبت أن الخشية من الله تعالى من لوازم العلم بالله ، وأن عدم الخشية من الله من لوازم عدم العلم بالله ، فالعلم سبب في التقرب من الله لأنه يورث الخشية ٠

٨ - قوله تعالى : ﴿ وَقُلْ رَبِّي زِدْنِي عِلْماً ﴾ طه ١١٤ ، هذه الآية أكبر دليل على نفاسة العلم وعلو مرتبته وعظم محبة الله إياه ، حيث أمر نبيه صلى الله عليه وسلم بالازدياد من العلم خاصة دون غيره •

٩ - كان ملك سليمان عليه السلام في الدنيا ملكاً عظيماً ومع ذلك افتخر بالعلم ولم يفتخر بالمملكة حيث قال : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ النمل ١٦ ، فقدم علمه بمنطق الطير على غيره • ولما ذكر الله تعالى حال داود وسليمان قدم العلم أولاً فقال : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ﴾ إلى قوله : ﴿ وَكُلاً آتَيْنَا حُكْماً وَعِلْماً ﴾ الأنبياء ٧٤ ، ثم ذكر الله بعد ذلك مايتعلق بأحوال الدنيا مما يدل على أن العلم أشرف •

١٠ - قال تعالى : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً ﴾ النساء ١١٣ ، وصف الله العلم هنا بأنه عظيم ، وقال أيضاً : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ﴾ الرحمن ٢ ، فقدم نعمة تعليم القرآن على جميع النعم فدل على أن نعمة العلم أفضل من أى نعمة سواها •

١١ - كتب الله جميعها ناطقة بفضل العلم :

ففي التوراة قال الله تعالى لموسى عليه السلام : « عظم الحكمة فإني لاأجعل الحكمة في قلب عبد إلا وأردت أن أغفر له فتعلمها ثم اعمل بها ثم ابذلها كي تنال بها كرامتي في الدنيا والآخرة »•

وفي الزبور قال سبحانه وتعالى : ﴿ ياداود قل لأحبار بني إسرائيل ورهبانهم حادثوا من الناس الأتقياء فإن لم تجدوا فيهم تقياً فحادثوا العلماء فإن لم تجدوا عالماً فحادثوا العقلاء ، فإن التقى والعلم والعقل ثلاث مراتب ماجعلت واحدة منهن في أحد من خلقي وأنا أريد إهلاكه ﴾•

ويعلل الرازي السبب في تقديم الله تعالى للتقى على العلم - هنا - بأن التقى

لايوجد بدون العلم، كما أن الخشية لاتحصل إلا مع العلم، أما تقديم العالم على العاقل فلأن العالم لابد أن يكون عاقلاً، بينما العاقل قد لايكون عالماً، فالعقل كالبذرة والعلم كالشجرة والتقوى كالثمرة.

وفي الانجيل قال الله تعالى في السورة السابعة عشرة منه: ﴿ ويل لمن سمع بالعلم فلم يطلبه كيف يحشر مع الجهال إلى النار، اطلبوا العلم وتعلموه فإن العلم إن لم يسعدكم لم يشقكم وإن لم يرفعكم لم يضعكم وإن لم يغنكم لم يفقركم وإن لم ينفعكم لم يضركم ولاتقولوا نخاف أن نعلم فلانعمل ولكن قولوا نرجوا أن نعلم فنعمل ﴾.

وفي الانجيل - أيضا -: ﴿ ياعيسى عظم العلماء واعرف فضلهم لأني فضلتهم على جميع خلقي إلا النبيين والمرسلين كفضل الشمس على الكواكب، وكفضل الآخرة على الدنيا، وكفضلي على كل شيء ﴾.(الرازي - التفسير الكبير - ج ٢ ص ١٧٨، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٨، ١٨٩).

ثانيا: فضل العلم والعلماء في السنة:

استشهد الرازي في حديثه عن فضل العلم والعلماء بمجموعة كبيرة من أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم منها مايأتي:

١ - قال عليه السلام: «معلم الخير إذا مات بكى عليه طير السماء ودواب الأرض وحيتان البحور».

٢ - قال عليه السلام لعلي حين بعثه إلى اليمن: «لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك مما تطلع عليه الشمس أو تغرب».

٣ - قال صلى الله عليه وسلم: «يؤتى بمداد طالب العلم ودم الشهيد

يوم القيامة لايفضل أحدهما على الآخر >> ٠

٤ - عن أبي واقد الليثي : أنه عليه السلام بينما هو جالس والناس معه إذا أقبل ثلاثة نفر ، أما أحدهم فرأى فرجة في الحلقة فجلس إليها ، وأما الآخرفجلس خلفهم ، وأما الثالث فإنه رجع وفر فلما فرغ عليه السلام من كلامه قال : <<أخبركم عن النفر الثلاثة ٠ أما الأول : فآوى إلى الله فآواه الله ، وأما الثاني فاستحيا من الله فاستحيا الله منه ، وأما الثالث فأعرض عن الله فأعرض الله عنه >> ٠ رواه مسلم ٠ (النووي - بدون تاريخ - ص ٥٠٨) ٠

٥ - قال صلى الله عليه وسلم : << من سلك طريقاً يبتغي به علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة ، وما اجتمع قوم في مسجد من مساجد الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفت بهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده >> رواه مسلم ٠(ابن عبدالبر - ١٩٧٥م - ص١٠)٠

٦ - قال عليه الصلاة والسلام : << يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ثم العلماء ثم الشهداء >> ٠ (ابن عبدالبر - ١٩٧٥ - ص ٣٣) ٠

٧ - عن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : <<تعلموا العلم فإن تعلمه لله خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث عنه جهاد ، وتعليمه صدقه ، وبذله لأهله قربة >> ٠

٨ - عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال : << إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث ، صدقة جارية ، أو علم ينتفع به ، أو ولد صالح يدعو له بالخير >> ٠(ابن عبدالبر - ١٩٧٥م - ص ١١)٠

٩ - قال عليه الصلاة والسلام : << الناس كلهم موتى إلا العالمون >> ٠ (الرازي

- التفسير الكبير - ج ٢ ص ١٨٠ ، ١٩٠ ، ١٩١) •

ثالثا : بعض الآثار التي تشير إلى العلم وشرفه والعلماء وفضلهم :

أورد الرازي بعض الآثار التي تبين فضل العلم والعلماء وهي كما يلي بشيء من الايجاز والتصرف :

١ - العالم أرأف بالتلميذ من الأب والأم ، لأن الآباء والأمهات يحفظونه من نار الدنيا وآفاتها والعلماء يحفظونه من نار الآخرة وشدائدها•

٢ - العلم أفضل من المال ، لأنه مع وجود المال جمال لصاحبه ، ومع فقد المال يعوض صاحبه عن المال•

٣ - العلماء ثلاثة : عالم بالله غير عالم بأمر الله ، وعالم بأمر الله غير عالم بالله ، وعالم بالله وبأمر الله ، فالأول عبد قد استولت المعرفة الإلهية على قلبه ، والثاني هو الذى عرف الحلال والحرام وحقائق الأحكام لكنه لايعرف أسرار جلال الله ، والثالث جالس على الحد المشترك بين عالم المعقولات وعالم المحسوسات فهو تارة مع الله بالحب له ، وتارة مع الخلق بالشفقة والرحمة •

٤ - العلم أفضل من المال لعدة وجوه :

الأول : العلم ميراث الأنبياء ، والمال ميراث الفراعنة •

الثاني : العلم لاينقص بنشره وتعليمه ، والمال ينقص بالنفقة •

الثالث : يحتاج المال إلى من يحفظه ، بينما العلم يحفظ صاحبه •

الرابع : إذا مات الرجل يبقى ماله بعده ، أما علمه فيدخل معه قبره •

الخامس : المال يحصل للمؤمن والكافر والعلم لايحصل إلا للمؤمن •

السادس : جميع الناس يحتاجون إلى صاحب العلم في أمر دينهم ، ولا يحتاجون إلى صاحب المال .

السابع : العلم يساعد صاحبه على المرور على الصراط والمال يمنعه .

٥ - العلماء سادة والفقهاء قادة ومجالستهم زيادة .

٦ - لا يستطيع الإنسان أداء الفرائض إلا بالعلم ، ولا يقدر على اجتناب المعاصي إلا بالعلم ، ولا يقدر على شكر نعم الله إلا بالعلم ، ولا يقدر على انصاف الخلق إلا بالعلم ، ولا يستطيع الصبر على البلاء إلا بالعلم ، ولا يقدر على معاداة الشيطان إلا بالعلم .

٧ - الناس ثلاثة : عالم ، ومتعلم ، وهمج رعاع لم يستضيئوا بنور العلم .

٨ - بالعلم يكتسب الإنسان الطاعة في حياته ، وجميل الذكر بعد وفاته .

٩ - يجب ملازمة مجالس العلماء ، لأن مجالسهم أفضل تربة على وجه الأرض ، فإذا سمع الإنسان العلم في تلك المجالس خاف وتاب وانصرف من مجلس العلم إلى منزله وقد زالت عنه ذنوبه .

١٠ - بالعلم يحصل الإنسان على الأدب فتكمل مروءته ، ويصير أنيساً له في الوحشة وصاحباً في الغربة ، ويكسبه الظهور على غيره في المجالس ، ويكون وسيلة له يقضي بها حاجاته إذا فقد جميع الوسائل ، والعلم غنى عن العدم والفقر ، ورفعة للحقير ، وكمال للشريف ، وجلالة للملك .

١١ - ثلاثة لا يجوز الاستخفاف بهم : العالم ، والسلطان ، والإخوان ، لأن من استخف بالعالم أهلك دينه ، ومن استخف بالسلطان أهلك دنياه ، ومن استخف بالإخوان أهلك مروءته .

١٢ - يجد الإنسان من يخدمه في كل الأشياء إلا العلم ، فلا يمكن أن يخدمه فيه أحد ،

بل لابد أن يخدم العلم بنفسه ، كما أن جميع الأشياء يمكن أن تسلب من أصحابها إلا العلم فإنه لايمكن سلبه من صاحبه وهذا دليل على فضيلة العلم •
(الرازي – التفسير الكبير – ج ٢ ص ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٢ ، ١٨٣ ، ١٨٤ ، ١٩٢) •

خلاصة رأي الرازي في فضل العلم والعلماء :

بعد أن بين الرازي فضل العلم والعلماء من خلال الكتاب الكريم والسنة المطهرة والأقوال المأثورة انتقل إلى بيان المكانة التي يحتلها العلم والعلماء من الناحية العقلية ، فالعقل يُمَجد العلم وأهله وينزلهما المنزلة العالية الرفيعة • ويتضح رأى الرازي من خلال العناصر التالية :

١ – العلم صفة شرف وكمال والجهل صفة نقص ، وذلك أن الرجل العالم لو وُصف بأنه جاهل لتأذى من هذا الوصف مع أنه لاينطبق عليه ، ولو وُصف الرجل الجاهل بأنه عالم لفرح بذلك مع أنه يعلم أنه جاهل ، فدل ذلك على أن العلم شريف لذاته ومحبوب لذاته ، والجهل نقصان لذاته ومكروه لذاته •

٢ – صاحب العلم محترم ومعظم أينما كان ؛ فالعلماء رؤساء – بالطبع – على من دونهم في العلم ، حتى إن الذين يعاندونهم ويعادونهم إذا رأوهم هابوهم وانقادوا لهم •

٣ – العالم يعيش في سعادة تامة ، لأنه مشغول بالتفكير في أنواع المعرفة ، فكأنه يطير في أقطار الملكوت فيطالع ألوان المعرفة بكلياتها وجزئياتها وجميع المعلومات بتفاصيلها وأقسامها وبذلك يصير في غاية السعادة •

٤ - إن الله تعالى لما قال: ﴿ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ قالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا ﴾ فقال سبحانه: ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾، فأجابهم سبحانه وتعالى بكونه عالماً، ولم يجبهم بأي صفة أخرى غير صفة العلم، مع أن صفاته تعالى في نهاية الشرف والكمال إلا أن صفة العلم أشرف من غيرها .

٥ - جعل الله آدم مسجوداً للملائكة وخليفة في الأرض، ولم يستحق آدم - عليه السلام - هذه المنزلة إلا بما آتاه الله من العلم .

٦ - لم يجادل الأنبياء أقوامهم ولم يتغلبوا على معارضيهم إلا بما آتاهم الله من العلم، فإبراهيم عليه السلام ما وصل إلى أعلى الدرجات وما أعرض عن الشرك واعتمد على الله إلا بالعلم، كما حكى الله عنه ذلك في قوله: ﴿ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ﴾ الأنعام ٧٩، فلما وصل إلى هذه الدرجة من العلم مدحه الله تعالى بأشرف المدائح وعظّمه على أتم وجه، فقال تارة: ﴿ وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ الأنعام ٧٥، وقال أخرى: ﴿ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ ﴾ الأنعام ٨٣، وقد استخدم إبراهيم ما لديه من علم وحجة في محاجته تارة مع أبيه كما في قوله: ﴿ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ ﴾ مريم ٤٢، وتارة مع قومه فقال: ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ الأنبياء ٥٢، وتارة أخرى مع ملك زمانه فقال: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ ﴾ البقرة ٢٥٨ .

٧ - وكذلك حال صالح وهود وشعيب فكانوا في أول أمرهم وآخره مشتغلين بالتعلم والتعليم وإرشاد الخلق إلى النظر والتفكر في الدلائل، وكذلك أحوال موسى عليه السلام مع فرعون وجنوده، فإن كل الدلائل التي اعتمد عليها موسى تدل على ما منَّ الله به عليه من العلم والحجة البالغة .

٨ - وانظر إلى حال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كيف مَنَّ الله عليه بالعلم مرة بعد أخرى، فقال تعالى: ﴿ وَوَجَدَكَ ضَالاً فَهَدَىٰ وَوَجَدَكَ عَائِلاً فَأَغْنَىٰ ﴾ الضحى ٧، ٨ فقدم الامتنان بالعلم على الامتنان بالمال، وقال أيضاً: ﴿ مَاكُنْتَ تَدْرِي مَاالْكِتَابُ وَلَاالْإِيمَانُ ﴾ الشورى ٥٢، وقال: ﴿ مَاكُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَاقَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ ﴾ هود ٤٩، ثم إنه أول ماأوحى إليه قال تعالى: ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ ﴾ العلق ١، وقال: ﴿ وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ ﴾ النساء ١١٣.

٩ - قال تعالى في صفة طالوت: ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾ البقرة ٢٤٧، فقدم العلم على الجسم، ولاشك أن المقصود من سائر النعم سعادة البدن، فإذا كانت السعادة العلمية راجحة على السعادة الجسمانية فأولى أن تكون راجحة على السعادة المالية.

١٠ - قال يوسف عليه السلام كما حكى الله عنه: ﴿ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴾ يوسف ٥٥، فلم يقل إني حسيب فصيح مليح بل قال: عليم. (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢ ص ١٩٨ - ٢٠٠).

أشرف العلوم علم التوحيد :

العلوم كثيرة ومتنوعة، وهي تتفاوت من حيث الفائدة والأفضلية، لكن أفضلها وأشرفها على الإطلاق علم التوحيد الذي يسميه الرازي (علم الأصول)، ويذكر الرازي أسباباً تدل على أن علم التوحيد هو أشرف العلوم وهي:

١ - أشرف العلوم علم الدين، وأشرف العلوم الدينية علم الأصول، لأنه يتعلق بذات الله وصفاته.

٢ - علم الأصول هو الأساس في وجود العلوم الدينية الأخرى، كما أن صحة العلوم الدينية تتوقف عليه، فالمفسر يبحث عن معاني كلام الله تعال وهو فرع عن

وجود الصانع المختار المتكلم ، والمحدث يبحث عن كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وذلك فرع على ثبوت نبوته عليه الصلاة والسلام ، والفقيه يبحث عن أحكام الله وذلك فرع على التوحيد والنبوة ، فثبت أن هذه العلوم مفتقرة إلى علم الأصول (التوحيد) ، ويظهر أن علم الأصول غني عنها فوجب أن يكون علم الأصول أشرف العلوم •

٣ - شرف الشيء يظهر بواسطة خساسة ضده ، وضد علم الأصول الكفر والبدعة وهما أخس الأشياء فوجب أن يكون علم الأصول أشرف الأشياء •

٤ - شرف الشيء قد يكون بشرف موضوعه ، وقد يكون لأجل شدة الحاجة إليه ، وقد يكون لقوة براهينه ، وعلم الأصول مشتمل على ذلك كله ؛ فموضوع علم الأصول هو معرفة ذات الله تعالى وصفاته وأفعاله ، ولاشك أن ذلك أشرف الأمور • وأما الحاجة إليه فشديدة ، لأنها إما أن تكون في الدين أو في الدنيا ، أما في الدين فشديدة ؛ لأن من عرف أمور دينه استوجب الثواب العظيم ، ومن جهلها استوجب العقاب العظيم ، وأما في الدنيا فلأن مصالح العالم إنما تنتظم عند الإيمان بالله والبعث والحشر ، إذ لو لم يحصل هذا الإيمان لوقع الهرج والمرج في العالم •

وأما قوة البراهين ، فبراهين هذا العلم يجب أن تكون مركبة من مقدمات يقينية تركيباً يقينياً وهذا هو النهاية في القوة ، فثبت أن هذا العلم مشتمل على جميع جهات الشرف والفضل فوجب أن يكون هذا العلم أشرف العلوم •

٥ - علم الأصول لايتطرق إليه النسخ ولاالتغيير ، ولايختلف باختلاف الأمم والنواحي بخلاف سائر العلوم ، لذا وجب أن يكون أشرف العلوم •

٦ - الآيات المشتملة على مطالب علم الأصول وبراهينه أشرف من الآيات المشتملة على المطالب الفقهية بدليل أنه جاء في فضيلة ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ و ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ ﴾ وآية الكرسي مالم يجيء مثله في فضيلة قولـــــــــــــــه :

﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ ﴾ البقرة ٢٢٢ ، وقوله : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ ﴾ البقرة ٢٨٢، وذلك يدل على أن هذا العلم أفضل .

٧ - الأيات الواردة في الأحكام الشرعية أقل من ستمائة آية ، وأما البواقي ففي بيان التوحيد والنبوة والرد على عبدة الأوثان وأصناف المشركين ، وأما الآيات الواردة في القصص فالمقصود منها معرفة حكمة الله تعالى وقدرته ، كما قال تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ يوسف ١١ ، فدل ذلك على أن هذا العلم أفضل .

٨ - لم يكن جدال الأنبياء مع أقوامهم في تفاصيل الأحكام الشرعية بل كان في التوحيد والنبوة ، فالمجادلة في هذا العلم - من أجل نصرة الحق - هي حرفة الأنبياء فانظر - مثلاً - إلى مناظرة موسى عليه السلام مع فرعون في التوحيد والنبوة ، ففي سورة طه : ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ ﴾ طه ٤٩ ، ٥٠ ، وفي سورة الشعراء : ﴿ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ﴾ الشعراء ٢٦ ، فلما لم يكتف فرعون بذلك وطالبه بشيء آخر قال موسى: ﴿ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ ﴾ الشعراء ٢٨ ، والأدلة التي اعتمد عليها موسى هي نفس الأدلة التي اعتمد عليها إبراهيم ، فدليل موسى الأول يتفق مع قول إبراهيم : ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ﴾ الشعراء ٧٨ ، والدليل الثاني يتفق مع قوله : ﴿ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ﴾ البقرة ٢٥٨ ، والدليل الثالث يتفق مع قوله : ﴿ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ ﴾ البقرة ٢٥٨ ، فهذا يدل على أن التمسك بهذه الدلائل حرفة جميع الأنبياء في اثباتهم لوجود الله وتوحيده .

أما استدلال موسى على النبوة بالمعجزة ففي قوله : ﴿ أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴾ الشعراء ٣٠ ، فهذا استدلال بالمعجزة على صدق نبوته .

أما محمد صلى الله عليه وسلم فإن اشتغاله بالدلائل على التوحيد والنبوة والمعاد أظهر وأشهر ، فالقرآن الكريم مملوء من تلك الدلائل ، ولقد كان - عليه الصلاة والسلام - مبتلى بجميع فرق الكفر الذين أبطل الله تعالى أقوالهم بأنواع الدلائل . (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢ ص ٨٧ - ٩٠ ، ج ١٥ ص ١٩٣) .

الفصـــل الثامـــن

١ - آداب العالم والمتعلـــم .

٢ - أساليب التعليم والتعلـم .

١ - آداب العالم والمتعلم :

تكاد تكون آداب العالم والمتعلم - عند الرازي - مشتركة بينهما ، فالآداب اللازمة للعالم ينبغي أن يلتزم بها المتعلم أيضاً ، ولذلك لايمكن فصل أحدهما عن الآخر بآداب خاصة به ، وإن كانت في مجملها تشير إلى العلماء أكثر من إشارتها إلى المتعلمين •

ويمكن تصنيف تلك الآداب فيما يلي :

أولا : يجب أن يتطابق فعل العالم مع قوله :

العالم الذى يعظ الناس ويرشدهم ويعلمهم يجب أن يتوافق فعله مع قوله ، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو إرشاد الناس إلى تحصيل المصلحة وتحذيرهم من الوقوع في المفسدة ، والناس يتأثرون بالفعل أكثر من القول ، ولذلك وجب على معلم الناس الخير أن يتعظ في نفسه ، لأن الإحسان إلى النفس في هذا المجال أولى من الإحسان إلى الغير • والعالم الذي يظهر علمه للناس ثم لايتعظ يصير وعظه سبباً لرغبة الناس في المعصية حيث يظنون أن هذا العالم لو كان يعلم أن هناك أصلاً لتلك التخويفات والمنهيات التي ينهى عنها لما ارتكب المعاصي ، فيؤدي ذلك إلى تهاونهم بالدين والجرأة على المعصية • فالعالم الذي يزجر عن المعصية ثم يأتي بفعل يوجب الجرأة عليها يكون قد جمع بين المتناقضين ، وهذا الفعل لايليق بالعلماء العقلاء • فالعالم يجب أن يجتهد في أن يصير وعظه نافذاً في قلوب الناس ، ولايتم له ذلك إلا إذا طابق قوله فعله ، فعدم التزام العالم بما يقول ينفر القلوب عن القبول ، ولايكون لقوله صدى ، ولهذا قال علي - رضي الله عنه - • قصم ظهري رجلان : عالم متهتك وجاهل متنسك •

ولذلك لايصح للعاصي أن يأمر بالمعروف أو ينهى عن المنكر ، بدليل قوله تعالى ﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنسَوْنَ أَنفُسَكُمْ ﴾ البقرة ٤٤ ، فقد وردت هذه الآية في

معرض الذم لمن يأمر بالبر ولا يأتمر به ، وكذلك قوله تعالى : ﴿ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾ الصف ٣ ..

وفي الحديث عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **« مررت ليلة أسري بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من النار فقلت يا أخي جبريل من هؤلاء ؟ فقال : هؤلاء خطباء من أهل الدنيا كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم »** .

وقال عليه الصلاة والسلام : **« إن في النار رجلاً يتأذى أهل النار بريحه فقيل من هو يارسول الله ؟ قال : عالم لاينتفع بعلمه »** .

وقال عليه الصلاة والسلام : **« مثل الذي يعلم الناس الخير ولايعمل به كالسراج يضيء للناس ويحرق نفسه »** . (الرازي - التفسير الكبير - ج٣ ص ٤٦ - ٤٨) .

ثانيا : يجب على العلماء نشر العلم :

يرى الرازي أن أعلى المقامات أن يصير العالم عالماً في ذاته معلماً لغيره ، فالهدف من التفقه والتعلم هو دعوة الخلق إلى الحق ، وإرشادهم إلى الدين القويم والصراط المستقيم ، فكل من تفقه وتعلم لهذا الغرض كان على المنهج القويم والصراط المستقيم ، ومن عدل عن ذلك وطلب الدنيا بالدين كان من الأخسرين أعمالاً الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا ويحسبون أنهم يحسنون صنعاً . فيجب على العالم أن ينذر الناس ويعلمهم لقوله تعالى : ﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ الأنفال ١٢٢ .

وقد نص القرآن الكريم على عدم جواز كتمان العلم ، فدل ذلك على وجوب نشره وتعليمه للناس ، قال تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ

وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ مَايَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ البقرة ١٧٤ ٠

يشير الرازي إلى أن هذه الآية - وإن كانت قد نزلت في اليهود - إلا أن حكمها عام فهي تدل على تحريم الكتمان لكل علم في باب الدين ، فالعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب ، فهي عامة في حق كل من كتم علماً ولاسيما في علم الدين ٠

ومن الآيات التي تحث على نشر العلم قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيْثَاقَ الَّذِيْنَ أُوْتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَاتَكْتُمُوْنَهُ فَنَبَذُوْهُ وَرَاءَ ظُهُوْرِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيْلاً فَبِئْسَ مَايَشْتَرُوْنَ ﴾ آل عمران ١٨٧ ٠

فعند الرازي أن هذه الآية لاتخص اليهود والنصارى بل تسري أيضاً على المسلمين لأنهم أهل القرآن وهو أشرف الكتب ، ويؤيد الرازي ماذهب إليه بقول الحسن البصري حين قال له الحجاج : ماالذي بلغني عنك ؟ أنت قلت : إن النفاق كان مقموعاً فأصبح قد تعمم وتقلد سيفاً ٠ فأجابه الحسن : لأن الله أخذ ميثاق الذين أوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولايكتمونه ٠

وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : << من كتم علماً عن أهله أُلجم بلجام من نار >> ٠

فالآية الكريمة وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم فيهما وعيد شديد لكل من لم يبين الحق للناس وكتم شيئاً منه لغرض فاسد أو للحصول على منفعة ، أو لتقية أو خوف ، أو لبخل بالعلم ٠

وقد وصف الله تعالى العلماء الذين ينشرون العلم بأنهم ربانيون ، وذلك في قوله تعالى : ﴿ وَلَكِنْ كُوْنُوا رَبَّانِيِّيْنَ بِمَا كُنْتُمْ تُعَلِّمُوْنَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنْتُمْ تَدْرُسُوْنَ ﴾ آل عمران ٧٩ ٠

فهذه الآية - كما يشير الرازي - تحث العلماء على العمل بالعلم والاشتغال بتعليمه للناس ، فالتعليم أولى من طلب العلم ، فإذا صار الإنسان عالماً وجب عليه نشر ماعلمه من العلم ، فالعلماء الربانيون لايكتفون بالعلم بل يضمون إليه التعليم ، يدل على ذلك قول مرة بن شراحيل : كان علقمة من الربانيين الذين يعلمون الناس القــــرآن .

ولايكون العالم ربانياً إلا إذا جمع بين العلم والعمل ، فالعلم والتعليم والدراسة توجب على صاحبها أن يكون ربانياً ، أي أن يكون تعلمه لله ، وتعليمه ودراسته لله ، وأن يكون الداعي له إلى ذلك كله رغبته في مرضاة الله تعالى ، فمن اشتغل بالتعلم والتعليم لغير الله فقد ضاع سعيه وخاب عمله وكان مثله مثل من غرس شجرة حسناء مونقة بمنظرها ولامنفعة بثمرها ، ولهـذا قال الرسول صلى الله عليه وسلم : « نعوذ بالله من علم لاينفع وقلب لايخشع » .

وللسعادة - في هذا المجال - مرتبتان : سعادة تامة ، وسعادة فوق التامة ، أما السعادة التامة فهي أن يكتسب الإنسان من الصفات الفاضلة مايصير بها كاملاً في ذاته ، فإذا فرغ من هذه الدرجة انتقل إلى الدرجة الأعلى منها وهي التي فوق التامة ، وهي الاشتغال بتكميل الناقصين وماذاك إلا بتعليمهم العلم . وإلى الدرجة التامة أشار بقوله تعالى ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا ﴾ فصلت ٣٠ ، وإلى الدرجة التي فوق التامة أشار بقوله تعالى : ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ ﴾ فصلت ٣٣ .

(الرازي - التفسير الكبير - ج ٢١ ص ٧٤ ، ج ١٦ ص ٢٢٨ ، ج ٩ ص ١٣٠ ، ١٣١ ، ج ٥ ص ٢٨ ، ج ٨ ص ١١٢ ، ١١٣ ، ج ٢٧ ص ١٢٤) .

ثالثا : دعوة الناس بالطرق المناسبة على قدر عقولهم وعلمهم :

يدعو الرازي العالم إلى أن يدعو الناس بالحكمة والموعظة الحسنة وأن يجادلهم بالتي هي أحسن اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم، فقد امتثل لأمر ربه في قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ النحل ١٢٥ .

ففي شرح الرازي لهذه الآية أوضح أنها تشتمل على ثلاث طرق للدعوة وهي الدعوة بالحكمة، والدعوة بالموعظة الحسنة، والدعوة بالمجادلة بالتي هي أحسن .

فأولها : الحجة القطعية المفيدة للعقائد اليقينية، وهذا الطريق هو المسمى بالحكمة، وهذا الطريق هو أشرف الدرجات وأعلى المقامات، وهي التي وصفها الله تعالى بقوله: ﴿ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ البقرة ٢٦٩ .

وثانيها: الأمارات الظنية والدلائل الاقناعية، وهذه الطريق هي الموعظة الحسنة .

وثالثها: الدلائل التي يراد بها إلزام الخصوم وإفحامهم، وهذه الطريق هي طريق الجدل . والجدل على قسمين:

القسم الأول : الجدل الواقع على الوجه الأحسن وهو الذي يكون فيه الدليل مركباً من مقدمات مسلمة .

القسم الثاني : الجدل الذي يكون فيه الدليل مركباً من مقدمات باطلة فاسدة يحاول قائلها ترويجها على المستمعين بالسفاهة والشغب والحيل الباطلة والطرق الفاسدة، وهذا القسم الأخير لايليق بأهل الفضل من العلماء إنما اللائق بهم هو القسم الأول وهو المراد بقوله تعالى : ﴿ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ النحل ١٢٥ .

وبناء على هذه الطرق الثلاث للدعوة يقسم الرازي الناس الذين تُوجّه إليهم الدعوة إلى ثلاث طوائف :

الطائفة الأولى : الكاملون الذين يطلبون المعارف الحقيقية والعلوم اليقينية ، ودعوة هؤلاء ومخاطبتهم لاتكون إلا بالدلائل القطعية اليقينية وهي (الحكمة) ، ولأن هذه الطائفة تعتبر في عداد الحكماء المحققين فهم أعلى مراتب الخلائق وهم الذين يتقبلون الحق ، ولذلك فالأسلوب الذي ينبغي أن يستعمل معهم هو قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ ﴾ النحل ١٢٥ •

الطائفة الثانية : الذين يغلب على طباعهم العناد والمشاغبة والمخاصمة ، أي أنهم لايريدون طلب المعرفة الحقيقية والعلوم اليقينية ، فالمخاطبة اللائقة بهؤلاء هي المجادلة المؤدية إلى الافحام والإلزام ، ويمكن وصف هذه الطائفة بأنها على طرفي نقيض مع الطائفة الأولى ، فالطائفة الأولى هم طرف الكمال ، والطائفة الثانية هم طرف النقصان •• والأسلوب المستخدم مع هذه الطائفة المطبوعة على العناد والخصام هو أسلوب الجدل على الطريق الأحسن الأكمل •

الطائفة الثالثة : هي الطائفة الوسط بين الطائفتين السابقتين فهم لم يبلغوا في الكمال إلى حد الحكماء المحققين ، ولم يبلغوا في النقصان والرذالة إلى حد المشاغبين المخاصمين ، بل هم أقوام بقوا على الفطرة الأصلية والسلامة الخلقية ، فليس لديهم الاستعداد لفهم الدلائل اليقينية والمعارف الحكمية ، فالمخاطبة مع هؤلاء لاتكون إلا بالموعظة الحسنة • (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢٠ ص ١٣٨ - ١٤٠) •

رابعا : التواضع ولين الجانب :

ويجب على العالم أن يكون متواضعاً ، فلايكون هدفه من اظهار العلم والمناظرة فيه التفاخر والتكبر والترفع على غيره ؛ لأن هذه الصفات من صفات إبليس ، وقد وقع فيها كثير من الناس ، فلايليق بالعالم أن يتشبه بإبليس ، بل يجب عليه أن يتشبه

بمحمد صلى الله عليه وسلم الذى استطاع بحسن خلقه وعطفه ولينه أن يستميل إليه الناس، فمالت إليه قلوبهم وسكنت لديه نفوسهم، فتحقق بسبب ذلك المقصود والهدف الذي من أجله أُرسل وهو تبليغ تكاليف الله إلى الخلق، كما كان - صلى الله عليه وسلم - رحيماً كريماً يتجاوز عن المسيئين ويعفو عن المذنبين بل يخصهم بوجوه البر والمكرمة والشفقة، وكان كثير الميل إلى إعانة الضعفاء والفقراء، ولذلك قال الله تعالى في حقه: ﴿ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ﴾ آل عمران ١٥٩ •
(الرازي - التفسير الكبير - ج ٢١ ص ١٣٨، ج ٩ ص ٦٤) •

خامساً : يجب على العالم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

يحث الرازي العلماء على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فذلك من اختصاصهم وهم المكلفون به، لقوله تعالى: ﴿ وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ آل عمران ١٠٤ •

ففي إيضاح الرازي لمعنى هذه الآية بين أن التكليف الوارد فيها مختص بالعلماء، وقد اشتملت الآية على الأمر بثلاثة أشياء: وهي: الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر • وهذه الأمور الثلاثة لاتتم إلا بالعلم بالخير، والعلم بالمعروف، والعلم بالمنكر، فالعلم شرط لابد منه في مجال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لأن الجاهل ربما يؤدي به جهله إلى الباطل فيأمر بالمنكر وينهى عن المعروف، وربما عرف الحكم في مذهبه وجهله في مذهب من ينهاه فيقع النهي عن غير منكر، لذا ينبغي أن يكون العالم على علم بالمذاهب الأخرى •

كما يجب على العالم - في هذا السبيل - أن يستخدم لكل موقف الأسلوب المناسب، فلايغلظ في موضع اللين ولايلين في موضع الغلظة، ولاينكر على من لايزيده الانكار إلا تمادياً •

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر - يعد من فروض الكفاية فإذا قام به البعض سقط عن الباقين ، وهذا البعض هم العلماء فإذا قاموا به سقط التكليف عن باقي الأمة ٠

ومن أدب العالم - في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر - أن يتدرج في ذلك فيبدأ بالأرفق مترقياً إلى الأغلظ ، فإذا لم يتم الأمر بالتغليظ والتشديد وجب عليه القهر باليد ، فإن عجز فباللسان ، فإن عجز فبالقلب ٠

ويجب التعاون والتآلف والتآزر بين العلماء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أجل انفاذ الحق ، ولذلك حذرهم الله تعالى من الفرقة والاختلاف لئلا يصير ذلك سبباً لعجزهم عن القيام بهذا التكليف ، فقال تعالى : ﴿ وَلَاتَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَاجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ﴾ آل عمران ١٠٥ ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ٨ ص ١٦٧ - ١٦٩) ٠

سادساً : لايتوسل العالم بعلمه إلى الدنيا :

يحذر الرازي العلماء من اتخاذ العلم وسيلة لتحصيل المكاسب الدنيوية ، ويستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيْ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِيْنَ ٠ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِيْنَ كَذَّبُوْا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُوْنَ﴾ الأعراف ١٧٥ ، ١٧٦ ٠

يرى الرازي أن المراد من هذه الآية التحذير من حالة ذلك الإنسان الذي نزلت فيه ، لأنه بعد أن آتاه الله الهدى انسلخ منه إلى الضلال متبعاً هواه ، ومال إلى الدنيا وأخلد إلى الأرض فكان مصيره البوار والخسران في الدنيا والآخرة ٠ ويؤكد الرازي على أن هذه الآية من أشد الآيات على أصحاب العلم ، لأنها تدل على أن الله

تعالى قد خص ذلك الرجل - الذي كان سبباً في نزول هذه الآية - بآياته وبيناته وعلمه الاسم الأعظم وخصه بالدعوات المستجابة ، فلما اتبع هواه وانسلخ من الدين انحط إلى أخس الدرجات وهي درجة الكلب ، فدل ذلك على أن من كانت نعم الله في حقه أكثر ثم أعرض عن اتباع الهدى كان بعده عن الله أعظم •

ثم بين الرازي أن تمثيل هذا الإنسان بالكلب اللاهث له أثره البالغ في التنفير من هذه الحالة القبيحة ، فالكلب أخس الحيوانات ، والكلب اللاهث أخس الكلاب ، فمن آتاه الله العلم والدين فمال إلى الدنيا وأخلد إلى الأرض فهو - في حالته وحرصه وطمعه - شبيه بالكلب اللاهث ، وماذلك إلا لأن العالم إذا أراد الدنيا جعل علمه وسيلة إلى طلبها ، فيُظهر للناس ماعنده من أنواع العلم والفضائل مبرزاً مناقب نفسه مستخدماً فصاحته بشتى الكلمات والعبارات فيدلع لسانه لما في قلبه من حرارة الحرص وشدة العطش للفوز بالدنيا كالكلب اللاهث الذي لاينقطع عن لهاثه • (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٥ ص ٥٥ - ٥٧) •

سابعاً : على العالم أن يتدرج في دعوته :

العالم مطالب بأن يتدرج في دعوته ويترقى فيها حتى يحقق هدفه ، لأن القلوب إذا تمكنت منها المعاصي لايمكن إزالة ماعلق بها دفعة واحدة ، فهي تحتاج إلى متابعة العلاج مرة بعد أخرى بالتدريج بأسلوب تقبله تلك النفوس المريضة حتى يتم الشفاء ، فالعالم - عند الرازي - كالطبيب ، والناس المصابون بالمعاصي كالمرضى ، وأعظم وأحذق طبيب - في هذا المجال - هو محمد صلى الله عليه وسلم ، فعلى العلماء أن يقتدوا به وأن يتأدبوا بأدبه ، فقد استطاع - عليه الصلاة والسلام - أن يعالج الناس من مرض الشرك والعقائد الباطلة ، وكان الدواء الذي عالج به تلك الأمراض هو القرآن الكريم ، فهذا القرآن هو مجموع الأدوية التي بتركيبها تعالج القلوب المريضة •

ويضع الرازي أربع مراتب يتدرج من خلالها الداعية مع مريضه :

المرتبة الأولى : أن ينهاه عن تناول الأشياء التي تضره والتي بسببها وقع في المرض ، والنهي - هنا - عبارة عن الموعظة التي يقدمها الداعية ، فهي تشتمل على الزجر عن كل مايبعد عن رضوان الله تعالى ، والمنع عن كل مايشغل القلب بغير الله ٠

المرتبة الثانية : مايؤدي إلى الشفاء : وهو أن يقدم له الأدوية التي تزيل عن باطنه الأخلاط الفاسدة الموجبة للمرض ، وكذلك كان فعل الأنبياء عليهم السلام ، فإنهم يمنعون الناس عن فعل المحظورات لتصير ظواهرهم طاهرة عن الأفعال التي لاتجوز ، ثم ينتقلون بهم إلى مرحلة أرقى فيأمرونهم بطهارة الباطن والاجتهاد في إزالة الأخلاق الذميمة وكسب الأخلاق الحميدة ٠

المرتبة الثالثة : حصول الهدى ، فإذا زالت العقائد الفاسدة والأخلاق الذميمة فقد زال العائق الذي يمنع وصول النور والهدى فيصبح الإنسان قابلاً لأنوار الهدى ، فعلى الداعية أن يزوده بما يزيده ثباتاً وهداية ٠

المرتبة الرابعة : تهيئة هذه النفوس لتكون مؤثرة في نفوس الآخرين ؛ فإذا وصلت هذه النفوس إلى هذه الدرجة العالية من الهداية فإنها تصير مؤثرة في نفوس الآخرين من الناقصين ، فالنفوس الكاملة في الهداية تصير مكملة لغيرها ، ويصير تأثيرها رحمة للمؤمنين ٠ والعلماء هم نواب الأنبياء في العلم وخلفاؤهم ، فأكمل الدرجات في الدعوة إلى الله - بعد الأنبياء - درجة العلماء ، فلذلك وجب عليهم اتباع سبيل الأنبياء في المواظبة على التبليغ والدعوة بالتدرج في ذلك كما فعل الأنبياء مع أقوامهم ، وقد جاءت المراتب الأربع المذكورة في قوله تعالى :﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ يونس ٥٧ ٠

فهذه الآية مشتملة على المراتب الأربع :

فأولها : كونه موعظة من عند الله •

وثانيها: كونه شفاء لما في الصدور •

وثالثها: كونه هدى •

ورابعها: كونه رحمة للمؤمنين •

(الرازي - التفسير الكبير - ج ١٧ ص ١١٥-١١٧،ج٢٧ ص ٢٢٤ - ٢٢٥) •

ثامناً : على العالم أن يتحلى بالصبر :

يحث الرازي العلماء على الصبر انطلاقاً من قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوا اصْبِرُوْا وَصَابِرُوْا وَرَابِطُوْا وَاتَّقُوْا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُوْنَ ﴾ آل عمران ٢٠٠ •

يقرر الرازي أن سورة آل عمران مشتملة على أنوا ع كثيرة من علوم الأصول والفرو ع ، فالأصول تتعلق بتقرير التوحيد والعدل والنبوة والمعاد •

أما الفرو ع فتتعلق بالتكاليف والأحكام • وقد ختمت سورة آل عمران بهذه الآية المشتملة على جميع الآداب ، وذلك لأن أحوال الإنسان قسمان : قسم يتعلق به وحده ، وقسم مشترك بينه وبين غيره •

فالقسم الأول لابد فيه من الصبر ، والقسم الثاني لابد فيه من المصابرة •

والصبر يندر ج تحته أمور يحتا ج العلماء إلى الصبر عليها :

أولها : الصبر على مشقة النظر والاستدلال لمعرفة التوحيد والعدل والنبوة والمعاد •

ثانيها : الصبر على مشقة الاحتراز عن المنهيات •

ثالثها : الصبر على مشقة أداء الواجبات والمندوبات •

ورابعها : الصبر على شدائد الدنيا وآفاتها من المرض والفقر والخوف .

وتحت كل واحد من هذه الأقسام الأربعة أنواع كثيرة لا حصر لها .

أما المصابرة فهي عبارة عن تحمل المكاره الواقعة على العلماء من الناس ، ويدخل في ذلك مايحصل لهم من الضرر بسبب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويدخل في المصابرة الجهاد ؛ لأن فيه تعريض النفس للهلاك ، ويدخل فيه المصابرة مع المبطلين والتصدي لحل شكوكهم والجواب على شبههم ، والاحتيال في إزالة تلك الأباطيل عن قلوبهم . (الرازي - التفسير الكبير . ج ٩ ص ١٥٥) .

تاسعاً : يجب على العالم الابتعاد عن الحسد :

يحذر الرازي العلماء من الحسد ، فإذا كان الحسد قبيحاً من كل أحد فإنه من العلماء أقبح ، ووقوعه بين العلماء أشد قبحاً ، وإذا كان من الطبيعي أن يقع الحسد في الأمور الدنيوية لكثرة تزاحم الناس عليها فليس من الطبيعي أن يقع بسبب العلم ، لأنه يتعلق بما سيجنيه الإنسان في الآخرة ولا ضيق فيها ، فلاجرم أن من يحب معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وملائكته لايحسد غيره إذا كانت عنده هذه المعرفة ، والأولى أن يحصل بسبب المعرفة وكثرة العلماء الأنس والمحبة ولاسيما علماء الدين فلايكون بينهم محاسدة ، لأن قصدهم معرفة الله ، وهي بحر واسع لا ضيق فيها ، وغرضهم المنزلة عند الله ولا ضيق فيها ، فإذا كان هدفهم هو تحصيل ماعند الله فإنهم لايقعون في الحسد وإنما يتحابون في الله ، وقد وصف الله من هذه صفته بقوله تعالى : ﴿ وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ ﴾ الحجر ٤٧ .

أما العلماء الذين مرادهم من العلم تحصيل المال والجاه فإنه - لاريب - يقع بينهم الحسد وتقع بينهم العداوة والبغضاء .

ويصف الرازي الدواء المزيل للحسد ، فالدواء المزيل له هو العلم والعمل ، أما العلم فهو أن يعلم أن كل مادخل في الوجود فإنه لم يكن إلا بقضاء الله وقدره ، ومادام أن الأمر كذلك فلافائدة من الاعتراض على ذلك ، فإذا حصل الرضا بالقضاء زال الحسد ، لأن العلم بأن الحسد يعود على الحاسد بالضرر في الدنيا والدين، والعلم بأنه لاضرر منه على المحسود يدفع الحاسد إلى البعد عن الحسد .

فعلى العالم أن يحذر من الحسد الذي يجره إلى أن يحسد أهل العلم ثم يصل به الأمر إلى أن يحب أن يخطيء العالم ثم يسعى لكشف خطئه ليفضحه ويخرس لسانه حتى لايتكلم أبداً ولايُعلِّم ولايتعلم ، وأي إثم يجنيه الحاسد أكبر من هذا الإثم وأي مرتبة يصل إليها الحاسد أخس من هذه المرتبة .

ولاشك أن العلماء هم أكثر إدراكاً لما ينفعهم ولما يضرهم ، فيصير علمهم كالدواء لهم من مرض الحسد .

أما العمل النافع فهو أن يأتي العالم بالأفعال المضادة للحسد ، فإذا دفعه الحسد لذم المحسود فليكلف نفسه أن يمدحه بدلاً من القدح فيه ، وإن حمله الحسد على التكبر عليه فليكلف نفسه التواضع له ، وإن حمله على قطع أسباب الخير عنه فليكلف نفسه السعي في إيصال الخير إليه ، فإن المحسود إذا عرف ذلك طاب قلبه وأحب الحاسد ، فيفضي ذلك آخر الأمر إلى زوال الحسد وذلك لسببين :

الأول : أن المحسود إذا أحب الحاسد فعل مايحبه الحاسد فحينئذ يصير الحاسد محباً للمحسود ويزول الحسد حينئذ .

الثاني : أن الحاسد إذا أتى بضد موجبات الحسد على سبيل التكلف في البداية فإن ذلك يصير في آخر الأمر طبعاً له ويزول الحسد عنه بالكلية . (الرازي - التفسير الكبير - ج ٣ ص ٢٤١ - ٢٤٤) .

عاشرا : الاستمرار في طلب العلم :

يرى الرازي أن الاستمرار في طلب العلم أمر ضروري ، فالعالم الحق هو الذي لايتوقف عن طلب العلم مهما بلغ في علمه بل إنه لايستنكف عن أخذ العلم ممن هو دونه في العلم ، ويستشهد الرازي على ذلك بقصة موسى مع الخضر ، فموسى مع كثرة علمه وعمله وعلو منصبه وشرفه ذهب إلى الخضر لطلب العلم ·

ومن الأمور المتعارف عليها أن العالم الكامل في أكثر العلوم يجهل بعض الأشياء التي قد يحتاج في تعلمها إلى من هو دونه في العلم ·

وليست هناك مرتبة من مراتب العلم إلا وفوقها مرتبة ولهذا قال تعالى : ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ يوسف ٧٦ ، لذا لايمكن لأي عاقل أن يقطع بأنه لاأحد أعلم منه ·

ولاشك أن الإنسان مهما بلغ في العلم فإن علمه محدود ومتناه ، وكل متناه يمكن الزيادة عليه ، ولذلك فالعالم محتاج إلى الازدياد من العلم باستمرار ، فموسى - عليه السلام - قد تحمل التعب الشديد والعناء العظيم في السفر لأجل طلب العلم · والإنسان كلما كانت إحاطته بالعلوم أكثر كان علمه بما فيها من البهجة والسعادة أكثر ، وكانت رغبته في الطلب والزيادة أشد ، وكان تعظيمه لأرباب العلم أكمل وأشد (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢١ ص ١٤٣ - ١٥١) ·

أما الآداب التي خص بها الرازي المتعلم فتكاد تنحصر في العنصرين الآتيين :

الأول : التواضع للمعلم :

يوصي الرازي المتعلم بأن يتسم بالتواضع ، وأن يظهر لمعلمه التواضع إلى أقصى غاية ، لأن في ذلك مايجلب له الفائدة ، كما أن على المعلم أن يربي المتعلم على التواضع فعليه أن يغلظ ويشتد عليه إذا رأى في ذلك ماينفعه ويفيده ، فيزجره إذا وقع في أخطاء

تَضَرُّبِهِ أو تصرفه عن التعلم ، لأن السكوت على زلاته قد يؤدي به إلى الغرور الذي يفوِّت عليه الفائدة ويمنعه من التعلم .

وبإمكان كل متعلم أن يأخذ لنفسه درساً في التواضع لمعلمه من قصة موسى - عليه السلام - مع الخضر ، فعندما قال له الخضر : ﴿ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا ﴾ الكهف ٦٨ ، قال له موسى : ﴿ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا ﴾ الكهف ٦٩ ، فدل هذا على التواضع الشديد والتحمل التام من قبل موسى لمعلمه وهذه القصة مشتملة على أنواع كثيرة من التواضع مما يدل على أن موسى قد ذهب إلى الخضر ولديه الاستعداد التام لطلب العلم ، ولذلك بالغ في تواضعه لمعلمه ، يظهر ذلك في قوله : ﴿ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَنْ تُعَلِّمَنِي مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ الكهف ٦٦ ، فأثبت كونه تبعاً أولاً فبدأه باظهار تواضعه له ، ثم طلب منه ثانياً أن يعلمه ، فجعل التعليم في المرتبة الثانية ، لأن العلم لا يحصل إلا بتواضع المتعلم للمعلم .

وقد دلت الآيات الواردة في هذه القصة على أن موسى - عليه السلام - قد راعى أدب المتعلم مع أستاذه على أتم وجه ، فقد ألزم نفسه بالآداب الآتية :

١ - أنه جعل نفسه تبعاً لأستاذه فقال : ﴿ هل أتبعك ﴾ .

٢ - أنه استأذن في اثبات هذه التبعية ، فكأنه قال هل تأذن لي أن أجعل نفسي تبعاً لك ، وهذه مبالغة عظيمة في التواضع .

٣ - أنه قال : ﴿ على أن تعلمني ﴾ ، وهذا إقرار منه على نفسه بعدم العلم واعترافاً منه لأستاذه بالعلم .

٤ - أنه قال : ﴿ مما علمت ﴾ وصيغة (مِنْ) للتبعيض فطلب منه أن يعلمه بعض ما علمه الله ، وهذا - أيضاً - مشعر بالتواضع ، كأنه يقول له لا أطلب منك أن تجعلني مساوياً لك في العلم ، بل أطلب منك أن تعطيني جزءاً من أجزاء علمك .

٥ - قوله : ﴿ مما علمت ﴾ اعتراف بأن الله تعالى علم الخضر ذلك العلم ٠

٦ - أن قوله : ﴿ رشداً ﴾ طلب منه للإرشادوالهداية ، والإرشاد هو الأمر الذي لولم يحصل لحصلت الغواية والضلال ٠

٧ - أن قوله : ﴿ تعلمني مما علمت ﴾ يدل على أنه طلب منه أن يعامله بمثل ماعامله الله به ، ففيه اشعار بنعمة الله عليه بهذا التعليم ؛ فليبذل له شيئاً من هذه النعمة ٠

٨ - أن المتابعة عبارة عن الاتيان بمثل فعل الغير ، ومعنى هذا أن موسى سيقتدي بأستاذه ٠

٩ - قوله : ﴿ أتبعك ﴾ يدل على طلب متابعته مطلقاً في جميع الأمور غير مقيد بشيء دون شيء ٠

١٠ - لقد خص الله موسى - عليه السلام - بأنواع كثيرة من الشرف ، فهو نبي ورسول ، وصاحب التوراة ، وهو الذي كلمه الله - عز وجل - من غير واسطة ، وخصه بالمعجزات القاهرة الباهرة ، ومع هذه الدرجات العالية تواضع لأستاذه غاية التواضع ، فدل هذا على أهمية التواضع في طلب العلم ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢١ ص ١٥١ - ١٥٣) ٠

الثاني : التسليم للمعلم وعدم الاعتراض عليه :

يوجه الرازي المتعلم إلى التسليم والإذعان لتوجيهات معلمه وعدم الاعتراض عليه أو مناقشته ، لأنه لم يبلغ من العلم مايؤهله لأبداء أي اعتراض ، فقد يعترض على أمور لايدركها ولايبلغها فهمه القاصر ، لذا يجب عليه في أول الأمر التسليم وترك المنازعة والاعتراض ٠

ويقسم الرازي المتعلمين إلى قسمين :

متعلم ليس عنده شيء من العلم ولم يمارس النقاش والحوار ، ولم يتعود التقرير والاعتراض ، وهذا المتعلم لايملك القدرة على الجدال ، فلاينتظر منه إلا التسليم لعلمه.

والقسم الثاني متعلم حصل العلوم الكثيرة ومارس الاستدلال والاعتراض ، وهذا القسم كثيراً مايرغب في مخالطة إنسان أكمل منه ليبلغ على يديه درجة التمام والكمال ، ولاشك أن طلب العلم في هذا المستوى يكون شديداً وشاقاً ، لأن المتعلم في هذه المرحلة قد يسمع كلاماً ربما ظن بحسب الظاهر أنه غير صحيح وهو في الحقيقة حق وصواب ، والمتعلم - في هذه الحالة - يدفعه إلفه للجدال والقيل والقال إلى الاعتراض بحسب فهمه ومايظهر له لأول وهلة دون الوقوف على حقيقة الأشياء وأسرارها ، وهذا الأسلوب من المتعلم يُثْقِلُ سماعه على الأستاذ الكامل المتبحر ، فإذا تكرر ذلك من المتعلم مع أستاذه عدة مرات حصلت النفرة التامة والكراهة الشديدة ، فيؤدي ذلك في آخر الأمر إلى عدم سكوت الأستاذ على سلوك هذا الطالب فتكون النتيجة التنافر والتقاطع ، وبهذا يُفوّت المتعلم على نفسه الفائدة والتعلم على يد هذا العالم . (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢١ ص ١٥١ - ١٥٢) .

٢ - أساليب التعليم والتعلم :

١ - التدرج في التعليم :

أسلوب التدرج في التعليم - عند الرازي - هو أن يقدم المعلم للمتعلم الكتب السهلة المختصرة التي تناسب مستواه وقدرته باعتباره مبتدئاً في التعلم ، ثم يترقى به من تلك الكتب السهلة المبسطة إلى الكتب الشريفة الأغزر علماً التي يستفيد منها علماً أكثر فائدة وأكثر شرفاً وعمقاً ، فالتعليم لايكون كاملاً ولايستوعبه المتعلم إلا إذا بديء فيه بالأظهر فالأظهر ، أي بالأمور الأكثر وضوحاً ثم الأقل وضوحاً ، ثم يتدرج من ذلك إلى المسائل الخفية فالأكثر خفاءً ٠

ولايقف المعلم بتلميذه عند التعليم النظري بل يقرن ذلك بالتطبيق العملي ، وقد أشار الله تعالى إلى العلم والعمل بقوله تعالى : ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ المائدة ١١٠ ٠

فالمراد بالكتاب العلوم النظرية ، والمراد بالحكمة العلوم العملية ٠ (الرازي - التفسير الكبير ج ١٢ ص ١٢٥ ، ١٦٧) ٠

٢ - مراعاة ميول المتعلم :

لايخفى على الرازي ماللميول من أثر على الإنسان ، سواء في إقدامه على فعل الشيء أو في احجامه عنه ، ولذلك يرى أن الإنسان بحكم تكوينه وطبيعته الأصلية صالح للفعل والترك ، لكنه في هذه الحالة قد لايكون لديه ميل نحو الفعل أو الترك فلايصدر عنه أي فعل ، لكنه بعد أن ينمو لديه الميل - وهو مايسمى بالإرادة الجازمة والقصد الجازم - يصدر عنه الفعل ، غير أن هذه الإرادة الجازمة لاتحصل إلا عند حصول علم أو اعتقاد أو ظن بأن الأمر المراد فعله سبب للنفع أو أن الأمر المراد تركه سبب للضرر ، وبدون ذلك لايحصل ميل لا إلى الفعل ولا إلى الترك ٠

ولابد مع الميل إلى الفعل من وجود أمر آخر وهو القدرة على الفعل فالميل بدون قدرة يجعل الإنسان عاجزاً عن تلبية ميوله ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٩ - ص ١١٢) ٠

بإمعان النظر في فكرة الرازي السابقة عن الميول ، يتضح أن الرازي قد تنبه إلى أهمية الميول في حياة الإنسان ، وأن الإنسان لايقوم بأي أمر إلا وفق ماتمليه عليه ميوله ٠

والميل الذي يتحدث عنه الرازي ، هو مايسمى في التربية الحديثة بالدافع ، فالميل أو الدافع هو الذي يحرك المرء لفعل الشيء إذا كان مرغوباً فيه أو تركه إذا لم يكن مرغوباً فيه ٠

ويشترط الرازي - بالإضافة إلى الميل - وجود القدرة لدى الإنسان ليكون قادراً على تلبية ميله ، فعدم القدرة عائق أمام تلبية الميول ٠

فالرازي - إذن - يشير إلى أنه لابد من تدخل التربية لتمكن المتعلم من تنمية ميوله ودوافعه نمواً إيجابياً ليقوم بالأفعال المرغوب فيهاوالتي تتفق مع الشرع ، والاحجام عن الأفعال التي تضر به وتخالف الشرع ٠ كما يتضح من فكرة الرازي عن الميول أن التربية هي التي تمكن المتعلم من الوسائل التي تجعله قادراً على تنفيذ مايميل إليه ، فتنمي لديه القدرات اللازمة سواء كانت قدرات عقلية أم قدرات جسمية ٠ ويعطي الرازي الإشارة إلى المربين والمعلمين ليقوموا بواجبهم نحو تربية الميول الإيجابية لدى المتعلم والمحافظة عليها من الانحراف وتزويده بما يمكنه من تحقيق ميوله حتى لايبقى معطلاً عن العمل ٠ كما أن على المعلمين ملاحظة الميول العلمية لدى المتعلم فيضعونه في التخصص الملائم لميوله ، بشرط توافر القدرة التي تحقق له مايميل إليه ، فكل منهما شرط في حصول الآخر ، فقد يكون لدى المتعلم ميل نحو علم من العلوم وليس عنده من القدرة مايمكنه من ذلك العلم ، وحينئذ يوجهه المعلم صوب علم آخر يتفق مع قدرته ويحاول أن ينمي فيه الميل الذي يناسب قدرته ٠

٢ - مراعاة الفروق الفردية :

لم يفت الرازي ماللفروق الفردية من أهمية في التعلم وكذلك في اتجاهات الإنسان ، ولذلك أبان أن الناس ليسوا سواء ، فكما أنهم مختلفون ومتفاوتون في الذكاء والبلادة والعقل ، فهم - أيضاً - متفاوتون من الناحية النفسية والبنية الجسمية ، فمنهم ضعيف الجسم مضطرب المزاج ، ومنهم قوي البنية كامل القوة صحيح المزاج ، وهذه أمور قسمها الله بين خلقه وجعلهم متفاوتين فيها ، كما قال تعالى : ﴿ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ الزخرف ٣٢

وللإدراك عند الإنسان مراتب ، فالرازي يرى أن البعض يدرك الكثير من الأشياء من غير تعليم ومن غير حاجة إلى برهان لكون هذا الصنف من الناس يتمتع بقوة الحدس فيحصل لهم العلم الحدسي من غير طلب أو تعلم ، والبعض الآخر من الناس لايدرك ولايفهم إلا بواسطة التعليم والإبانة ، وبعض الناس لايفهم أصلاً ولايفيده التعليم .

والعلم الحدسي يحصل لأصحابه بدون جهد وبدون إعمال الفكر ، أما العلم الذي يحتاج فيه الإنسان إلى التعليم والإبانة فلابد فيه من الطلب وبذل الجهد والتفكير ، وإلى ذلك الإشارة بقوله تعالى ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ . قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ العنكبوت ١٩ ، ٢٠ .

فالذي لايكون لديه العلم الحدسي الذي يدرك به أن الله بدأ الخلق وأنه هو الذي ينشيء النشأة الآخرة ، فعليه أن يسير بفكره في الأرض ويجيل ذهنه في الحوادث ليعلم بدء الخلق فيستدل به على البعث .

فالآية الأولى إشارة إلى العلم الحدسي ، والثانية إشارة إلى العلم الفكري ، ولا شك أن العلم الحدسي أتم من العلم الفكري ، كما أن الرؤية أتم من النظر (الرازي - التفسكير الكبير - ج ٧٨ - ٧٩ ، ج ٢٥ ص ٤٧-٤٨) •

إن حديث الرازي عن اختلاف الناس في قدراتهم وتفاوتهم في العقل ودرجات الذكاء ودرجات البلادة ، وكذلك تفاوتهم في مراتب الإدراك ، وكون بعضهم قد منحه الله قوة حدسية تسهل عليه إدراك الأشياء بدون تعب أو طلب ، وكون البعض محتاجاً إلى التعلم وإقامة الدليل وإعمال التفكير ، إن هذه الفروق الفردية التي بينها الرازي توضح للمعلمين الطريقة التربوية التي ينبغي أن يسلكوها في أداء مهمتهم التعليمية ، ولذلك يجب أن يلاحظوا الفوارق الفردية بين تلاميذهم فيقدموا لكل منهم المادة العلمية التي تناسب قدراته ، فلا يكلفوا أصحاب القدرات المنخفضة مالا طاقة لهم به ، ولايتدنوا بأصحابالقدرات العالية إلى مستوى أصحاب القدرات المنخفضة ، ويلاحظوا - كذلك - تلاميذهم من حيث القدرة الجسمية والصحة النفسية فيراعوا ذلك في تعاملهم ويوجهوهم نحو مايفيدهم في بناء أبدانهم ونفسياتهم لينموا النمو الإيجابي المتكامل •

٤ - التكرار وأثره في ترسيخ الملكات :

تحدث الرازي عن عملية التكرار وأوضح مدى تأثيرها في ترسيخ الملكة أو الملكات لدى الإنسان ، فهو يرى أن كل من واظب على صناعة من الصنائع أو حرفة من الحرف مدة طويلة فإن ذلك يصير ملكة راسخة قوية ، وكلما كانت للمواظبة أكثر كانت الملكة أقوى وأرسخ •

وكل فعل - مهما كان قليلاً أو كثيراً - يترك أثراً في النفس بقدر قوته أو ضعفه ، ولايقتصر أثر الفعل على النفس فحسب بل يتجاوزها إلى البدن والجوارح ، فكما أنه

بسبب تكرار الفعل تحصل ملكة نفسانية فكذلك بسبب التكرار تحصل ملكة في الجوارح .

وكما أن هذه الملكات تنمو لدى الإنسان في كل الأعمال المختلفة التي يمارسها إلا أنها أكثر نمواً في التعليم والدراسة ، فمن واظب على قراءة درس واحد صار ذلك الدرس محفوظا ومفهوماً ، وكلما كرر المتعلم ذلك فإن علمه يزيد ، فهو يبدأ بعلم قليل ثم يزداد علماً حتى يصير واسع العلم متبحراً ، وكذلك من أراد تعلم الكتابــة ، فإنه كلما كرر الكتابة صار اقتداره عليها أتم وأكمل .

ويضرب الرازي مثالاً محسوساً لنمو الملكات بالتكرار ؛ فمثال ذلك توالي قطرات الماء الكثيرة على الحجر ، فإن كل قطرة من القطرات تُحْدِثُ أثراً في الحجر لكنه لايبين إلا بعد مدة طويلة من تتابع القطر ، فالقطرة الأولى لها أثر لكنه ضعيف جداً فلايتبينه أحد ، وبالاستمرار يظهر شيئاً فشيئاً حتى يصبح في النهاية ثقباً عميقاً للغاية .

وفي نهاية هذا الأسلوب يحذر الرازي من تكرار المعاصي والأفعال المؤدية إلى الذنوب لأنها تؤدى إلى تراكم أثرها على القلوب ، فيحصل في قلب الإنسان ملكة نفسانية تجره إلى فعل الذنب ، لأنه كلما أذنب حصلت في قلبه نكتة سوداء حتى يَسْوَدَّ القلب ويُظلم .

وتختلف مراتب السواد والظلمة الحاصلة في القلب ، فبعضها يصبح ريناً لقوله تعالى ﴿ كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ المطففين ١٣ . وبعضها يصبح طبعاً ، لقوله تعالى : ﴿ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴾ التوبة ٨٧ . وبعضها يصبح أقفالاً ، لقوله تعالى : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ محمد ٢٤ .

والرين هو أن يَسْوَدَّ القلب من الذنوب ، والطبع أشد من الرين ، والأقفال أشد من الطبع ، وهو أن يُقفل على القلب فلايصل إليه الخير بأي حال . (الرازي - التفسير الكبير - ج ١ ص ١٨٦ ، ج ١٣ ص ١٨-١٩ ، ج ٢٠ ص ١٦٩-١٧٠ ، ج ٣١ ص ٩٤-٩٥).

إن أسلوب التكرار - عند الرازي - يدل المعلمين على طريقة فذة يستخدمونها في تنمية القدرات والملكات عند المتعلمين سواء كان ذلك في الدروس النظرية أم الدروس العملية ، كما أن فيه توجيهاً للمعلمين ليحافظوا على عقيدة وأفكار تلاميذهم من الانحراف فيحاولوا ترسيخ العقيدة الإسلامية حتى تصبح ملكة ثابتة في النفوس ، ويحاولوا منعهم من الأفعال القبيحة والسلوك السيء ويبذلوا جهدهم لمنعهم من تكرار الأخطاء وإزالة ما علق منها بنفوسهم لئلا تصبح ملكة ثابتة ٠

٥ - التخصص في علم واحد والانقطاع له :

يقترح الرازي على الإنسان أن يشتغل بعلم أو بفن واحد ، لأن الاشتغال بأمور كثيرة يوزع القوة ويبعثر الجهد ، أما إذا اشتغل الإنسان بصناعة واحدة فإنه يكون أقدر على اتقانها ، فذو الفن الواحد أقوى وأقدر من ذي الفنين ، فالذي يريد أن يتحقق من حقيقة مسألة واحدة لابد أن يفرغ ذهنه عما سواها ٠

وإذا كان المطلوب من المتعلم أن يتفرغ لعلم واحد ، فإنه يجب عليه - من باب أولى - أن يبتعد عن الاشتغال بالملذات والشهوات التي تشغل النفس وتحرمها من الاستغراق في التعلم والاشتغال به ، لذا يجب تعويد المتعلم منذ البداية على ترك الملذات والشهوات ، فالنفس إذا اعتادتها من أول أمرها إلى آخره فإنها تصير - بالطبع - حنوناً إليها عزوفاً عن العلم ، كما ينبغي لطالب العلم ترك مخالطة الخلق والاقبال بالكلية على الجد والطلب ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ٣ ص ٢٠٩ - ٢١٠)٠

٦ - عدم الإطالة في علم واحد خشية الملل :

يقرر الرازي أن المكث بالمتعلم في فن واحد مدة طويلة يجلب له الملل والسأم ، فالإطالة في تقرير نوع من أنواع العلوم يؤدي إلى الضجر وفتور الرغبة ، ولذلك يفضل

التنويع والانتقال بالمتعلم من فن إلى فن آخر ، حيث يجلب له الراحة النفسية ويشرح صدره ويجدد عزيمته ورغبته ويقوي الميل للاستمرار في التعلم . (الرازي - التفسير الكبير . ج ١٧ ص ١٣٥) .

وقد يبدو أن هذا الأسلوب يتعارض مع سابقه الذي يدعو فيه الرازي إلى التخصص في فن واحد ، غير أنه يمكن دفع هذا التعارض بأن الرازي يهدف من دعوته إلى الاقتصار على التخصص الشامل الذي يتضمن عدة فنون تمكن المتعلم من الانتقال من فن إلى فن في داخل التخصص الواحد ، مثل الانتقال من علم الحديث إلى علم الفقه في العلوم الشرعية ، والانتقال من علم النحو إلى البلاغة في العلوم العربية ، والانتقال من التاريخ إلى الجغرافيا في العلوم الاجتماعية ... وهكذا .

٧ - التنويع في طريقة الكلام والتنويع في المعلمين والمتكلمين :

يرى الرازي أن في تنويع الكلام تأثيراً على السامع والمتلقي ، سواء كان ذلك مع المتعلمين أو في تربية الوالدين للأبناء ، فقد يستدعي الموقف الإكثار من الكلام والتطويل فيه من أجل إيضاح للمعنى ، ولهذا تجد الإنسان يكثر من النصائح مع ولده إذا حاد عن الجادة ، كما أنه يجعل الكلام معه مختلفاً فتارة يكون ترغيباً وتارة يكون ترهيباً وتارة يكون تنبيهاً بواسطة الحكايات المؤثرة في تعديل الابن وتقويم سلوكه . ويرى الرازي - أيضاً - أن الأمر في التربية لايقف عند مجرد الكلام وتنويعه بل إن تنويع المتكلمين له تأثيره كذلك ، فإذا وجد المتكلم الواحد أن كلامه وطريقته غير مجدية فليطلب من شخص آخر أو معلم آخر أن يتولى النصح والإرشاد بدلاً منه لعل ذلك يكون أكثر نفعاً ، فقد اشتهر بين الناس أن اختلاف المتكلمين واختلاف الكلام كلاهما مؤثر . ويشير الرازي إلى أن القرآن الكريم كثيراً مايستخدم هذه الطريقة ، فالله تعالى ذكر أنواعاً من الكلام وكثيراً من الاستدلالات والآيات ، وذكر طرفاً صالحاً من الحكايات - والترغيب والترهيب والوعد والوعيد ، وكان لذلك تأثيره البالغ في النفوس . (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢٨ ص ٢٢٨) .

٨ - ضـرب الأمثـــال :

يؤكد الرازي على الأهمية الكامنة في ضرب الأمثال ومالها من أثر عظيم في فهم المعنى على أتم وجه وأكمله ، فالمثل يبرز المعنى في صورة محسوسة ملموسة ، فالغرض منه تشبيه الأمر الخفي بالأمر الجلي ، وقياس الغائب على الشاهد ، فيصير المعنى المعقول في صورة المحسوس •

ولضرب المثل أثره الكبير في الترغيب في الإيمان ، فالإيمان لايتأكد وقوعه في النفس إذا ذكر مجرداً عن ضرب مثل له مثلما يتأكد إذا مثل بالنور ، كمالايتأكد قبح الكفر في العقل مثلما يتأكد إذا مثل أو شبه بالظلمة وكذلك إذا أريد بيان مدى ضعف إي أمر من الأمور فإن ذلك لايتحقق إلا إذا أُلحق بأمر آخر يبين مدى بلوغه الغاية في الضعف والوهن ، وذلك مثل تشبيه الشيء ببيت العنكبوت ، فإن المعنى يتمكن وتتقرر صورته في النفس أكثر من الاخبار به مجرداً • لهذا أكثر الله تعالى في كتابه الكريم من ضرب الأمثال ، وأشاد بضربها في قوله تعالى : ﴿ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ﴾ العنكبوت ٤٣ •

ويستشهد الرازي على ضرب الأمثال من القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَاحَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَايُبْصِرُونَ ﴾ البقرة ١٧ •

ففي شرح الرازي لهذه الآية أوضح أن الله تعالى لما بين في الآيات السابقة حقيقة صفات المنافقين عقّبها بهذه الآية ، وفيها ضَرَبَ مثلين زيادة في الكشف والبيان ، فشبه الإيمان بالنور والكفر بالظلمة ، وقد كثر هذا التشبيه في القرآن الكريم والعلة في ذلك أن النور قد بلغ النهاية في الهداية إلى المحجة وإلى طريق المنفعة وإزالة الحيرة ، ولذلك شبه الله الإيمان به ، لأن الإيمان في باب الدين هو الغاية والنهاية في إزالة الحيرة ووجدان المنفعة •

ومثـل ذلك يقال في تشبيه الكفر بالظلمة ، فالضال عن الطريق لايعيقه ولايحيره عن سلوك الطريق أعظم من الظلمة ، وكذلك في باب الدين لايوجد شيء يمنع من الهداية أعظم من الكفر ، ولذلك شبهه الله تعالى بالظلمة ٠

ويسترسل الرازي في بيان فائدة ضرب الأمثال ، فيذكر أنه يقع بين العقل والخيال منازعة ، فالخيال من طبيعته المحاكاة والتشبيه ، فإذا ذكر المعنى مجرداً أدركه العقل ولكن مع منازعة الخيال ، فإذا ذكر معه الشبه أدركه العقل مع معاونة الخيال ، وبهذا يكون الإيضاح أتم وأكمل ، فالتمثيل يفيد زيادة البيان والوضوح ، والافهام والتذكير وتصوير المعاني العقلية المحضة بذكر مايساويها من المحسوسات التي تزيل المنازعة بين العقل والخيال ، ولذلك قال تعالى : ﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ ابراهيم ٢٥ ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢ ص ٧٢-٧٤ ، ص ١٣٤-١٣٥، ج ١٩ ص ١٢٠ - ١٢١) ٠

ولايخفى مالهذا الأسلوب من فائدة كبيرة في العملية التعليمية ، فالرازي - بهذا الإيضاح - وضع للمعلمين أسلوباً وطريقاً يستنيرون به باعتباره وسيلة ناجعة في تقريب المعاني إلى أذهان تلاميذهم ولاسيما في تعليم التلاميذ الصغار الذين يعتمدون على حواسهم وعلى خيالهم في استيعاب الأمور المعنوية التي تعجز عقولهم القاصرة عن ادراكها ، ولذلك يحتاج المعلم إلى تصوير المعاني وضرب الأمثال بالأشياء المحسوسة التي تساعد التلاميذ على فهم وتصور مالاتدركه عقولهم حتى لايبقوا في حيرة وتردد ٠ وبالإمكان إيجاز بعض الفوائد التربوية لضرب الأمثال فيما يلي :

١ - تبرز الأمثال المعقول في صورة المحسوس فيقبله العقل ويستقر في الذهن ، فالصورة الحسية تقرب المعنى إلى الفهم ، مثال ذلك تصوير حال الذي ينفق ماله رياء فلايحصل على شيء من الثواب ، يصور ذلك قوله تعالى : ﴿ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْداً لَايَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا ﴾ البقرة ٢٦٤ ٠

٢ - تكشف الأمثال عن حقيقة الشيء وتعرض الغائب في معرض الحاضر ، كما في قوله تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ﴾ البقرة ٢٧٥ ٠

٣ - يرغب المثل النفوس في الممثل به ، كقوله تعالى : ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ البقرة ٢٦١ ٠

٤ - ينفر المثل النفوس من عمل الممثل به حيث يعرضه في صورة قبيحة تكرهها النفوس وتنفر منها ، كقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾ الحجرات ١٢ ٠

٥ - والأمثال أبلغ في الوعظ وأقوى في الزجر ، وأقوم في الاقناع ، ولذلك كثر ضرب الأمثال في القرآن الكريم والحديث الشريف ، كما اعتمد عليها المعلمون والمربون واتخذوا منها وسائل إيضاح في التشويق والترغيب والتنفير والمدح والذم ٠ (القطان - ١٣٩٦هـ - ص ٢٨٧ - ٢٨٩) ٠

٩ - الصحبة وملازمة المعلم :

يعد أسلوب الصحبة - عند الرازي - من الأساليب الهامة والنافعة في حصول المعرفة الصحيحة وترسيخها ، ولذلك يؤكد الرازي على أن التعلم لايمكن حصوله في جلسة واحدة ، ولايمكن أن يتم في الخفية وإنما يتم وتتحقق مسائله باختلاف المتعلم إلى المعلم في أوقات مختلفة وأزمنة متطاولة ، ومدداً متباعدة ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢٠ ص ١١٩)٠

ويتفق ابن جماعة مع الرازي في الدعوة إلى صحبة العلماء والمعلمين ويحذر من تشيخ الصحيفة والأخذ عن المعلم الذي أخذ علمه من بطون الأوراق ولم يصحب

العلماء الحذاق ، وينقل ابن جماعة عن الشافعي قوله : «« من تفقه من بطون الكتب ضيع الأحكام وكان بعضهم يقول من أعظم البلية تشيخ الصحيفة »» (ابن جماعة - ١٣٥٤هـ - ص ٨٧).

ولا شك أن أسلوب الصحبة يعود على المتعلم بفوائد جمة منها :

١ - يتلقى المتعلم العلم مباشرة من العلماء ، فلا يقع - بسبب ذلك - في أخطاء علمية ، كما يقع لأولئك الذين يكتفون بالقراءة من الكتب من غير معلم .

٢ - هناك الكثير من المسائل العلمية والعبارات الغامضة والمشكلات المستعصية التي تحتاج إلى التحقيق والشرح والإيضاح ، ولا يتأتى ذلك إلا بواسطة المعلم الذي يزيل اللبس عنها ويكشف أسرارها وخفاياها .

٣ - يستفيد المتعلم من المعلم أموراً غير العلم كالسلوك الحميد والقدوة الحسنة والتطبيق العملي .

٤ - يستفيد المتعلم - على يد معلمه - كل يوم علماً جديداً ، ويراجع على يديه المعلومات السابقة فيزداد فيها رسوخاً .

٥ - الصحبة تشحذ الهمة وتقوي الرغبة والطموح لدى المتعلم فيحرص على العلم ويحاول أن يبلغ الغاية فيه ليكون مثل شيخه أو معلمه .

٦ - الصحبة تساعد المتعلم في المحافظة على وقته ، لأنها تفرض عليه الحضور المستمر وملازمة المعلم ، أما عدم الصحبة فإنه يؤدي إلى فتور الهمة والكسل وضياع الوقت .

١٠ - الرحلة في طلب العلم :

يدعو الرازي طالب العلم إلى الرحلة والسياحة من بلد إلى بلد للحصول على العلم النافع ، فالسياحة لها أثرها العظيم في تكميل النفس البشرية نتيجة لالتقاء المتعلم بأفاضل العلماء في البلدان المختلفة واستفادته من كل واحد فائدة مخصوصة ، حيث

يسمع منهم ويرى من المعرفة في أمور الدين مايزيده هدى وتقوى • وفي أنحاء الأرض المختلفة يلتقي بأكابر الناس ويشاهد في كل طرف من أطرافها ما خلق الله من شتى المخلوقات فتقوى - بذلك - معرفته وتجربته •

ويستشهد الرازي بقوله تعالى : ﴿ وَمَاكَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ التوبة ١٢٢ •

يشير الرازي - في تفسيره لهذه الآية - إلى أنها تعني وجوب نفور طائفة إلى حضرة الرسول صلى الله عليه وسلم من أجل التفقه في الدين ومعرفة الحلال والحرام ثم تعود إلى أوطانها فتنذر وتحذر قومها ليرجعوا عن كفرهم،وهذا الأمر واجب في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم لكونه يحدث على يديه في كل يوم تكليف جديد وتشريع جديد ، أما في غير زمانه فقد أصبحت الشريعة مستقرة ، فإذا تمكن طالب العلم من التعلم في وطنه صارت الرحلة غير واجبة ، لكنه مع ذلك يستحسن السفر في طلب العلم لما في ذلك من البركة الحاصلة بسبب السفر • أما إذا عجز الإنسان عن التفقه إلا بالسفر وجب عليه ذلك •

ويجب أن يكون القصد من التفقه والتعلم دعوة الناس إلى الحق وإرشادهم إلى الدين القويم والصراط المستقيم ، لأن الآية تدل على أن الله تعالى أمرهم بالتفقه في الدين ، لأجل أنهم إذا رجعوا إلى قومهم أنذروهم وأخرجوهم من الجهل والمعصية ورغبوهم في قبول الدين ، فكل من تفقه وتعلم لهذا الغرض كان على المنهج القويم والصراط المستقيم •

واعلم أن طالب العلم لو سافر من المشرق إلى المغرب لمعرفة مسألة واحدة لحق له ذلك • (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٦ ص ٢٠٤ ، ص ٢٢٦ - ٢٢٨ ، ج ٢١ ص ١٤٦)•

١١ - تقييد مسائل العلم :

ينصح الرازي المتعلم ويرشده إلى تقييد وتسجيل مسائل العلم، فالله سبحانه وتعالى كرم بني آدم فجعلهم قادرين على الخط والكتابة، ولهذه القدرة فائدة عظيمة، فبها يتم تسجيل العلم وحفظه من الضياع، وبسببها يحصل نمو العلم وزيادته من عصر إلى عصر ومن جيل إلى جيل، فالعلم الذى استنبطه الإنسان الأول قليل، وهذا القليل يمكن فقدانه فإذا سجل وأودع في الكتاب أمكن الاحتفاظ به، فإذا جاء الإنسان الثاني استعان بما كتبه الإنسان الأول وضم إليه أشياء من أنواع العلم التي استنبطها بنفسه، ثم لايزال أهل العلم يتعاقبون في هذا الطريق يستنبطون ويسجلون ويضيفون مباحث جديدة إلى علم المتقدمين، وبهذا تكثر العلوم وتقوى الفضائل والمعارف وتنتهي المباحث العقلية والمطالب الشرعية إلى أقصى الغايات .

وكل ذلك لايتم ولايتحقق ويتأكد إلا بواسطة الخط ووجود الكُتّاب الذين يدونون العلوم ويحفظونها من الاندثار .

ولأهمية هذه الطريقة وشرفها وفضيلتها ذكر الله تعالى الأداة المستخدمة فيها - وهي القلم - بجانب القراءة في قوله تعالى :﴿ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ العلق ٣، ٤، ٥ .

فالمراد من القلم الكتابة، والآية دليل على فضيلتها، وهذه الآية تنبه الإنسان ليستخدم القلم .

ولاشك أن حركة القلم حركة مباركة، فبها تبقى العلوم وتدوم على مر الليالي والأيام، وبها يُنشر العلم في الشرق والغرب، وبواسطة القلم نسمع ونقرأ ماحدث في الماضي، فالقلم ينوب عن اللسان، أما اللسان فإنه لاينوب عن القلم .

وعند التحقيق نجد أنه لاقوام للإنسان إلا بالقلم، لأنه لاحياة للإنسان إلا بالعلم ولاحياة للعلم إلا بالقلم . وقد امتن الله على الإنسان بأن علمه بالقلم،

فقوله تعالى : ﴿ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ بيان لقوله ﴿ علم بالقلم ﴾ ، أي أنه علم الإنسان بالقلم مالم يعلمه . (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢١ ص ١٣ ، ج ٣٢ ص ١٧)

إذاً فالرازي يحث كل عالم وطالب علم ومتعلم أن يحرصوا كل الحرص على استخدام القلم وتقييد مسائل العلم المختلفة ، فلولا الكتابة لضاع تراث جميع الأمم في صنوف العلم والمعرفة ، ولشاعت الأمية وعاش الناس في جهل دائم .

ونحن - في هذا العصر - نجد أننا أحوج ماتكون إلى مانادى به الرازي من تقييد العلم وحفظه بالكتابة ، فلو لم يفعل ذلك طالب العلم والباحثون لاستحال عليهم التعلم والبحث ، مما يدل على أهمية هذا الأسلوب في كسب العلم والرجوع إليه عند الحاجة ونقله إلى الآخرين ، بل إن أسلوب الكتابة والتسجيل هو الوسيلة الأنجع في تجاوز أي مادة علمية والنجاح فيها ، فلايمكن الاكتفاء بسماع الدرس أو المحاضرة من الأستاذ دون كتابة ذلك الدرس فى حينه .

وقد اهتم العلماء والمعلمون منذ القرون الإسلامية الأولى بتقييد طلابهم للدروس التي يلقونها عليهم ، وكان ذلك - كما يذكر الكيلاني - من أوائل القرن الثاني الهجري ، حيث كان معلم الصبيان يملي عليهم وهم يكتبون . وقد اشتهر أبو علي القالي بهذا الأسلوب ، بل إنه تعلم هو نفسه بهذه الطريقة ، ثم أصبح أسلوب الأملاء بعد ذلك أكثر تطوراً ، حيث أخذ المملي شخصاً آخر يبلغ عنه مايقـــــول . (الكيلاني - ١٤٠٥هـ - ص ٩٤ - ٩٥) .

١٢ - المناظـــــرة :

يوجه الرازي أهل العلم إلى التدرب على المناظرة واستخدامها من أجل الوصول إلى الحق ، ويحذر أصحاب المناظرات من الخروج عن الأدب الخاص بالمناظـــرة ، فللمناظرة آداب يجب اتباعها ، فلايصح من المتناظرين أن يقول أحدهما

للآخر أخطأت أو أنت مخطىء ؛ لأن ذلك يؤدي إلى الغضب فيختل التفكير ويختل الفهم ، وبسبب ذلك يفوت الغرض الذي من أجله عُقِدَتْ المناظرة •

أما الطريقة السديدة في المناظرة فهي : أن يقول المناظر لصاحبه - مثلاً - : أحدنا لاشك أنه مخطىء والتمادي في الباطل قبيح والرجوع إلى الحق هو أفضل الأخلاق وأحسنها ، وينبغي أن يجتهد كل منا لترى أينا على الخطأ ليحترز منه •

إن مثل هذه العبارات المؤدبة تدفع المناظر المخطىء إلى تغيير رأيه وترك التعصب والاجتهاد في النظر السليم المؤدي إلى الصواب والشعور بأن الرجوع إلى الحق لاينقص من منزلته •

وينبه الرازي إلى الاستفادة من أسلوب القرآن الكريم في المناظرة ويستدل على ذلك بقوله تعالى : ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ سبأ ٢٤ •

ففي هذه الآية إرشاد من الله لرسوله إلى المناظرات الجارية في العلوم وغيرها ، ففي الآية إيهام للخصم بأن الرسول - صلى الله عليهو سلم - شاك ، مع أنه لايشك في أنه هو الهادي وهو المهتدي ، وخصمه هو الضال والمضل •

ويزيد الرازي الأمر إيضاحاً ، فيقرر أن للمجادل أو المناظر ثلاث حالات في الاستدلال بالشيء على غيره :

الحالة الأولى : أن يقول : القادر على الأضعف قادر على الأقوى ، وهذا استدلال فاسد وغير منطقي •

الحالة الثانية : أن يقول : القادر على الشيء قادر على مثله ، وهذا استدلال صحيح ، لأنه ثبت في العقول أن حكم الشيء حكم مثله •

الحالة الثالثة : أن يقول : القادر على الأقوى الأكمل قادر على الأقل والأضعف وهذا الاستدلال في غاية الصحة والقوة ولايرتاب فيه أي عاقل ، وقد استخدم القرآن

هذه الحالة الثالثة ، فقال تعالى : ﴿ لَخَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ غافر ٥٧ ٠

فهؤلاء المجادلون المنكرون يُسلِّمون بأن خالق السماوات والأرض هو الله سبحانه وتعالى ، ويعلمون - بالضرورة - أن (خلق السمٰوات والأرض أكبر من خلق الناس ﴾ فكان الأجدر بهم أن يقروا ويعترفوا بأن القادر على خلق السماوات والأرض قادر على إعادة الإنسان وبعثه كما خُلِق أول مرة ، فهؤلاء الكفار ليس لديهم حجة ولابرهان يدعمون به انكارهم ، وإنما يدفعهم إلى الإنكار مجرد الحسد والجهل والكبر والتعصب ٠ (الرازي - التفسير الكبير- ج ٢٥ ص ٢٥٧ ، ج ٢٧ ص ٧٩) ٠

لقد أبان الرازي أهمية المناظرة باعتبارها أسلوباً تعليمياً وتربوياً يمكن المعلم من تدريب طلابه وتعويدهم على المناظرة والحوار والجدل البناء الذي يعوِّد المتعلم على قبول الحق والرجوع إليه وترك المماراة والجدال بالباطل ، كما يعوده على أدب المناظرة الذي يؤدي في النهاية إلى قبول القول الحق ٠

وقد اتبع العلماء والمربون المسلمون - في الماضي - أسلوب المناظرة مع طلابهم في مجالس العلم وحلقاته ، وكانوا يرون أن << العلم ميت إحياؤه الطلب ، فإذا حي بالطلب فقوته الدرس ، فإذا قوي بالدرس فهو محتجب إظهاره بالمناظرة ، فإذا ظهر بالمناظرة فهو عقيم نتاجه العلم >> ٠ (الخطيب البغدادي - بدون تاريخ - ص ٢٠٧) ٠

وبالإمكان الاستفادة من هذا الأسلوب في الوقت الحاضر من أجل اعداد المتعلمين ليكونوا قادرين على الحوار والجدل مع أولئك الذين يثيرون الشبهات ويروجون لأفكارهم الضالة ، كما أن هذا الأسلوب يمنح صاحبه القدرة على اقناع أولئك الذين لديهم استعداد لقبول الحق لكنهم يحتاجون لمن يعرضه لهم بطريقة تقبلها عقولهم ، وطريقة المناظرة ذات جدوى في هذا المجال ٠

ومن الفوائد التربوية للمناظرة مايلي :

١ - المناظرة تربي في المتعلم الحماس للحق وتحري الصواب والرغبة في الوصول إلى الحجة الدامغة ٠

٢ - تربي المناظرة لدى المتعلمين كراهية الباطل والأفكار الشركية والالحادية كما تربي فيهم الرغبة في مناهضتها والوقوف ضدها ، والجدل من أجل دحضها وابطالهـــا ٠

٣ - تربي المناظرة العقل على التفكير السليم والوصول إلى الحقائق بأسلوب صحيح، مثال ذلك القضية التي لها ثلاثة حلول لارابع لها ، فإذا أسقط حلان من الحلول الثلاثة تعين أن يكون الحل الثالث هو الصواب ، كقوله تعالى في تقرير خلق الانسان : ﴿ أَمْ خُلِقُوْا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُوْنَ ﴾ الطور ٣٥ ٠ فإنه مما يستحيل عقلاً أن يُخْلقوا من غير خالق كما يستحيل واقعاً وعقلاً أن يَخْلقوا أنفسهم ، فيتعين أنه لابد لهم من خالق ولا بد لهم من الاعتراف به وهو الله تعالى ٠

٤ - تعوّد المناظرة المتعلم على القياس الصحيح ، وفي القرآن الكريم من أساليب الجدل والمناظرة ما ينمي ذلك لديه مثل قوله تعالى في إيضاح رأي منكري البعث : ﴿ وَقَالُوْا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوْثُوْنَ خَلْقاً جَدِيْداً ﴾ الاسراء ٤٩ ، فيأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بحوارهم وإقناعهم بالحجة والمنطق ، فيقول ﴿ قُلْ كُوْنُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيْداً ، أَوْ خَلْقاً مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُوْرِكُمْ فَسَيَقُوْلُوْنَ مَنْ يُعِيْدُنَا قُلِ الّذِيْ فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ﴾ الإسراء ٥٠، ٥١ ٠

ففي هذا قياس للبعث على الخلق الأول ، فكما أن الله خلقهم أول مرة فهو قادر على أن يعيدهم مرة أخرى ، وهذا مبدأ عقلي منطقي لاشك فيه ولا مراء ولا ينكره عاقل ٠ (النحلاوي - ١٤٠٣هـ - ص ٣٦ - ٢٢٧) ٠

١٣ - الاستمرار في التعلم:

الإنسان مهما كان ذكاؤه ومهما بلغ في العلم لا يستغني عن الاستمرار في التعلم فليس هناك حد ولا نهاية للعلم، ولذلك يحذر الرازي من الشعور بالكمال الذي قد يؤدي بالمتعلم أو العالم إلى الوقوف عند حد معين في طلب العلم اعتقاداً بأنه قد بلغ الغاية، فالنقص صفة ملازمة للبشر والكمال لله وحده. وانطلاقاً من هذا المبدأ ينصح الرازي بالاستمرار في طلب العلم ويؤكد على أنه لا يمكن للإنسان أن يصل إلى حالة يستغني فيها عن التعلم حتى وإن كان نبياً، ولهذا السبب قال الله تعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم: ﴿ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾ طه ١١٤. فإذا كان الله تعالى قد أمر الأنبياء بالازدياد من العلم فإنه ينبغي لمن سواهم أن يقتدي بهم، لأنه مهما بلغ في العلم فلن يصل إلى درجة الأنبياء، لذا فهو أحوج إلى الاستمرار في طلب العلم، وليعلم الإنسان أنه لا يوجد مرتبة من مراتب العلم إلا وفوقها مرتبة، ولهذا قال الله تعالى: ﴿ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴾ يوسف ٧٦. والعاقل لا يمكن أن يدعي أنه لا أحد أعلم منه. ويدعم الرازي رأيه بفعل موسى عليه السلام، فهو - مع علمه الوافر بحقائق الأشياء وشدة براءته من الأخلاق الذميمة وبلوغه الغاية في الأخلاق الحميدة - ما زال يبحث عن عالم يستفيد منه علماً، ولذلك سأل ربه أن يدلّه على من هو أعلم منه فأخبره بأن الخضر أعلم منه فرحل إليه ليعلمه مما علمه الله. (الرازي - التفسير الكبير - ج ٦ ص ١٨٩، ج ٢١ ص ١٤٤ - ١٤٥)

إن الرازي وهو يحث العلماء والمتعلمين على الاستمرار في طلب العلم إنما يضع طريقة تربوية وأسلوبا يستفيد منه المعلمون في توجيه طلابهم وتلاميذهم ويغرسون في نفوسهم منذ الصغر حب العلم والرغبة في الاستمرار فيه، فالتلميذ ينمو وينمو معه الميل والرغبة في طلب العلم وكلما تقدم في مراحل العلم زاد شغفه به ولا سيما إذا وجد المعلمين الذين يشجعونه ويشحذون عزيمته بتذكيره بمواقف العلماء وبالنصوص التي تحث على العلم، وأقوال العلماء التي تدعو إلى طلب العلم والاستمرار فيه من المهد إلى اللحد، أما إذا اعتقد أنه قد بلغ الغاية في العلم فقد بدأ في الانحدار نحو الجهل شيئا فشيئا حتى يعود جاهلا.

الفصـــــــل التاســـع

١ - تقويم المفاهيم التربوية عندفخر الدين الرازي ٠

٢ - إلى أي مدى يمكن تطبيق المفاهيم التربوية لدى فخرالدين الرازي في الوقت الحاضر ٠

٣ - نتائج البحث ٠

٤ - التوصيات ٠

أ - تقويم المفاهيم التربوية عند الإمام فخر الدين الرازي :

المعيار الذي سيعتمد عليه الباحث في تقييم المفاهيم التربوية عند الإمام فخر الدين الرازي ، هو مدى اتفاق هذه المفاهيم - في أهدافها ووسائلها ومحتواها - مع القرآن الكريم والسنة المطهرة •

أولا : تقييم الأهداف :

من خلال دراسة الفصول السابقة تتضح أهداف الرازي التربوية كما يلي :

هناك هدف تربوي عام تدور في فلكه جميع الأهداف وهو تحقيق العبودية لله، فالغاية القصوى من خلق الإنسان هي أن يكون عابدا لله ، فقوله :﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ يدل على أنه لامعبود إلا الله ، وقوله :﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِيْنُ ﴾ يدل على التوحيد المحض » (الرازي - التفسير الكبير - ج ١ ص ٢٤٤ ، ج ٢٥ ص ٢٨) •

وقد اعتمد الرازي في تحديده لهذا الهدف على قوله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُوْنِ ﴾ الزاريات ٥٦ •

ويدعو الرازي إلى تربية النفس بواسطة العبادات ، لكونها المظهر الدال على العبودية لله ، ولكونها تربي العبد على الحب الخالص لله ، ولا يزال العبد يتقرب إلى الله بالعبادة حتى يحبه الله ، فإذا امتلأ قلبه بمحبة الله نال أعظم الدرجات • (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢٥ ص ٢٨)•

والعبودية تقتضي الانقياد لأمر الله ، فإذا علم العبد « أن الله تعالى خلقنا ، فلاشك أن هذا المعنى علة لأن يجب علينا الانقياد لتكاليف الله تعالى والخضوع لأوامره ونواهيه ، فالربوبية توجب نفاذ أوامره على عبيده ، والعبودية توجب الانقياد للرب والموجد والخالق » •(الرازي - التفسير الكبير - ج ٩ ص ١٥٩) •

وفيما يلي الأهداف المتفرعة عن الهدف السابق :

أ - الهدف المعرفي :

تهدف التربية - عند الرازي - إلى تزويد الإنسان بالمعرفة الصحيحة التي تمكنه من معرفة الله والإيمان به ، فالمعرفة التي تتعلق بعلم الغيب يعرفها الإنسان عن طريق الوحي ، وهي معرفة تمكن الانسان من الإيمان بالغيب ، فالوحي يربي الإنسان ليكون مؤمنا حقا ، ويستند الرازي في هذا إلى قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَابُ لَارَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِيْنَ ٱلَّذِيْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِالْغَيْبِ ... ﴾ البقرة ٢ ، ٣ .

والمعرفة عن طريق الوحي تعصم الإنسان من الوقوع في حبائل المنجمين والسحرة والكهنة الذين يدّعون علم الغيب .

وكذلك التفكير السليم والنظر والاستدلال يعد طريقا إلى كسب المعرفة الصحيحة ، ولذلك يحث الرازي على التفكير والبحث في الكون ، فالمعرفة الناتجة عن التفكير في آيات الآفاق والأنفس تهدي الإنسان إلى الايمان بالخالق وادراك مدى قدرته وعظمته ، فكل مافي الكون دليل على تفرد الله بالربوبية والعبودية ، ويستشهد الرازي على ذلك بقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُوْلِي الْأَلْبَابِ . اَلَّذِيْنَ يَذْكُرُوْنَ اللّٰهَ قِيَاماً وَقُعُوْداً وَعَلَىٰ جُنُوْبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُوْنَ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَاخَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ آل عمران ١٩٠ ، ١٩١ .

وقوله تعالى : ﴿ قُلْ انْظُرُوْا مَاذَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ يونس ١٠١ .

وقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوْا فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ الروم ٨ .

كما يرى الرازي أن الهدف من التعرف على الكون لايقتصر في دلالته على الربوبية والعبودية فحسب بل يفيد الإنسان - أيضا - في جني مايعود عليه بالخير في حياته الدنيا ، فالكون مسخر له وهو مستخلف فيه ليأخذ بالقوانين والأسباب ويكون عابدا لله شاكرا له على نعمه . وبالرجوع إلى ماأورده الباحث في الفصل الخاص

بالأصول العلمية - عند الرازي - يتبين أن الرازي قد أجاد أيما إجادة في إيضاحه للهدف من التفكير في الكون وإلى أي مدى يكون نفعه على الإنسان في معاشه ومعـــاده ٠

٢ - الهدف الاجتماعي :

تهدف التربية إلى توطيد وتقوية العلاقات الاجتماعية بين الناس على اختلاف طبقاتهم ودرجاتهم ومستواهم الاجتماعي ، فلابد من الترابط والتكافل وإقامة العدل والإحسان ، فالحاكم يجب أن يحسن ويعدل في رعيته والرعية يجب عليها طاعة الحاكم إذا أطاع الله ، والأقارب يجب عليهم التراحم والاحسان إلى بعضهم ، والأغنياء يقومون بحقوق الفقراء والمساكين ويحسنون إليهم ، والسادة يحسنون التعامل مع خدمهم ومماليكهم فلا يشقون عليهم ولا يكلفونهم مالاطاقة لهم به ، وهكذا إلى آخر ماهنالك من شبكة العلاقات الاجتماعية ٠

وعند الرجوع إلى ماأورده الرازي في حديثه عن العلاقات الاجتماعية نجد أنه يربط بين العبودية وبين تحقيق الهدف الاجتماعي ، فطاعة أمر الله والشفقة على خلقه أمران متلازمان ، والله تعالى أمر بالمحافظة على الروابط الاجتماعية المتعددة وحذر مما يفسدها ، فمن أقامها فقد امتثل لأمر الله ومن أخل بها فقد عصى أمر الله ويعد ذلك إخلالا بالعبودية ٠ ولأهمية الترابط الاجتماعي بين فئات المجتمع المتعددة أمر الله تعالى بإقامة علاقة الإحسان بينها بعد الأمر بالعبودية مباشرة ، ويستند الرازي في ذلك على قوله تعالى : ﴿ وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَى وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَامَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَايُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالاً فَخُوراً ﴾ النساء ٣٦ ٠

وفي دعوته إلى توثيق الصلة بين الحاكم والمحكوم يستدل بقوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِيــنَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ﴾ النســاء ٥٩ ،

وقوله تعالى: ﴿يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَاتَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ص رقم ٢٦ ٠

ويرى الرازي - في تفسيره لهذه الآيات - أن الملوك والأئمة إذا تمسكوا بالشريعة وجبت طاعتهم، لأن في ذلك قطعا للخصومات وإزالة للفتن وإقامة للشريعة.

ويحذر الرازي مما يفسد العلاقات الاجتماعية مثل الحسد ، والسخرية والغيبة والظن السيء ، ويستند في ذلك على قوله تعالى: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَافَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ النساء ٣٢ ٠ وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَايَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَاتَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الحجرات ١١ ، وقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ﴾ الحجرات ١٢ ٠

(الرازي - التفسير الكبير - ج ٦ ص ١٩١ ، ج ١٠ ص ٩٤، ٩٥ ، ١٤١ ، ج ٢٦ ص ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ج ٢٨ ص ١٣٠ - ١٣٦) ٠

٣ - الهدف السياسي:

الإنسان - كما يرى الرازي - مدني بطبعه ، يميل إلى الاجتماع والعيش في مدينة ونتيجة لذلك تقوم بين الناس شبكة من العلاقات والمصالح المشتركة ، ويؤدي ذلك إلى الصراع والتنازع ، لذا لابد من حاكم يسوس الناس ويحميهم من الفوضى والقلاقل والاضطرابات التي تهدد مصلحة الجماعة ، فالحاكم هو الذي يحمي الضعيف من سطوة القوي ويقيم العدل بين الرعية ويحكم فيهم بما أنزل الله ، فإذا فعل ذلك وجب على الرعية طاعته والامتثال لأمره ، كما يجب على الحاكم أن يبسط نفوذه من أجل استتباب الأمن ، ويجب أن يكون لديه من القهر والقوة مايجعل حكمه نافذا

على الجميع ، ويؤكد الرازي على أنه يجب على الحاكم أن يستمد نظامه السياسي من شرع الله ، فتطبيق شرع الله هو السبب في انتظام مصالح العالم وانفتاح أبواب الخيرات والنعم عليهم ، ولا يجوز للحاكم أن يحكم وفق هواه ، ويجب عليه تقديم الدين على الدنيا ، ويستشهد الرازي على هذا بالآية السابقة وهي قوله تعالى : ﴿ يَادَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ ص رقم ٢٦ ٠

ويؤكد الرازي على وجوب الاحتكام إلى القرآن الكريم ، فقد أنزله الله مشتملا على الأحكام الشرعية القادرة على الفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وجعل الله الموازين القسط لتطبيق أحكام القرآن ، فأوامر الكتاب تنفذ بواسطة الميزان، ويستدل الرازي على ذلك بقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ الحديد ٢٥ ٠

ثم يعقب الرازي على ذلك بأنه لايتم تنفيذ أوامر الكتاب وحمل الناس على إقامة القسط إلا بواسطة الملوك ، فإذا تحقق هذا الأمر أدى إلى بقاء العالم وعمارته ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ٦ ص ٩١ ، ج ١٠ ص ١٤١ - ١٥١ ، ج ٢٦ ص ١٩٩ - ٢٠٩ ، ج ٢٩ ص ٢٤١ - ٢٤٢ ، ج ٢٩ ٢٤٠ - ٢٤١) ٠

٤ - الهدف العسكري :

الهدف العسكري مرتبط بالهدف السياسي فالسياسة تحتاج إلى القوة ، والنظام السياسي وما يتفرع عنه من أنظمة تحتاج إلى حماية تضمن تطبيقها ٠ وأول مسئوليات الحاكم هو حماية رعيته من أي خطر داخلي أو خارجي يتهددها ، ولذلك ينادي الرازي بإعداد القوة العسكرية التي تحفظ الأمن والاستقرار واستتباب النظام فالله تعالى أنزل الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، ومن أعظم منافعه اتخاذ السلاح منه ليكون وسيلة للدفاع عن المسلمين وعن أرضهم وأموالهم وممتلكاتهم ٠

ويرى الرازي أن اعداد القوة واجب بكل أنواع الأسلحة ، كما يجب تدريب الجنود عليها ليكونوا قادرين على استخدامها لقول الرسول صلى الله عليه وسلم « ألا إن القوة الرمي » ، ولا شك أن محاربة العدو تفرض على المسلمين الاستعداد بكل آلة تساعد على الجهاد في سبيل الله والتي تمثلت في عصر الرازي بالنبل والسلاح والخيل وتعليم الفروسية ، ويؤكد الرازي على اعداد القوة في الحرب والسلم ، فالقوة في يد المسلمين تكسبهم الهيبة وتجعل العدو يرهبهم فلا يتجرأ عليهم ، فالكفار إذا علموا أن المسلمين متأهبون للجهاد ومستكملون لجميع الأسلحة والآلات خافوهم ، فيؤدي ذلك إلى أمور منها : أن الكفار لايقصدون دخول دار الاسلام ، وأنهم إذا اشتد خوفهم التزموا بدفع الجزية للمسلمين ، وأن ذلك ربما دفعهم في النهاية إلى الدخول في الإسلام ، ومنها - أيضا - أنهم يخافون من سطوة المسلمين فلا يعينون عليهم عدواً •

وقد استفاد الرازي هذا المفهوم من قوله تعالى :﴿ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيْدَ فِيْهِ بَأْسٌ شَدِيْدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ الحديد ٢٥ ، وقوله تعالى :﴿ وَأَعِدُّوْا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُوْنَ بِهِ عَدُوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ ﴾ الأنفال ٦٠ • (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٥ ص ١٨٥ - ١٨٦) •

٥ - الهدف الاقتصادي :

الهدف الاقتصادي له أهمية كبيرة في نظر الرازي ، حيث يدعو إلى نبذ الرهبانية التي تضعف الجسد والروح على حد سواء فتعوق الإنسان عن العمل وتضعفه عن القيام بالعبادة ، كما تؤدي إلى اهلاك الحرث والنسل ، وتدمير حياة الناس في كل مرافق الحياة ، والإسلام لارهبانية فيه ، وانما جد وعمل وعمارة للأرض ، والإنسان مطالب بأن يفي بما يجب عليه نحو الدنيا من عمارة وما يجب عليه نحو الآخرة من عبادة ، وهذان الأمران لايتمان مع وجود الرهبانية التامة التي توجب خراب الدنيا والتقصير في عمارة الآخرة ، بينما ترك الرهبانية سبب في عمارة الدارين • (الرازي - التفسر الكبير - ج ١٢ ص ٧١) •

ويستمد الرازي هذا الهدف من قوله تعالى : ﴿ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَاتُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَاأَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ ﴾ المائدة ٨٧ .

ولا شك أن الرازي يرمي إلى استخدام هذا الهدف على أوسع نطاق ، لأن في تحقيقه قوة عظيمة للأمة الإسلامية ، فالقوة الاقتصادية من أهم الركائز لبقاء الأمة ، والاقتصاد الإسلامي الموجه لمصلحة الإسلام والمسلمين يؤدي إلى عمارة الأرض الإسلامية وبناء المرافق الحضارية ويحفظ للأمة هيبتها وعزتها وكرامتها ، فالاقتصاد القوي هو العامل المحرك والفاعل في جميع نواحي الحياة السياسية والعسكرية والثقافية ، فالأمة القوية اقتصاديا تفرض نفسها على المسرح العالمي وتؤثر في الشؤون العالمية ، ولذلك دعا الدين الإسلامي إلى العمل ورفض الرهبانية حتى لاتضعف الأمة الإسلامية ، وسبق القول بأن الرازي يرى أن المال وسيلة « تمكن الإنسان من جلب المنافع ودفع المضار ، والمال من أعظم الأسباب المعينة على اكتساب سعادة الآخرة » (الرازي - التفسير الكبير - ج ٩ ص ١٨٥ - ١٨٦) .

فالمسلم يجد أنه من الواجب الأخذ بقول الرازي ، لأنه لايستطيع أن يدفع عن نفسه وعن دينه وعن أمته المضار إلا بواسطة المال ، فالاعداد للجهاد يحتاج إلى المال ، والدفاع عن بلاد الإسلام يحتاج إلى المال ، وإعداد القوة يحتاج إلى المال ، وفتح المدارس والجامعات ونشر العلم محتاج إلى المال ، والمال كما يُقال عصب الحياة .

٦ - الهدف الأخلاقي :

الأخلاق هي التطبيق العملي لما جاء به الإسلام من تعاليم وعبادات وتشريعات ، فالأخلاق مرتبطة بالدين ولا يمكن الفصل بينهما فلابد من اقتران الإيمان بالعمل الصالح لقوله تعالى : ﴿ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾ البقرة ٢٥ .

وعن عبادة بن الصامت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال وحوله جماعة من أصحابه : « بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا

ولا تقتلوا أولادكم ، ولاتأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا في معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب في الدنيا فهو كفارة له ، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه فبايعناه › (صحيح البخاري ، الحديث رقم ١١) ٠

والرازي - من هذا المنطلق - حاول أن يرسّخ هذا الهدف الخلقي الإسلامي ليكون سلوكاً للمسلم يطبقه في جميع تصرفاته وفي كل شؤون حياته ، ففي حديثه عن الطبيعة الإنسانية دعا إلى التأمل والتفكر في خلق الإنسان وتركيبه العجيب الدال على عظمة الخالق ، فالتأمل في ذلك يقوي إيمان العبد بالخالق العظيم والمقدر الحكيم والمدبر الرحيم ٠ ويدعو إلى الالتزام بالأخلاق التي دعا إليها القرآن والابتعاد عن الأخلاق الذميمة التي حذر منها ، فالقرآن مشتمل على دلائل المذهب الحق ومشتمل على دلائل المذاهب الباطلة ، لذا فهو شفاء من الأمراض الروحانية ، وهو السبيل إلى تربية الإنسان على الأخلاق الفاضلة الكاملة والأعمال المحمودة ، ويحث الرازي على المواظبة على أعمال الخير والبر ، فمواظبة الإنسان على ذلك تكمّل نفسه ، وتظهر نتيجة ذلك على أعماله ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ١٢ ص ١٥٢ ، ج ٢١ ص ٣٤ ، ج ١٣ ص ١٩٠) ٠

وفي حديث الرازي عن الهدف من خَلْق الإنسان يرى أن الإيمان القلبي غير كاف فلابد من برهان عملي يتجلى فيه الإيمان والعمل دليل على صدق الإيمان ، والإنسان الصادق في إيمانه يبذل ماله ونفسه في سبيل الله وفي طاعته ، ولا يتخلى عن هذا الخلق بأي حال،فلا ينقطع عن طاعة ربه بل يصبر عليها في حالة تعرضه للابتلاء ، والميزان الذي يقاس به صدق المؤمن هو قوله تعالى : ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوٓا أَنْ يَقُولُوٓا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴾ العنكبوت ٢ ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢٥ ص ٢٨) ٠

ولأهمية تحقيق الهدف الخلقي وسريانه في جميع أعمال الأنسان تجد الرازي يركز على القيم الخلقية التي تحمي الإنسان من الوقوع في الأخطاء ، كما يحذر من

الأخلاق الذميمة التي تفسد العمل وتحبطه ، فحث على الأمانة ، واخلاص النية ، والصبر ، والعدل ، والاحسان ، والبر ، والتقوى ، والتواضع ، والانفاق في سبيل الله ، والتعاطف ، والتراحم بين الناس ، والعفو والتسامح ، وغير ذلك من الأخلاق التي دعا إليها الدين ، ومن الأخلاق الذميمة التي حذر منها الرازي ، ماسبق ذكره في الهدف الاجتماعي مثل الغيبة والنميمة ، والحسد ، والظلم ، و الظن السيء ، والتجسس ، والسخرية ، واللمز والتنابز بالألقاب ، وغير ذلك .

وواضح أن الرازي قد استمد هذه القيم الخلقية من آيات القرآن الكريم التي تحث على الأخلاق الكريمة والعمل بها، أو التي تنهي عن الأخلاق الذميمة وتنفر الإنسان من فعلها .

ويدعو الرازي إلى الاقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم لكونه المثل والقدوة الحسنة في كل خلق كريم فكان خلقه القرآن ، وقد استعان الرازي في بيان ذلك بالآيات القرآنية التي تشيد بخلق الرسول صلى الله عليه وسلم مثل قوله تعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ ﴾ آل عمران ١٥٩ ، وقوله تعالى :﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الشعراء ٢١٥ ، وقوله تعالى :﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ الأعراف ١٩٩ ، وقوله تعالى :﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم ٤ ، وقوله تعالى :﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ ﴾ التوبة ١٢٨ .

وبالرجوع إلى ماذكره الباحث في آداب العالم والمتعلم عند الرازي نجد أنه قد أشار إلى مجموعة من الآداب الخلقية التي تساعد المعلم على تحقيق الهدف الخلقي في نفوس المتعلمين مستمدا ذلك من آيات القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلى اله عليه .

وبإعادة النظر في الأهداف الستة السابقة نجدها تتصف بما يلي :

أ - أنها أهداف مرتبطة بالهدف الأكبر للتربية الإسلامية وهو تحقيق العبودية لله سبحانه وتعالى ، فالهدف المعرفي الذي تهدف التربية إلى تحقيقه يجب أن يكون لطلب المعرفة الصحيحة السليمة التي توزن بميزان العقيدة ، ولذلك يحذر الرازي - كما سبق - من المعرفة الفاسدة الباطلة التي تحبط العمل كالمعرفة التي تؤخذ عن طريق المنجمين والسحرة والكهنة ٠

والهدف الاجتماعي - كذلك - مرتبط بالعبودية ، فجميع الروابط الاجتماعية التي أمر الله بها يعد القيام بها عبادة لله إذا أراد الإنسان بذلك وجه الله والامتثال لأمره ٠

والهدف السياسي الذي أوضحه الرازي من خلال حديثه عن العلاقة بين الحاكم والمحكوم يجب أن يكون معتمدا على شرع الله فمن حكم بكتاب الله عدل ومن تركه جار وظلم ، وإذا كان الحكم بغير ما أنزل الله يعد كفرا ، فإن تحكيم كتاب الله وقيام سياسة الحاكم في الرعية على ضوئه يعد إيمانا وعبادة وطاعة لله ٠

والهدف العسكري يهدف إلى نصرة العقيدة والجهاد من أجل اعلاء كلمة الله وتحقيق العبودية لله دون سواه ٠

والهدف الاقتصادي هو العامل الذي يساعد على تنفيذ الأهداف الأخرى فبه تتحقق المعرفة ونشر العلم ، وبه يتحقق التكافل الاجتماعي ، وبه تستطيع الأمة تنفيذ سياستها في نواحي الحياة المختلفة ، وبالمال تعد القوة العسكرية وتجند الأجناد وتعد الجيوش من أجل الدفاع عن حوزة الدين ٠

والهدف الخلقي مرتبط بالعبودية بل هو التطبيق العملي لها ، فأي عمل يقوم به المرء ملتزماً فيه بأخلاق الإسلام يعتبر عبودية لله ٠

ب - تتسم هذه الأهداف بالشمول والتكامل فيما بينها ، فهي أهداف شاملة لكل مناحي الحياة بل تشمل الدنيا والآخرة ، فمن حقّقها فاز بسعادة الدارين ،

فتحقيقها يجلب للإنسان الرخاء والاستقرار السياسي والاجتماعي والاقتصادي ، كما تحقق للأمة الإسلامية العزة والمنعة ، وتصل إلى ماتصبو إليه من نشر العلم والمعرفة ، وما يترتب على ذلك من تقدم وتطور حضاري •

أما بالنسبة لسعادة الآخرة فإن هذه الأهداف تحقق مجتمعة العبودية لله الواحد الأحد ، فإذا استطاع الإنسان توظيف هذه الأهداف لتكون في خدمة العبودية لله فقد فاز برضوان الله وجناته التي أعدها لمن يعبده ولا يشرك به شيئا •

أما التكامل بين هذه الأهداف فواضح أنه لايمكن الفصل بينها بأي حال ، فهي - في مجموعها - تكون حلقة متصلة أو هي كالأركان في المبنى الواحد إذا سقط منها ركن بدا تأثيره على مجموع المبنى •

ج - هذه الأهداف تتسم بالواقعية ، فهي قابلة للتطبيق بكل يسر وسهولة ، لكونها مستفادة ومستنبطة من القرآن الكريم الذي أنزله رب العالمين خالق الإنسان والعالم بما يصلح له وما يتفق مع قدراته فلا يكلفه مالاطاقة له به ، لقوله تعالى ﴿ لَايُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا ﴾ البقرة ١٨٦ •

د - من سمات هذه الأهداف الثبات والمرونة ، وذلك لكونها أهدافاً نابعة من الإسلام وهو دين فيه الثوابت التي لاتقبل التغيير أو التبديل وفيه أحكام تُركت للإنسان ليجتهد فيها حسب ظروفه بحيث لايخرج عن إطار التشريع ولا يخرج عن الأصول الثوابت ، وهذا يعني أن هناك أهدافاً ثابتة وأخرى مرنة قابلة للتغيير والتجديد فتسمح بالحركة والتفاعل بين الفرد والوجود وبينه وبين القوى الاجتماعية سواء كان ذلك داخل المجتمع أو خارجه لكنها - في نفس الوقت - تتوافق وتتناسق مع الأهداف الثابتة ، فالثبات موجود في الأهداف القائمة على قيم التوحيد والتقوى ، وإقامة الشعائر والتمسك بالأخلاق الكريمة ، وعلى ضوء هذه الأهداف الثابتة يتم التغيير الإيجابي الفعال • (أبو العينين - ١٤٠٨هـ - ص ٤٨ - ٤٩) •

هـ - الأهداف التربوية عند الرازي تجمع بين الأصالة والمعاصرة • حيث تلتزم تلك الأهداف بالأصول التربوية للتربية الإسلامية ، فهي نابعة من الكتاب والسنة ، ولذلك تحقق مايصبو إليه الإنسان في كل عصر بمالها من صفة العموم والاستمرار ، فمثلما كانت قادرة على تلبية حاجات الإنسان في عصر الرازي فإنها قادرة على تلبيتها في كل الأوقات وفي كل البيئات ، وهذه الخاصية لاتوجد إلا في التربية الإسلامية ، أما الفلسفات التربوية الأخرى فسبق القول بأنها مرتبطة بحدود الزمان والمكان ، فلا تملك صفة العموم والاستمرار التي تتمتع بها التربية الإسلامية •

و - اعتمد الرازي في اشتقاقه لأهدافه على القرآن الكريم فكل هدف يستند فيه إلى آية أو أكثر من آية قرآنية ثم يجتهد في إيضاحه وإبرازه بحيث لايخرج عن إطار القرآن الكريم ، وبهذا تكون أهداف التربية عند الرازي مرتبطة بأهداف التربية في القرآن ، وهذه أعظم ميزة تميزها عن غيرها من الأهداف •

ز - تتسم أهداف التربية - عند الرازي - بالوضوح ، فلا لبس فيها ولا غموض ، ولا غرابة في ذلك ، فقد اعتمد صاحبها على القرآن الكريم الذي أنزله رب العالمين ليخاطب عقول البشر على اختلاف مستوياتهم وذكائهم وقدراتهم ، فهو يخاطب أدنى العقول كما يخاطب أرقاها بطريقة تتسم بالوضوح والبلاغة المعجزة في نفس الوقت ، ولذلك كانت الفكرة عند الرازي سهلة واضحة تُمكّن للمربي والتلميذ من فهم الأهداف التي يريد الرازي الوصول إليها ، مما يجعل للعلم قادراً على إختيار الطرق والوسائل التي تساعده على الوصول إلى تلك الأهداف بيسر وسهولة •

ثانيا : تقييم الوسائل :

الوسائل التي استخدمها الرازي لتحقيق الأهداف السابقة هي الوسائل المستخدمة لأهداف التربية الإسلامية ، ولذلك كانت الوسائل منسجمة ومتسقة مع الأهداف ، فالأهداف إسلامية والوسائل إسلامية ، لأنها - في مجموعها - تابعة من المصدر الأساسي للتربية الإسلامية وهو القرآن الكريم ٠

وتتلخص الوسائل عند الرازي فيما يلي :

١ - أهم الوسائل - عنده لتحقيق الأهداف هو الوعي بهدي القرآن الكريم ، لأنه للربي والمرشد الذي يهدي الإنسان للتي هي أقوم ، قال تعالى :﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾الاسراء ٩ ٠

ولا شك أن القرآن هو الطريق الأقوم في كل أمر ، سواء كان ذلك في العقائد ، أو الأخلاق ، أو الأعمال ، أو السياسات ، أو الصناعات ، فهو الأقوم في كل عمل يتعلق بالدنيا أو الآخرة ٠ (الجار الله - ١٤٠٣ هـ - ص ٥٨) ٠

وفي تفسير هذه الآية أشار الرازي إلى أن المراد بقوله (للتي هي أقوم) الملة أو الشريعة أو الطريقة ، فهوهاد إلى الاعتقاد الأصوب ، والعمل الأصلح ، فمن اهتدى بهديه حصّل الربح الأكبر والنفع الأعظم ٠(الرازي - التفسير الكبير - ج ٢٠ ص ١٦١) ٠

وواضح من كلام الرازي أن القرآن هو المرشد الهادي إلى معرفة العبودية والقرآن هو السبيل إلى تحقيق الهدف المعرفي ، فالقرآن - كما يذكر الرازي - مصدر لمعارف كثيرة لاحصر لها فاشتمال القرآن على للحكم والمتشابه يعلم العقل طرق التفكير والنظر والاستدلال ، ويؤدي ذلك الى تعلم الإنسان علوما كثيرة تعينه على فهم المحكم والمتشابه مثل علم اللغة والنحو ، وعلم أصول الفقه ٠ والقرآن هو السبيل إلى معرفة علم الغيب في الماضي والمستقبل ، وبالقرآن تتم معرفة الله ومعرفة أسمائه وصفاته وأفعاله وأحكامه وهو الطريق إلى الإيمان

بالله وملائكته وكتبه ورسله،ويعرفنا القرآن على تواريخ الأنبياء وللملوك وأحوال الناس من أول خلق آدم إلى قيام الساعة ، وفي القرآن ذكر أحوال الناس عند الموت وبعد الموت ، وكيفية البعث والقيامة ، وما يحصل للسعداء والأشقياء في الآخرة •

ويشير الرازي إلى أن القرآن يهدي إلى تحقيق الهدف الخلقي ، فالقرآن مشتمل على علم الأخلاق ، فيستطيع الإنسان بواسطته التمييز بين الأخـــلاق الفاضلة والأخلاق الفاسدة • ويشير إلى أن القرآن مشتمل على أحكام الله وتكاليفه لعباده التي تتمثل في علم الفقه وأصوله على أتم الوجوه وأكملها •

ويذكر الرازي أن القرآن الكريم مصدر يجد فيه كل عالم وطالب مراده حسب تخصصه ، فالفقيه والحكيم والأديب يستمد كل منهم من القرآن مايفيده •

ويدعو الرازي إلى العمل بإرشادات القرآن وتوجيهاته فيما يفيد الإنسان في تحقيق أهداف كثيرة في مقدمتها الهدف الاقتصادي ، وذلك بالبحث في الكون لاستخراج كنوزه وخيراته ، فالقرآن الكريم يوجه الإنسان إلى النظر في أحوال السماء ، وأحوال االشمس والقمر والنجوم والأضواء ، والبحث في أحوال الأرض واختلاف الليل والنهار ، ومنافع الكواكب والهواء والرياح والبرق والرعد ، وأحوال البحار ، وأحوال الأشجار والثمار وأنواعها وأصنافها ، وأحوال الحيوانات ، وأحوال الإنسان وعجائب تكوينه في سمعه وبصره ولسانه وعقله وفهمه • (الرازي – التفسير الكبير – ج ٧ ص ١٧٢ ، ج ٢٦ ص ٢٦٨ – ٢٧١) •

وإذا كان الرازي قد نادى منذ القرن السادس الهجري ، بأن الطريق الأسلم والأسلوب الأمثل للتربية هو القرآن الكريم ، فإن المربين في العصر الحديث يحثون على الرجوع إلى طريقة القرآن والتمسك بها ، لكونها تمكن من غرس الإيمان في النفوس البشرية ، وتؤدي إلى الاقناع العقلي ، وتشعر الإنسان بمدى حاجته – دوما – إلى الله تعالى ورعايته ، وطريقة القرآن توجه الطاقات البشرية

وتملأ الفراغ في حياتها بالأعمال البناءة ، كما توجه إلى العلم النافع في مختلف الميادين . (زغلول النجار – ١٤٠٠ هـ – ص ١٣٢) .

٢ – العبادات :

يركز الرازي على العبادات باعتبارها وسيلة للتطبيق العملي الذي تبرز من خلاله أعمال الإنسان في الواقع ، والعبادات تجدد إيمان العبد بربه وتربطه به في كل أوقات حياته ، فهي ترجمة عملية ل « شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله » . والعبادات تنمي في الإنسان الأخلاق الفاضلة ، ويبني الإنسان عن طريقها علاقته مع الناس ، كما أنها تعود الإنسان على النظام وضبط النفس في الحياة الاجتماعية والتعاون والتضحية من أجل مساعدة المحتاجين . (أبو العينين – ١٤٠٨ هـ – ص ٢١٨) .

ولأهمية العبادة كوسيلة تربوية جعلها الرازي أفضل وسيلة لتربية الإنسان ، فأحسن أحوال العبد أن يكون مواظبا على العبادات ، فالمواظبة عليها دليل على تعظيم العبد للمعبود . والمداومة على العبادة تخفف على العبد فعل الطاعات ، ويجد في قلبه حلاوة لذلك ، وتعوّد الإنسان على أداء الأمانة ، لأن العبادة أعظم الأمانات فإذا أداها كانت سبباً في تأدية مادونها من الأمانات .

والعبادات أعظم وسيلة لربط العبد بربه ، فبسببها ينشرح صدره ويزول عن قلبه الضيق وتحصل له البهجة والسرور ، فالعبادة مفتاح لكل خير وعنوان لكل سعادة وينبوع لكل كرامة .(الرازي – التفسير الكبير – ج ١ ص ١٥١ ، ١٨٣ ، ٢٤٩) .

وفي الفقرات الآتية إيجاز لكل عبادة – كما يراها الرازي – وسيلة تحقق أهداف التربية :

أ - الصـــــلاة:

تأتي الصلاة في مقدمة العبادات حيث تربي الإنسان - كما يذكر الرازي - على الخضوع والانقياد لأوامر الله والانتهاء عن مناهيه، وتُذكِّر الصلاة العبد بجلال الربوبية، وتذكره بالثواب والعقاب، فيُسَهل عليه ذلك الانقياد والطاعة والصبر، ولذلك قال تعالى: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ البقرة ٤٥.

وتربي الصلاة الإنسان على الطهارة والجمال، فيواظب على طهارة البدن والثوب والمكان، ويحافظ على ستر العورة، وتربيه على ضبط النفس وقوة الارادة من خلال المحافظة على أركان الصلاة، والاحتراز عن مبطلاتها، وتحفظ الصلاة الإنسان عن المعاصي والفواحش، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ﴾ العنكبوت ٤٥. (الرازي - التفسير الكبير- ج ٦ ص ١٤٥- ١٤٧)

ب - الزكـــــاة:

الزكاة وسيلة تربوية لتهذيب النفس البشرية يؤديها العبد امتثالا لأمر الله، فهي من هذا الجانب تحقق العبودية، ومن الجانب الآخر تحقق الهـــدف الاجتماعي بما تحدثه من ترابط وتكافل اجتماعي. وقد أوضح الرازي أن الحكمة من فريضة الزكاة تطهير النفس من الاستغراق في حب المال الذي يشغل النفس عن حب الله وعن الاستعداد للآخرة، فأوجب الله الزكاة على أصحاب الأموال لتربية نفوسهم ومنعها من الميل الشديد إلى المال وتنبيهاً لها على أن السعادة لاتحصل عند الاشتغال بطلب المال وإنما تحصل بانفاقه في طلب مرضاة الله تعالى، قال تعالى: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾ التوبة ١٠٣. والزكاة تقلل الطغيان، لأن كثرة المال سبب لحصول الطغيان والقسوة في القلب، ولذلك قال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أَن رَّآهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ العـــلق ٦.

كما يرى الرازي أن للزكاة أثرها في تقوية أواصـــر المحبة بين الناس ، فالزكاة تُعوِّد الغني ليشفق على خلق الله ويحسن إليهم ويسعى في إيصال الخير إليهم ودفع الضرر عنهم ، وهي وسيلة وسبب في استمالة نفوس الفقراء إلى الأغنياء ، فتتمكن المحبة في نفوسهم تجاه من أحسن إليهم ٠

وتجلب الزكاة الألفة والمودة بين المسلمين وتزيل الحقد والحسد عنهم وتسد حاجات الفقراء فلا يضطرون بسبب العوز والفاقة إلى الالتحاق بأعـــداء المسلمين ، وتحميهم الزكاة من الإقدام على السرقة والأفعال المنكرة ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ٦ ص ١٠٠ - ١٠٤)

جـ - الصـــوم :

ويتحدث الرازي عن الصوم ويبين مدى أهميته كوسيلة لتربية الإنسان على التقوى ، فالصوم يكسر الشهوة ويقمع الهوى ويردع عن الكبر والبطر ويحـــول بين الإنسان وبين الفواحش ، ويحمل العبد على الزهد في الدنيا ومناصبها ٠

وقد فرض الله الصيام ليكون جامعاً لأسباب التقوى ، ويؤيد الرازي رأيه بقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِيْنَ آمَنُوْا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامَ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِيْنَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُوْنَ ﴾ البقرة ١٨٣ ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ٥ ص ٧٠) ٠

من الواضح أن الرازي عندما يتحدث عن فائدة الصوم في تربية الإنسان على التقوى وحمايته من أي أمر يخل بها فإنما يريد تحقيق ثلاثة أهداف في آن واحد فيتحقق هدف العبودية ، والهدف الاجتماعي ، والهدف الأخلاقي ، فالتقوى - كما هو معلوم - اسم جامع لكل وجوه الخير والبر ، فمن أخل بالعبودية فقد تخلى تماماً عن التقوى ، ومن أخل بما عليه من حقوق نحو المجتمع فقد أخل بالتقوى ، ومن ترك الالتزام بالفضائل والقيم الخلقية فلا يمكن أن يكون على شيء من التقوى ٠

فالصوم وسيلة عظيمة الأثر في تعديل سلوك الإنسان وتربيته على الصبر والانضباط في كل أعماله ، والإيثار والرغبة في فعل الخير والقيام بكل مايجب عليه نحو المعبود ونحو العباد ٠

وبذلك يكون الصيام - كما ذكر الرازي - جامعا لأسباب التقوى ٠

د - الحـــــج :

والحج - أيضا - وسيلة تربوية تحقق نفس الأغراض التي يحققها الصوم ، فالحج يربي الإنسان على العبودية لله وحده ، ويربيه اجتماعيا وخلقيا ، والحج ميدان فسيح للتطبيق العملي فهو اختبار للإنسان يدرك من خلاله مدى قدرته على تحقيق العبودية لله ، ومدى قدرته على الالتزام بما يحمله من قيم وأخلاق إسلامية ، ومدى قدرته على القيام بالتزاماته الاجتماعية ٠

ولذلك يرى الرازي أن الحكمة من الحج تحصيل المنافع المتعلقة بالآخرة حيث يحصل العبد على عفو ربه ومغفرته ، وكذلك تحصيل منافع الدنيا بما يحصل في أيام الحج من التجارة ، وما يحصل فيه من اظهار التواضع على أتم وجه فتكون المساواة بين الأغنياء والفقراء ، ومن منافعه اطعام البؤساء والفقراء من لحوم الهدي والأضاحي ، وجماع القول - كما يذكر الرازي - أن في هذه العبادة من المنافع الدينية والدنيوية مالايوجد في غيرها من العبادات ٠(الرازي - التفسير الكبير - ج ٢٣ ص ٢٨ - ٢٩) ٠

٢ - استخـــدام العـــقل :

حث القرآن الكريم على استخدام العقل في التأمل والتدبر والتفكير ، فالعقل وســـــيلة يستخدمه الإنسان في التمييز بين الأشياء فيفرق بين النافع والضار

ويميز بين الحق والباطل وبين الخير و الشر ، ولذلك جعل الله العقل مناطاً للتكليف ، فإذا فقد الإنسان عقله رُفع عنه القلم ·

ولهذا السبب عَدَّ الرازي العقل طريقاً تربوياً ووسيلة يستخدمها الإنسان في البحث والنظر والاستدلال ليخرج من ربقة التقليد الأعمى الذي يضل صاحبه ويحجبه عن الوصول إلى الحق ·

واعتمد الرازي - في ذلك على الآيات التي تدعو إلى استخدام العقل مثل قوله تعالى :﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا ﴾ محمد ٢٤ ، وقوله : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ آل عمران ١١٨ ·

فيرى الرازي أن المراد من هذه الآيات حث الناس على استعمال العقل في التدبر والتأمل ، لكنه لا يستفيد من ذلك إلا المؤمنون ، فهم أهل العقل والفهم والدراية الذين يستفيدون من عقولهم في تدبر الآيات البينات ، ثم يشير الرازي - بعد ذلك - إلى أن الله تعالى لم يعط الإنسان العقل والتفكير إلا ليستخدمه في التوصل إلى المعارف الحقيقية والأخلاق الفاضلة التي تجلب له السعادة العظيمة في الآخرة ، فلا يجوز للإنسان أن يحصر قوته الفكرية في تحصيل اللذات الدنيوية دون النظر إلى الآخرة ، ثم يبين الرازي مدى أهمية العقل كوسيلة تعين الإنسان على ادراك العلاقات بين الأشياء وتساعده على التمييز بين الأمور المشتركة والأمور المتباينة حيث يقوم العقل بتركيب العلوم الأولية التي تصل إليه ثم يتوصل بواسطة تلك العلوم الأولية إلى علوم أخرى مجهولة · (الرازي - التفسير الكبير - ج ٨ ص ١٩٩ ، ج ١٢ ص ١٩٧ ، ج ٣٠ ص ٢٣٧ ، ٢٣٨) ·

ويتفق المربون في العصر الحديث مع الرازي في استخدام العقل باعتباره وسيلة وطريقة إلى الفهم والإدراك ، فهو الأداة التي بموجبها كلف الله الإنسان وجعله محاسبا على قوله وفعله · وقد استخدم القرآن الكريم أساليب التعليل والقياس العقلي ، وفي ذلك ارشاد للإنسان ليستخدم نفس الأسلوب ، ولا شك أن لذلك

أثره الفعال في التربية حيث يؤدي إلى اقتناع المتعلم بالمعلومات التي يتعلمها وبالسلوك الذي يسلكه وبالفعل الذي يفعله ٠(أبو العينين - ١٤٠٨ هـ ص ٢٢٦)

٤ - التربية بالقدوة :

من الطرق التربوية المؤثرة القدوة ، فالقدوة الحسنة لها أثرها الإيجابي ولا سيما في النشء الصغار الذين يميلون إلى التقليد والمحاكاة ، والقدوة السيئة لها أثرها السلبي عليهم ٠ ولا يخفى على الرازي ماللقدوة من أثر في التربية ، ولذلك حث العلماء والآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر على الالتزام بما يقولون ، والتطبيق السليم في أقوالهم وأفعالهم ، فالتزامهم بالطاعة يشجع الناس على فعلها، واقدامهم على المعصية والتهاون بالدين يدعو الناس إلى ارتكاب المعاصي والجرأة عليها ، فالدعاة والعلماء هم القدوة لغيرهم في القول والفعل ، فإذا أرادوا أن يكون لدعوتهم ولوعظهم ولعلمهم وتعليمهم أثر في قلوب الناس فليكونوا حذرين من الوقوع في الخطايا ٠(الرازي - التفسير الكبير - ج ٣ ص ٤٦ - ٤٧)

والرازي يهدف إلى جعل ذلك وسيلة يلتزم بها المربون سواء كانوا دعاة أو معلمين أو آباء ، فالأبناء والطلاب والمجتمع عمومايتأثر بأعمال وأخلاق وسلوك من يقوم على التربية ٠

٥ - الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر :

القرآن الكريم يدعو إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ويحث على التواصي بالحق والتواصي بالصبر ٠ قال تعالى :﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ الذاريات ٥٥ ، ولاشك أن هذا الطريق من أفضل الطرق والوسائل لتحقيق أهداف التربية الإسـلامية ، والرسول صلى الله عليه وسلم إنما بعث ليأمر

الناس بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويعلمهم الخير ويربيهم على مكارم الأخلاق قال تعالى : ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ الغاشية ٢١ ، وخير الناس من اقتفى أثر الرسول في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، فهو وسيلة الآباء في تربية أولادهم ووسيلة المعلمين في تربية تلاميذهم ، ووسيلة لتربية المجتمع لنشر المعروف بين أفراده والقضاء على الفساد والمنكر ، وقد وُصفت هذه الأمة بأنها خير أمة ، لأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، قال الله تعالى : ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ ﴾ آل عمران ١١٠ ٠

وقد نبه الرازي إلى هذه الوسيلة الفعالة في الاصلاح ، وأدرك مدى تأثيرها في تحقيق أهداف التربية ، فدعا العلماء إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأشار إلى أن هذا هو اختصاص العلماء ووظيفتهم التي يجب عليهم القيام بها ، وأرشدهم إلى الأسلوب الذي ينبغي لهم أن يتبعوه في هذا السبيل وهو أسلوب اللين والتدرج في الدعوة ، وأوصاهم بالتعاون والتآزر فيما بينهم ، لأن ذلك يؤدي إلى انقاذ الحق ، كما حذرهم من الفرقة والاختلاف لئلا يكون ذلك سببا في عجزهم عن القيام بهذا التكليف العظيم ٠ وقد استند الرازي في دعوته إلى استعمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى الآيات السابقة ، و إلى قوله تعالى ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ آل عمران ١٠٤ ٠ وإلى قوله تعالى : ﴿ وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ العصر ٠ (الرازي - التفسير الكبير - ج ٨ ص ١٦٧ - ١٦٩) ٠

٦ - نشر العلم :

العلم - عند الرازي - وسيلة إلى تحقيق الأهداف التربوية ، فالعلم طريق إلى توعية المجتمع ورفع مستواه الثقافي ، وبالعلم يتم محو الأمية ، والعلم ينير القلوب

ويوصل إلى الحق ، وبه يعرف المرء أمور دينه ويدرك واجباته ومسئولياته تجاه نفسه وتجاه غيره من الناس ، وبالعلم يعرف الإنسان كيف يعبد ربه وكيف يتعامل مع الخلق ، ولذلك يرى الرازي أن أعلى درجات الإنسان أن يصير عالماً في نفسه ومعلما لغيره ، وأن يصير هدفه من التعلم والتفقه دعوة الناس إلى الحق ، ونشر العلم فيما بينهم ، ويدعم الرازي رأيه بقوله تعالى :﴿ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ الأنفال ١٢٢ • وقوله تعالى :﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ البقرة ١٧٤ • وقول الرسول صلى الله عليه وسلم :«« **من كتم علما عن أهله ألجم بلجام من نار** »» •

والعلم والاهتداء - كما يذكر الرازي - أفضل الأشياء ، بينما الجهل والضلال أقبح الأشياء ، فبالعلم يظهر الحق وتزال الشبهة وفي ذلك أعظم الثواب ، واخفاء العلم يؤدي إلى طمس الحق وإظهار الشبهة وفي ذلك أعظم العقاب • (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢٧ ص ١٢٤ ، ج ٢١ ص ٧٤ ، ج ١٦ ص ٢٢٨ ، ج ٩ ص ١٣١ ، ج ٥ ص ٢٨) •

يتضح من كلام الرازي أن العلم وسيلة لمحو الجهل وإظهار الحق وإزالة الشبهة واشاعة المعرفة وتعميمها ، ولاشك أن العلم الذي نادى الرازي بنشره وعدم جواز كتمانه لابد منه في تحقيق الأهداف التي دعا الرازي إلى تحقيقها ، فالعبودية لايمكن تحقيقها بصورة صحيحة وسليمة بغير علم ، والأهداف الأخرى ، الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والمعرفية والعسكرية لايمكن تحقيقها إلا بواسطة العلم ، فالعلم يعد شريان النهضة الحضارية وهو الأساس في بناء حضاري متكامل •

٧ - الترغيب والترهيب :

الترغيب والترهيب أو الثواب والعقاب لهما الأثر الكبير في تحقيق أهداف التربية الإسلامية ، فالترغيب حافز يدفع الإنسان إلى تحقيق العبودية لله تعالى ليحصل على الأجر والثواب . والترهيب يمنع الإنسان من الوقوع في الذنوب والمعاصي التي تخل بالعبودية . والترغيب يحقق الهدف الاجتماعي فيدفع الإنسان إلى الشفقة على الناس وبذل الخير لهم ، والترهيب يمنعه من الإساءة إليهم ، فالترغيب والترهيب وسيلتان تؤديان إلى الألفة والمحبة والتعاون على البر والتقوى وترك التعاون على الاثم والعدوان ، فيتحقق ماتصبو إليه التربية من تربية المجتمع واصلاحه وتوثيق العلاقات الإنسانية بين أفراده .

وقد اتخذ الرازي الترغيب والترهيب وسيلة لتحقيق الأهداف التربوية عنده ، فهو يرى أن أقدام الإنسان على الطاعات واحجامه عن المحظورات إنما يكون من أجل الرغبة في الثواب والرهبة من العقاب ، كما يرى أن للإيمان بالبعث والقيامة أثره في ذلك . ولذلك يدعو الرازي إلى التربية الإيمانية ، لأن انكار البعث هو السبب في اقدام الإنسان على كل اللذات والمشتهيات ، وسبب في وقوع الإنسان في جميع أنواع الكفر والمعاصي ، فالتكذيب بيوم الدين يقود المكذب إلى انكار النبوة وانكار الشرائع والاقدام على كل عمل قبيح بدون مبالاة ، والمكذب بالدين يرتكب جميع القبائح في حق الناس ، فيدع اليتيم ويؤذيه ، ولا يطعم المسكين ولا يحض على اطعامه ، و هذه الأمور القبيحة ينكرها الشرع وتنكرها المروءة الإنسانية ، لكن المكذب بالدين لاينكر شيئا من ذلك ، ولخبثه وخسته لايكتفي بمنع اليتيم حقه بل يبخل عليه بمال غيره فلا يسمح بوصول مال اليتيم إليه ، والمكذب بالدين إذا صلى فصلاته صلاة رياء لاانتهاء عن الفحشاء والمنكر ، فلا يشفق على خلق الله ولا يعظم أمر الله ، فلما قصّر في هذين الأمرين كَمُلت شقاوته . (الرازي - التفسير الكبير - ج ٣٢ ص ١٢٢ - ١٤٤) .

وقد اعتمد ارازي في فكرته السابقة فيما أورده من ألوان الترهيب على سورة الماعون •

أما الترغيب فقد اعتمد الرازي على قوله تعالى :﴿ وَالَّذِيْنَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُوْنَ • وَالَّذِيْنَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُوْنَ • أُوْلَئِكَ هُمُ الْوَارِثُوْنَ •الَّذِيْنَ يَرِثُوْنَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيْهَا خَالِدُوْنَ﴾ المؤمنون ٨، ٩، ١٠، ١١

فهذا الترغيب وسيلة لترغيب الإنسان في أداء الأمانات من أجل الوصول إلى جنة الفردوس ، ولذلك يدعو الرازي إلى أداء الأمانات التي أؤتمن عليها الإنسان ، فالمراد بالآية السابقة كل الأمانات سواء كانت صغيرة أم كبيرة ، فالعبادات جميعها تدخل في ذلك كالصلاة والصوم وغيرها وكذلك مايلتزم به المرء من قول أو فعل فإنه يجب عليه الوفاء به ، وكذلك الودائع والعقود وما يتصل بهما ، فمراعاة هذه الأمور والقيام بها شرط لحصول الفلاح والفوز بالفردوس • (الرازي - التفسير الكبير - ج ٢٣ ص ٨١) •

إن ماقدمه الرازي في الترغيب والترهيب من خلال آيات القرآن الكريم يعتبر وسيلة تربوية هامة في يد المربين ليأخذوا تلاميذهم بها فيرغبوهم في ممارسة أعمال الخير والبر وتطبيق ذلك عمليا في شتى صور العبادات والمعاملات ، ويعرضوهم للمواقف التربوية التي يمارسون من خلالها الأمور المرغوب فيها والقيام بها لينشاءوا في طاعة الله وتمتليء قلوبهم بمحبته • ويستخدم المعلمون الترهيب في بيان مغبة الانحراف عن طريق الحق وما ينطوي عليه ذلك من مخاطر في الدنيا والاخرة ، وما ورد في ذلك من الوعيد والتهديد ، حتى يصبح لديهم مناعة فلا يقدمون على مالايرضي الله سواء كان فيما يتعلق بالعبودية أو فيما يتعلق بالعلاقات الانسانية•

بإعادة النظر في وسائل التربية السابقة عند الرازي نجد أنها تتميز بما يلي :

أ - التكامـــــل :

تتكامل هذه الوسائل فيما بينها فعن طريقها-مجتمعة-يتم تحقيق الأهداف المذكورة ، وبالإمكان تحقيق الهدف الواحد بها مجتمعة أو منفردة كما في حالة هدف العبودية ، فتلك الوسائل تتضافر من أجل تحقيق العبودية لله وحده ، وقد تشترك الأهداف في وسيلة واحدة ، فجميعها تحتاج إلى العلم كوسيلة لابد منها لتحقيق جميع الأهداف ٠

ب - تجمع الوسائل - عند الرازي - بين كونها وسائل وأهدافاً في الوقت نفسه ، فبواسطتها يجمع المتعلم بين التعلم والتطبيق ، فالعبادات تعتبر طريقاً للتربية وأهدافاً لها ، فالمتعلم يتعلم نظرياً كيفية العبادة وكل مايتعلق بها من أحكام وشروط ليكون قادراً على تطبيق العبادة عملياً على الوجه الصحيح ، فالتعليم النظري وسيلة إلى التطبيق ٠ والتربية الإسلامية تحرص على الربط بين الطريقة والعمل ليدرك المتعلم أنه لايمكن أن يكون هناك علم بدون عمل ، وهذه الصفة ملازمة للوسائل عند الرازي ، حيث يجمع بين النظرية وتطبيقها في الواقع العـــملي ٠

ج - الطرق والوسائل التربوية التي أشار إليها الرازي تتصف بالمرونة والقدرة على استيعاب الجديد في مجال التربية ، فهي قابلة لما يحدث من تطور ، فتسمح بإضافة أي وسيلة جديدة إليها ، بشرط عدم تعارضها مع أهداف التربية الإسلامية فأي وسائل تعليمية أو برامج تكنولوجية تساعد على تطوير العملية التربوية لايمكن القول بأن الطرق المذكورة عند الرازي لاتسمح باستخدامها ٠

د - تستطيع هذه الوسائل إنارة الطريق للمربين في كل مجالات التربية ومايتعلق بها من مناهج أو مقررات أو حتى في رسم الأهداف ، وكذلك في مجال العلوم التجريبية والإنسانية ، مادام أن أهداف التربية الإسلامية تتسم بالثبات والمرونة في الماضي والحاضر والمستقبل ٠

ثالثاً : تقييـــم المحتـــوى :

بإلقاء نظرة فاحصة على فصول هذا البحث نجد أنها مشتملة على أهم الموضوعات في التربية الإسلامية ، ويتضح من خلالها وضوح الرؤية والتصور الإسلامي لدى الرازي ، فالروح الإسلامية شائعة وسارية في كل المفاهيم التربوية التي تطرق لها ، كما يبدو مدى تأثر الرازي بالقرآن الكريم والسنة المطهرة ٠ وفي النقاط التالية تقييم للمحتوى عند الرازي :

١- يتبين من حديث الرازي عن الطبيعة الإنسانية أنه عالج هذا الموضوع معالجة وافية مستوعبة ، حيث أبرز مدى التكامل والتوازن والترابط بين عناصر طبيعة الإنسان ، معتمداً في ذلك على نظرة القرآن الكريم لهذه الطبيعة ، ومحاولاً شد الإنسان ودفعه ليتأمل في نفسه وفي خلقه وطبيعته ليستدل بذلك على عظمة الخالق وقدرته وبديع صنعه ، ولا شك أن الرازي يهدف من وراء ذلك إلى ترسيخ الإيمان بالله في نفس الإنسان ٠

ولما تحدث الرازي عن « التكامل بين العقل والروح والجسد » دعا إلى الاعتماد على القرآن الكريم في تربية هذه الجوانب ، فالتربية القرآنية هي القادرة على إيجاد التوازن والتكامل بين عقل الإنسان وروحه وجسده ٠

ويولي الرازي تربية العقل والحواس اهتماماً كبيراً ، وينعى على أولئك الذين عطلوا عقولهم وحواسهم فلم يستعملوها فيما يعود عليهم بالخير في الدنيا والآخرة فصاروا أضل من الأنعام ، ويستدل الرازي بقوله تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ الأعراف ١٧٩ ٠

وفي هذا توجيه للقائمين على التربية ليربوا التلاميذ عقلياً وجسمياً ليستفيدوا

من نعمة العقل الذى كرمهم الله به ومن نعمة الحواس في اكتساب المعرفة والعلم وتطبيق ذلك تطبيقاً سليماً على ضوء تعاليم القرآن والسنة ٠

وكذلك الفطرة الإنسانية ، فالإنسان - عند الرازي - مفطور على التوحيد ، وهي فطرة الله التي فطر الناس عليها ، ولكي يبقى الإنسان على هذه الفطرة فلابد من تربيته بواسطة القرآن والسنة ويؤكد الرازي على ذلك ، فالقرآن والسنة هما « أعظم مرب ومرشد » ٠

والإنسان - أيضاً - مفطور على الخير ، والتربية هي المسئولة عن تربيته لابقائه على هذه النزعة الخيرة وابعاده عن الشر والانحراف ، ويرى الرازي أن الله أنعم على الإنسان بالعقل وإرسال الرسل وانزال الكتب من أجل تربيته والمحافظة على طبيعته الأصلية ٠

ويرى الرازي أن « الضعف والعجز في الطبيعة الإنسانية يتراوح بين أمرين : هما البطر في حالة الرخاء ، وإعلان الضعف في حالة الشدة ، وهما - في نظره - حالتا ضعف ، لأنهما يتعارضان مع الصبر على الطاعة في حالة الرخاء ، والصبر على الشدة في حالة الابتلاء ٠ ونظرة الرازي هذه تتفق مع قوله تعالى : ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوْعاً ٠ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوْعاً ٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوْعاً ٠ إِلَّا الْمُصَلِّيْنَ ٠ الَّذِيْنَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُوْنَ ﴾ ٠ المعارج ١٩ - ٢٣ ٠

وباستعراض الفصل الخاص بالطبيعة الإنسانية عند الرازي يتبين أنه قد أتى على معظم العناصر التي تتكون منها طبيعة الإنسان ، واستطاع - بإعتماده على القرآن الكريم - أن يقدم للمربين الأنموذج الأمثل لهذه الطبيعة ، وتوصل إلى مالم تتوصل إليه الفلسفات التربوية القديمة والحديثة ، والتي اتسمت بنظرتها الجزئية وتصورها الخاطيء لطبيعة الإنسان ، فمنها ماينظر إلى الإنسان على أنه حيوان ناطق ، ومنها ماينظر إليه على أنه مسير لامخير ، ومنها ماينظر إليه عل أنه شر محض ، وهناك من يرى أنه مخلوق بهيمي تتحكم فيه شهواته ، وهناك

من يرى أنه جزء من الطبيعة يخضع لما تخضع له من قوانين ، وهناك من يرى أنه خاضع لمجموعة من الغرائز • (محروس • ١٩٨٨م - ص ٨٠٧) •

٢ - وفي الأصول العقدية والأصول الإجتماعية والأصول العلمية يتضح أن الرازي يربط بين هذه الأصول الثلاثة ، حيث يجب أن تحقق - مجتمعة - العبودية لله •

لقد استطاع الرازي - في هذه الأصول - أن يحرك في النفس كوامن الإيمان الذي يربط العبد بالخالق سبحانه وتعالى • وهذا مايميز المحتوى عند الرازي ، فالروح الإسلامية هي السائدة في كل فكرة وفي كل عبارة من عباراته ، لأنه كان منطلقاً في فكره وأسلوبه من القرآن الكريم ، وهذا هو الأسلوب الذي يجب أن ينهجه المؤلفون في كتاباتهم التربوية لتكون في كل العلوم ناضحة بروح الإسلام سواء في ذلك كتب العلوم والرياضيات والتاريخ والجغرافيا والاجتماع وعلم النفس وغير ذلك من المواد •

فجميع المواد التي تُدرس للتلاميذ الصغار أو الطلاب الكبار يجب أن تتضافر جميعها - فيما تحمله من محتوى - على غرس عقيدة التوحيد وتعميق الإيمان بالله في قلوب المتعلمين ، كما يجب إعداد المعلمين ليكونوا قادرين على تنفيذ ذلك ولتكون لديهم القدرة على نقد المحتوى الذي يدرسونه لطلابهم فيغيروا أو يزيلوا أي كلمة أو أية عبارة لاتتفق مع العقيدة الإسلامية •

إن ماقدمه الرازي - هنا - يصلح أنموذجاً يحتذى في هذا المجال ، فهو يعطي دلالة على ماكان يتمتع به علماء المسلمين من روح إسلامية اصطبغت بها كتاباتهم ومؤلفاتهم في مختلف التخصصات سواء في ذلك العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية • وهي تدل على استقلال المسلمين في فكرهم ومنهجهم ، بينما يعاني الكثير من الأقطار الإسلامية في العصر الحاضر من التبعية ، فهناك من كتاب التربية من يشكو من التبعية التربوية للغرب حيث مازالت المناهج التربوية تستعير محتواها من المناهج الغربية العلمانية مما يهدد أبناء المسلمين في

عقيدتهم وأخلاقهم وسلوكهم ، ويقترح هؤلاء الكتاب أن يكون الأساس للتربية ومناهجها منبثقاً من نظرة الإسلام إلى الكون والإنسان والحياة ، ويراعى في طبيعة المعرفة - في حقولها المختلفة - أن تكون قادرة على ترسيخ العلم والتمكن منه ، وتوظيف هذا العلم وأساليبه ليخدم الفكر والعقيدة ويعزز الإيمان بالله . (اسحاق فرحان وآخرون - ١٣٩٩هـ - ص ٧ ، ١٦) .

٣ - وفي الفصل السادس تم تحديد أدوات المعرفة عند الرازي ، وهي الوحي والعقل والحواس ، والرازي - في هذا المجال - ملتزم بنظرة الإسلام إلى المعرفة ، فالوحي هو الطريق الذي يوصل إلى معرفة علم الغيب وهو الحصن الذي يحمي الناس من الوقوع في أوهام مدعي علم الغيب من السحرة والكهان والمنجمين الذين يقودون الإنسان إلى الكفر والضلال .

والإسلام يدعو إلى استعمال العقل في التفكير للحصول على المعرفة ولاسيما في مجال الكون والنظر في ملكوت السماوات والأرض وماتنطوي عليه من قوانين وأسرار دقيقة يصل الإنسان من خلالها إلى كثير من الحقائق فيزداد إيماناً بالله من ناحية ، ويصل إلى ماينفعه في حياته الدنيا من ناحية أخرى .

والحواس تساعد العقل في تحصيل المعرفة ، ولذلك يحث الرازي على استخدام هاتين النعمتين (نعمة العقل والحواس) ، وعدم تعطيلهما عما خلقت من أجله ، فلايجوز للمسلم أن يعطل عقله وحواسه عن اكتساب المعرفة التي تؤدي إلى قوة وعزة المسلمين ، فالمسلمون عندما استعملوا عقولهم وحواسهم استطاعوا أن يقدموا للبشرية معرفة مفيدة وعظيمة كانت سبباً في بناء صرح حضاري عظيم ولما عطل المسلمون عقولهم وحواسهم - في القرون الأخيرة - عن البحث في الكون والتفكير فيه أصابهم الجمود والتخلف عن ركب الحضارة .

ومن الواضح أن الرازي يهدف إلى استعمال العقل والحواس للحصول على المعـــرفة السليمة التي تنسجم مع عقيدة الإسلام ، ولذلك قيد المعرفة العقلية بأن

تكون « في تحصيل المعارف الحقيقية والأخلاق الفاضلة » ؛ فالمعرفة الإسلامية محكومة بالقيم والأخلاق التي تُحوّل المعرفة إلى تطبيقات تؤدي إلى خير ورفاه البشرية لا إلى تدميرها كما يفعل عالم الكفر اليوم الذي يسعى إلى استخدام المعرفة في تدمير العقيدة والأخلاق ، فثقافة الغرب - كما يقـــــول (محمد المبارك - ١٤٠٠هـ) : تقوم على « انكار كل طريق للمعرفة غير طريق المنهج الحسي والتجريبي كطريق الوحي والنبوة » ص ٦٨ ٠

٤ - **وفي الفصل السابع تتضح المنزلة الرفيعة التي يحتلها العلم والعلماء** عند الرازي ، ويتميز ماذكره الرازي عن (فضل العلم والعلماء) بما أورده من الآيات والأحاديث والآثار التي ترفع من شأن العلم وأهله فاستدل بأكثر من ٤٤ أربع وأربعين آية ، وبمجموعة كبيرة من الأحاديث والآثار ، ولم يكتف الرازي بسرد الآيات بل فسرها وأوضح من خلالها وجه الدلالة على فضل العلم والعلماء ، ثم عقّب على ذلك مبيناً رأيه في المكانة والمنزلة التي يتمتع بها العلماء في نظر المجتمع وختم الرازي هذا الموضوع بخاتمة قرر فيها أن أفضل العلوم علم التوحيد ذاكراً الأسباب التي جعلته أشرف العلوم ٠

لقد أجاد الرازي في التحليل والتعليل والإيضاح لبيان فضل العلم والعلماء ، وأجاد عندما دعم رأيه بالشواهد والأدلة من الكتاب والسنة ممايؤدي إلى الاقتناع بأنه لايوجد على وجه الأرض أفضل ولاأشرف من العلم والعلماء ، ليعطي الرازي - بذلك - دافعاً قوياً لطلب العلم والاقبال عليه للوصول إلى المرتبة العالية والمنزلة الرفيعة ٠

وأحسن الرازي صنعاً عندما جعل علم التوحيد على قمة جميع العلوم من حيث الشرف والمنزلة باعتباره الأصل والأساس والمعيار الذي توزن به العقائد لمعرفة صحيحها من فاسدها ، وتوزن به جميع المعارف والعلوم لمعرفة مدى خلوها من أي شائبة تخل بعقيدة التوحيد ٠

٥ - واشتمل الفصل الثامن على عدد من آداب العالم والمتعلم ، وأساليب التعليم والتعلم ، وتتميز تلك الآداب بما تحمله من قوة التأثير والاقناع ، وماتنطوي عليه من الترغيب في الاستقامة والالتزام بالعمل والتطبيق ، وماتنطوي عليه من الترهيب والتنفير من مخالفة القيم والآداب الإسلامية ، ويتميز أسلوب الرازي - في حديثه عن تلك الآداب - بمخاطبته للعقل والوجدان في آن واحد مما يؤدي إلى القناعة بأنها آداب ضرورية للعلماء الذين يخاطبهم الرازي باعتبارهم قدوة للمجتمع المسلم عامة ، وقدوة لطلاب العلم خاصة ، ومما يؤكد القناعة بجدوى هذه الآداب أن الرازي اشتقها من آيات القرآن الكريم ، حيث اعتمد في كل واحد منها على آية أو أكثر .

أما من حيث مخاطبتها للوجدان فإنها تثير العواطف وتُرغّب في الميل إلى التطبيق خشية الوقوع تحت طائلة العقاب ، والرغبة في نيل الثواب .

وفي أساليب التعليم والتعلم يظهر مدى تأثر الرازي بالقرآن الكريم حيث راعى في اختياره لأساليبه أن تكون موافقة - في معظمها - لأساليب التربية في القرآن الكريم الذي يراعي التدرج في التربية والتشريع ، ويراعي الفروق الفردية فيخاطب الناس على قدر عقولهم ، ويراعي ميول الإنسان فيربيه ليميل نحو الخير ويرغبه في فعله ، وينفره عن الميل نحو الشر ويحذره من فعله ، والقرآن يستعمل أساليب متعددة وطرقاً متنوعة ولاسيما في الوعد والوعيد لاحداث التأثير في النفوس ، ويستعمل - كذلك أسلوب ضرب الأمثال ، والمناظرة والحوار وقد أشار الرازي إلى هذه الأساليب جميعها .

ولاشك أن أسلوب القرآن وطريقته التربوية وماتحمله من قوة التأثير وتربية العقول والعواطف تعد أرقى الأساليب التربوية وأفضلها ، ولذلك اعتمد الرازي وغيره من علماء التربية الإسلامية على أسلوب القرآن الكريم ، واجتهدوا على ضوء ذلك .

٢- إلى أي مدى يمكن تطبيق المفاهيم التربوية لدى فخرالدين الرازي في الوقت الحاضر :

يتضح من التقييم السابق للمفاهيم التربوية عند الإمام فخرالدين الرازي أنها مرتبطة تمام الارتباط بالتربية الإسلامية في أهدافها ووسائلها ومحتواها ، فمثلما أن التربية الإسلامية تعتمد على الكتاب والسنة ومانبثق عنهما من اجتهاد يؤدي إلى التجديد والتطوير التربوي فكذلك التربية عند الرازي تعتمد على الكتاب والسنة ثم اجتهاده على ضوئهما ، ولذلك اتسمت التربية عنده بالأصالة والمعاصرة في آن واحد ، فشارك الرازي علماء عصره في النهضة التربوية التي أدت إلى حركة علمية وحضارية. وسبق في الفصلين الثاني والثالث المتعلقين بسيرة الرازي والعصر الذي عاش فيه مايدل على مدى تأثيره بما كان يقوم به من دروس ومحاضرات ، وبما ألفه من كتب علمية في مختلف العلوم والتي تدل - من حيث كميتها ونوعيتها - على مشاركته الكبيرة في الحركة العلمية .

أما مدى تأثيره في العصر الحاضر ، فما زال الباحثون يكرسون جهدهم في البحث في تراث المسلمين محاولين الوصول إلى نظرية تربوية متكاملة من أجل تطبيقها في الواقع المعاش . ويأمل الباحث - هنا - أن يكون قد استطاع بجهده المتواضع اظهار شيء من جهود الرازي في المجال التربوي . وفيما يلي إيجاز للفوائد التربوية عند فخر الدين الرازي والتي يمكن تطبيقها في الوقت الحاضر :

١ - في الطبيعة الإنسانية :

إذا كان المربون يريدون معرفة طبيعة الإنسان كما هي في الواقع بعيداً عن التخبط العشوائي فإن الرازي قدم لهم ماينير لهم الطريق في هذا المجال ، ولاسيما أنه قد فهم هذه الطبيعة كما هي في القرآن الكريم مما يجعل فكرته - عنها - قابلة للتطبيق في كل عصر ، فبإمكان المربين - في الوقت الحاضر - الاستفادة مما قاله الرازي عن طبيعة الإنسان ثم يجتهدون على ضوء ذلك

مضيفين إليه ماستجد من دراسات علمية عن هذه الطبيعة إذا كان ذلك متفقاً مع نظرة القرآن الكريم لها •

٢ - الهدف الأسمى والغاية القصوى للتربية الإسلامية - في كل عصر - هي تحقيق العبودية لله ، وسبق القول - أثناء تحديد الأهداف عند الرازي - أن التربية عنده تدور في فلك العبودية ، فالأهداف التي يريد الرازي تحقيقها مردها جميعاً إلى العبودية ، والتربية في العصر الحاضر يجب أن تسلك المسلك نفسه ، وتستفيد مما أورده الرازي في مجال العبودية وتجعل قضية العبودية هي القضية الأولى للتربية ، وهذا هو الواجب الأول لكل بلد إسلامي ، فلايجوز أن يُقدم على هدف العبودية أي هدف آخر ، ولذلك كان الهدف الأول للتربية في المملكة العربية السعودية هو << تعهد العقيدة الإسلامية الصحيحة في نفس الطفل ورعايته بتربية إسلامية متكاملة في خلقه وجسمه وعقله ولغته وانتمائه إلى الإسلام ، وتدريبه على إقامة الصلاة وأخذه بآداب السلوك والفضائل >> (سياسة التعليم في المملكة - ١٣٩٤هـ - ص ١٨ ، ١٩) •

فهذا الهدف الذي تؤكد سياسة المملكة التعليمية على تطبيقه في تربية أبنائها هو نفسه الهدف الذي ركز عليه الرازي ودعا إلى تحقيقه •

واهتم الرازي اهتماماً كبيراً بقضية الإيمان أثناء حديثه عن آيات الأنفس والآفاق مبيناً مالها من أثر في تعميق إيمان المرء بربه الذي خلقه وخلق الكون العجيب الدال على قدرة الله وتفرده بالربوبية والعبودية •

وإذا كان الرازي يهدف في المقام الأول من النظر والبحث في الكون إلى تقوية الإيمان بالخالق فإنه لايفوته أن هذا الكون مسخر للإنسان ليعمل مافي وسعه للحصول على خيراته ويكشف عن خزائنه ليعمر الأرض ويعيش حياة طيبة ويأكل من الطيبات ويحمد الله على نعمه • من أجل ذلك يحث الرازي على الاستمرار في التفكر والبحث فكلما تفكر الإنسان وتدبر ظهرت له في هذا

الكون حكمة جديدة من حكم الله التي لانهاية لها • (انظر ص ١٦٠ من هذا البحث) •

وفي كلام الرازي عن الكون مايفيد العلماء والمربين والمعلمين ، فبإمكانهم الاستفادة من ذلك في ربط التلاميذوالطلاب بالكون الذي يعيشون فيه فيدربونهم على استخدام عقولهم وحواسهم على النظر والتفكير وممارسة البحث الذي يمكّنهم من الاطلاع على أسرار آيات الأنفس والآفاق فتتجلى - بذلك - عظمة الخالق ، ويزداد الطلاب إيماناً على إيمانهم ، ويتمكنوا - بعد ذلك - من استخراج كنوزه الظاهرة والباطنة •

ولا شك أن الأمة الإسلامية أحوج ماتكون - في هذا العصر - إلى الأخذ بفكرة الرازي ، وتطبيقها عملياً ، لما لها من أثر في الجانبين الروحي والمادي•

ومما يدعو للأسف أن علماء الغرب تقدموا على المسلمين كثيرا من الناحية المادية ، بل إن بعض العلماء الأمريكيين توصلوا من خلال بحوثهم إلى نتيجة حتمية واحدة وهي أن وراء هذا الكون خالقاً عظيماً قادراً وهو الله تعالى ، وجمعت بحوثهم في كتاب أسماه مترجمه (الله يتجلى في عصر العلم) • (الدمرداش - بدون تاريخ - كل صفحات الكتاب)•

فلو أخذت التربية - في هذا العصر - بفكرة الرازي عن الكون لما حدث فصل بين علوم الدنيا وعلوم الدين - كما يذكر المودودى - ففي العصر الحديث أصبحت العلوم الكونية والإجتماعية والإنسانية معزولة عن الدين مما يجعل التلميذ يتصور أنه لادخل للدين في هذه العلوم ، وأن الدين غير قادر على حل مشكلات الحياة وأن القوانين والأحداث الكونية لاتخضع لإرادة الله ، وهذا التصور نابع من التصور الغربي للعلوم الكونية والإنسانية • (المودودى - بدون تاريخ - ص ٣٤ ، ٣٥) •

واعطى الرازي في الأصول الإجتماعية وشبكة العلاقات القائمة بين فئات المجتمع المتعددة مايفيد في اعادة البناء الاجتماعي على أسس ثابتة ومتينة على ضوء ماورد في الكتاب والسنة .

إن المربين في أمس الحاجة إلى الأخذ بفكرة الرازي عن الروابط الإجتماعية ، ولاسيما في هذا الزمان الذي أخذت فيه هذه الروابط تتخلخل وتضعف عراها ، وقد تحدث الرازي - مستعيناً بالقرآن الكريم والسنة - عن الأسباب التى توثق العلاقات الاجتماعية ، مما يفيد المعلمين في تنمية عواطف الأبناء واستجاشة نفوسهم نحو الآباء والأمهات فلايصبحوا عرضة للاهمال والضياع عند الشيخوخة عندما يكونون في أشد الحاجة إلى الرعاية ورد الجميل والمعروف من قبل الأولاد . قال تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَنْ لَاتَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَاتَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَاتَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيماً وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيْراً ﴾ الاسراء ٢٣ .

كما يستفيد المعلمون من درس الرازي في العلاقات الأخرى ، في الحث على صلة الأقارب والإحسان إلى الجيران والعطف على الأيتام والفقراء والمساكين ، والرأفة بالمماليك والخدم ، فيحاول المعلمون تعريض التلاميذ للمواقف الإنسانية وإنشاء الجمعيات الخيرية داخل المدارس لتنمية هذه الرابطة وممارسة أعمال البر والخير داخل المدرسة وخارجها ، ويستعين المدرسون - كما فعل الرازي - بالآيات والأحاديث التي تؤكد هذه الروابط،فاقتران القول والعمل بالدليل الشرعي يؤدي إلى الاقتناع والرغبة في التطبيق .

والمدارس هي البيئة المناسبة للاستفادة مما أورده الرازي حول العلاقات الايجابية ، مثل العدل والاحسان والعفو والتسامح ، وإيفاء الكيل والوزن ، وحسن الظن ، والبعد عن الصفات السلبية التي تفسد تلك العلاقات مثل إساءة

الظن ، والغيبة والنميمة ، والسخرية ، والتنابز بالألقاب ، والتجسس ، وبخس الكيل والميزان ، وغير ذلك ، والاستفادة من الآيات والأحاديث كلما جاءت مناسبة أو وقعت أخطاء تستدعي التوجيه والنصح والإرشاد لكي ينمو التلاميذ وينمو في نفوسهم الميل والرغبة في أعمال البر التي من شأنها توثيق العلاقات الاجتماعية والنفور من كل عمل قبيح يؤدي إلى تفكك المجتمع ٠

وكذلك العلاقة بين الحاكم والرعية التي يرى الرازي أنها مبنية على العدل من قبل الحاكم ، والطاعة من قبل الرعية ، فإذا طبق الحاكم شرع الله وجب على الرعية طاعته ٠

ولكي تطبق هذه الشبكة من العلاقات الاجتماعية تطبيقاً مثالياً دعا الرازي إلى تطبيق سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو الأسوة الحسنة والقدوة المثلى ٠ فعلى ضوء سيرته يستطيع المعلمون حمل تلاميذهم على الاقتداء به صلى الله عليه وسلم وتقديم دروس عملية من السيرة ، ففي ذلك نفع عظيم وفائدة كبيرة في تعديل السلوك بل إنه أمر نافع للمعلمين أيضاً فالرسول صلى الله عليه وسلم هو المعلم الكامل في كل صفة حميدة وفي كل خلق كريم ، فهو خير قدوة للمعلم والمتعلم ٠

٣ - وفي درس الرازي عن المعرفة ما يُمكِّن المربين والمعلمين من أن يغرسوا في النشء منذ الصغر الاعتماد على الوحي لمعرفة الأمور الغيبية وتحصينهم - بذلك - من الوقوع في الخرافات والأكاذيب التي يدعيها السحرة والكهان والمتجمون عن

علم الغيب • ولا شك أن الناشيء - في كل عصر - محتاج لمن يبصره بالدين الحق والمصدر الحق ، والطريق الذي يجب أن ينهجه من أجل الوصول إلى الحقيقة ، ولاسيما في هذا العصر الذي أصبحت فيه معارف الأمم - بكل ماتحمله من أفكار - في متناول كل إنسان وأصبح من الصعب التحكم في وسائل الاتصال التي تحمل المعارف في شتى الحقول مما يجعل العبء كبيراً على المربين فهم المسئولون عن تحصين التلاميذ والطلاب بالعقيدة الصحيحة التي تجعلهم يميزون بين الأفكار فلايقبلون أية معرفة تحمل فكرة هدامة •

والعقل والحواس أدوات لها شأن كبير - عند الرازي - في اكتساب المعرفة ، فالحواس تزود العقل وتغذيه بالمعرفة المحسوسة •

والإنسان في بداية خلقه خال عن المعرفة ، ويستدل الرازي على ذلك بقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَاتَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ النحل ٧٨ •

فهذه الآية الكريمة صرحت بالوسائل الثلاث التي يصبح الإنسان بسببها عالماً وعارفاً بعد أن كان جاهلاً وهي السمع والبصر والأفئدة • ويرى الرازي أن الطفل إذا أبصر الشيء مرة بعد أخرى ارتسمت في ذهنه وخياله ماهية ذلك المبصر ، وإذا سمع شيئاً مرة بعد أخرى ارتسمت ماهية ذلك المسموع في خياله ، وهكذا في سائر الحواس وبسبب ذلك تنتقل النفس البشرية من الجهل إلى العلم ، ولابد من التعاون بين العقل والحواس ، فلاقيمة للمعرفة الحسية إلا بوجود العقل فهو القاضي والحاكم الذي يميز المعرفة ويختار منها مايفيد •

(انظر ص ١٩٤ ، ١٩٥ من هذا البحث)

وينبه الرازي إلى أهمية التكامل بين العقل والحواس في القرآن الكريم ، فكثيراً مايقرن القرآن بين الأمر المعقول والأمر المحسوس ليصير الأمر المعقول بمعاونة المثال المحسوس مفهوماً ومتصوراً •

ومعنى هذا أن الرازي يضع طريقة لايستغني عنها المربون في أي عصر ، فعليهم ملاحظة التلاميذ من الناحية العقلية والجسمية ، فيحاولون تنميتهم عقلياً وجسمياً ليكونوا قادرين على استخدام قدراتهم العقلية وحواسهم الجسمية في المستقبل بطريقة صحيحة ، وليكونوا قادرين على التفكير السليم المؤدي إلى الفهم والابداع والابتكار ، كما يجب على المربين أن يلاحظوا التلاميذ من الناحية الجسمية فيزودوهم بالعادات والمعلومات الصحية التي تؤدي إلى سلامة أجسامهم وحواسهم من أي خلل يصيبها بسبب مايقومون به من أعمال أو حركات ، أو عادات غير صحية تضُرُّبهم ٠

كما يجب على المعلمين الاستفادة مما ذكره الرازي عن استعمال الأسلوب القرآني في تأيد القضايا العقلية بالأمثلة المحسوسة التي تصور الأمر العقلي وتقرّبه إلى الأذهان فيكون واضحاً ومفهوماً ومقنعاً للتلاميذ الذين كثيراً مايحتاجون إلى هذا الأسلوب لكون عقولهم ماتزال قاصرة عن فهم الأمور العقلية المجردة ٠

ومن الطرق الأخرى لحصول المعرفة واكتسابها الأخذ عن الأمم السابقة ، لكن الرازي يحذر من أخذ محصولات تلك الأمم على علّاتها بدون تمحيص ، فمعارفهم فيها الصحيح والفاسد ، فلايجوز الأخذ عن أصحاب العقائد والمعارف الفاسدة ، أما أصحاب العقائد والمعارف الصحيحة فهم الذين ينبغي الاستفادة من معرفتهم ٠ (انظر ص ١٨١ من هذا البحث) ٠

فهذا نداء من الرازي بتمحيص التراث المعرفي للأمم الأخرى أياً كان ذلك التراث ، وهو توجيه إلى الباحثين والعلماء والمربين في كل عصر لينقدوا مايقع بين أيديهم من ألوان المعرفة فما كان منها مفيداً متفقاً مع العقيدة الإسلامية فيؤخذ به وماليس كذلك فلا ٠

وعلى المربين والمعلمين – في هذا العصر – أن يستفيدوا من فكرة الرازي فيمعنوا النظر فيما يقومون بتدريسه من مواد من حيث محتواها العلمي فإذا وجدوا أي عبارة لاتخدم أهداف التربية الإسلامية فليحذفوها أو يعلقوا عليها ، وينبهوا طلابهم ويوضحوا لهم وجه الخطأ ، ويحاولوا تنمية حاسة النقد لديهم ليكونوا قادرين على نقد مايقرأون ، ووزنه بميزان العقيدة ، وبهذا تتحقق لديهم الحصانة الكافية ضد أي غزو فكري يحاول أعداء الإسلام تصديره إلى أبناء المسلمين ٠

٤ – أثبت الباحث في الفصل الخاص بسيرة الرازي وصيته المشهورة التي سجلها عنه أحد تلاميذه ٠ وتشتمل هذه الوصية على دروس تربوية مفيدة للعلماء والباحثين والمعلمين والطلاب وهي :

أ – يقول الرازي في وصيته : «« ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية ، فما رأيت فيها فائدة تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن العظيم ، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال بالكلية لله تعالى ، ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات »» ٠

وهذه التجربة التي مَرَّ بها الرازي لايجوز أن تمر دون أن يُستفاد منها ، فالرازي بعد طول تجربته مع الفلسفة وعلم الكلام اتضح له بأنه لافائدة من ذلك ، وأن المنهج السليم والطريق القويم هو القرآن الكريم الذي يحمي الإنسان من التيه والضلال الذي يجلبه التعمق في الفلسفة وعلم الكلام ممايؤدي إلى الحيرة وبلبلة العقل ، فعلى المسلم أن يستفيد من هذه التجربة التي ثبت للرازي عدم جدواها ، فلايعتمد على أي مصدر أو منهج فكري لايتفق مع القرآن والسنة ٠

والرازي لم يضمّن وصيته هذه التجربة إلا لعلمه بأنها ستبقى بعده تتداولها الأجيال ويستفيد منها العلماء والمعلمون والطلاب ، ولذلك ضمنها – أيضا –

الأساس والمنهج الذي يجب أن يعتمد عليه المربون وواضعو منهج التربية في كل عصر وهو القرآن الكريم الذي حذر الرازي من أي منهج يتعارض معه مثل «الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية» .

وبهذا يكون الرازي قد حدد المصدر الأساس للتربية وهو « القرآن العظيم» .

ب - ويضع الرازي سابقة طيبة وبادرة حسنة للمؤلفين والكتاب ، فينبه إلى أن كتبه تحتاج إلى النقد والتمحيص ، فما كان مفيداً يؤخذ به ، وما كان سيئاً يُحذف . فالرازي لايدّعي الكمال ولايزكي نفسه ولاكتبه بل يعترف بالقصور وأن كتبه تشتمل على الغث والسمين ، ويصرح بذلك - في وصيته - صراحة لاغموض فيها فيقول : « إني كنت رجلاً محباً للعلم فكنت أكتب في كل شيء شيئاً لاأقف على كمية وكيفية سواء كان حقاً أو باطلاً أو غثاً أو سميناً » . ثم يدعو إلى النظر في كتبه وارشاد الناس إلى مافيها من فوائد ، وبيان مافيها من زلل وأخطاء فيقول : « وأما الكتب العلمية التي صنفتها ، فمن نظر في شيء منها فإن طابت له وإلا فليحذف القول السيء فإني ماأردت إلا تكثير البحث وتشحيذ الخاطر ، واعتمادي فيه على الله تعالى » .

فالرازي - بقوله هذا - يضع نهجاً تربوياً لكل عالم ومعلم ومربٍ ومؤلف ، فالأمر لايقتصر على كتب الرازي فحسب بل يُعدّ درساً عاماً للكُتّاب والمفكرين والعلماء الذين يقعون في أخطاء فكرية ، سواء كانوا قاصدين أم غير قاصدين ، فعليهم - في حالة توبتهم ، أو ظهور الخطأ بعد أن كانوا معتقدين صحته - أن يصرحوا بذلك - كما فعل الرازي - فيبينوه ويدعوا إلى تلافيه ، أو يصححوه بأنفسهم إن استطاعوا .

ومسئولية واضعي للمناهج والكتب الدراسية أكبر ، فيجب على المختصين - في هذا المضمار وهم يجمعون المادة العلمية من مراجعها - أن يكونوا نقاداً بصيرين ونقلة أمناء ، فلايضعوا في الكتب الدراسية - في مختلف التخصصات - إلا الأفكار والنصوص التي تتفق وتنسجم مع الفكر الإسلامي الأصيل .

ج - يقول الرازي في وصيته المذكورة : «« وأوصيه ثم أوصيه بأن يبالغ في تربية ولدي أبي بكر ، فإن آثار الذكاء والفطنة ظاهرة عليه ، ولعل الله تعالى يوصله إلى خـــــير»» •

ويدل هذا على أن الرازي مرب عميق التجربة ودقيق الملاحظة في مجال التربية ، فهو يرى أن الولد الذكي يحتاج إلى تربية خاصة تتناسب مع قدراته العالية ، لأنه الأجدر بأن يكون نافعاً يجري على يديه الخير إلى الآخرين • فالرازي كان مدركاً تمام الإدراك لما يسمى في زماننا بالفروق الفردية ، حيث يدعو إلى اتاحة الفرصة للولد النجيب ذي المواهب والقدرات النادرة ليكون محل الرعاية والملاحظة من قبل المربين فيوفروا له النمو الإيجابي المناسب •

إن ملاحظة الرازي لجديرة بالاهتمام في عصرنا ، فالأذكياء ثروة عظيمة لايجوز اهدارها ، بل يجب اعدادهم اعداداً يلائم فطرتهم وذكاءهم ليخدموا أمتهم التي هي في أمس الحاجة إلى أفكار أبنائها الأذكياء علّهم ينهضون بها في شتى المجالات ، الثقافية والاجتماعية ، والاقتصادية ، والعلمية ، وفي كل نواحي الحياة حتى لايبقى المسلمون عالة على غيرهم من الأمم •

إن هذا المعنى التربوي الذي تنبه له الرازي منذ أكثر من ثمانمائة عام مازالت التربية في يومنا هذا تأمل في تحقيقه ، فالتربية مستمرة في أسلوبها التقليدي الذي يصب التلاميذ في قالب واحد دون مراعاة للفروق الفردية ، فالمنهج واحد ، وعدد سني الدراسة مفروض على الجميع لابد أن يمر به الذكي ومتوسط الذكاء ومنخفض الذكاء ، فيدرسون على حد سواء لافرق بينهم ، وهذا يؤدي بالطالب الموهوب إلى دراسة منهج ومواد أقل من مستواه تُفرض عليه فرضاً ولابد أن يمضي فيها السنوات التي حددها النظام لكل مرحلة مع أن بوسعه اجتياز ذلك في زمن أقل ، وقد لايتفق مايدرسه مع ميوله وقدراته فتضيع مواهبه - التي كان بإمكانها أن تبدع وتبتكر وتنتج - هباءً منثوراً •

والمنهج - كذلك - لايراعي قدرات الطلاب ومواهبهم عند التقويم ، وإنما يستخدم طريقة واحدة لاتميز بين الطالب الموهوب وغيره ، فالامتحانات لاتقيس - في الغالب - إلا قدرة واحدة ، وهي القدرة على الحفظ ٠

لذا ينبغي أن يستفيد الآباء والمعلمون والقائمون - جميعاً - على العملية التربوية من وصية الرازي من أجل الاهتمام بأصحاب الذكاء والمواهب المتعددة ، فيكون لهم تربية خاصة ومنهج خاص ورعاية خاصة ، لأنهم هم الدعامة لنهضة الأمة ورقيها وتطورها وسلامة مسيرتها ٠

٥ - أورد الباحث في الفصل الثامن مجموعة من آداب العالم والمتعلم التي أشار إليها الرازي في ثنايا تفسيره ، وهي آداب إسلامية يعد تطبيقها أمراً ضرورياً ، لذا يجب على العلماء والمربين والمعلمين الالتزام بها ليكونوا قدوة حسنة لتلاميذهم وطلابهم ، كما ينبغي أن يكون الالتزام بها شرطاً في اختيار المعلم قبل دخوله إلى خضم العمل التربوي ، وإذا لم يلتزم بذلك في عمله أُبعد عن التربية ، ويمكن إعادة بعض تلك الآداب - هنا - باختصار لبيان مدى أهمية تطبيقها :

أ - يجب أن يتطابق فعل المعلم وقوله ، فالتلميذ يتأثر بسلوك معلمه وتصرفاته ، ولذلك لايجوز للمعلم أن ينهى عن خلق ويأتي مثله ، فذلك يغض من قيمته في نظر طلابه ، بل قد يؤدي إلى تقليدهم له وجرأتهم على ارتكاب مالاينبغي ، لهذا يرى الرازي أنه لايصح من العاصي «أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكـر» ٠

وبناء على هذا فلايجوز للمعلم الذي لايلتزم بآداب الإسلام أن يكون معلماً ٠

ب - يجب على المعلم نشر العلم :

فأفضل الأعمال - عند الرازي - و«أعلى المقامات أن يصير الإنسان عالماً في ذاتـــه معلماً لغيره» ٠ فالهدف من التعلم - في نظره - ارشاد الناس وتعليمهم

وتوعيتهم ، «« فكل من تفقه وتعلم لهذا الغرض كان على المنهج القويم والصراط المستقيم »» ٠

وفي هذا دلالة على أن الرازي لايقصر مهمة المعلم على تعليم التلاميذ في المدارس بل تتجاوز ذلك إلى توعية المجتمع ونشر العلم بين الناس عامة ، ومحو الأمية والمشاركة في الأنشطة الثقافية المتعددة ، كالمحاضرات والندوات العلمية والثقافية ، والتأليف والكتابة في الصحف والمشاركة في البرامج الاعلامية وغير ذلك من وسائل التثقيف ، لأن نشر العلم الذي أشار إليه الرازي يقتضي ذلك كلـــــه ٠

ج - تعليم الناس ودعوتهم يجب أن يكون «« بالحكمة والموعظة الحسنة »»: الأسلوب الأمثل في التعليم والدعوة - عند الرازي - هو ماأمر الله به رسوله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى : ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ النحل ١٢٥ ٠

فالله سبحانه أمر رسوله بهذا الأسلوب ، وطبقه الرسول في الدعوة وتعليم الناس ، ويذكر الرازي أن هذه الآية اشتملت على ثلاثة أساليب وهي : الدعوة بالحكمة ، والدعوة بالموعظة الحسنة ، والدعوة بالمجادلة بالتي هي أحسن ٠

ويستدعي هذا الأمر اعداد المعلم ليكون قادراً على أداء مهمته بالأساليب الثلاثة حسب الحاجة ومقتضى الحال ، وكلام الرازي يعطي دلالة على أن مهمات المعلم متعددة ، لذلك يلزم اعداده اعداداً متكاملاً في جميع الجوانب ٠ والمعلم في أيامنا هذه يحتاج إلى مثل هذا الإعداد تربوياً وعلمياً وأخلاقياً ، وتدريبه عملياً ليتمكن من التطبيق السليم لهذه الأساليب الثلاثة ، سواء في الدعوة أو التعليم ٠

د - التواضع ولين الجانب :

يحث الرازي العلماء والمعلمين على الالتزام بالتواضع لما له من أثر كبير في أدائهم لرسالتهم ، فبالتواضع تستمال القلوب ويقبل الناس على طلب العلم بسبب تواضع العلماء والمعلمين ، لذا تجد الرازي يحذر المعلم من أن يكون « هدفه من اظهار العلم والمناظرة فيه التفاخر والتكبر على غيره » ٠

فالمعلم يجب أن يتصف بالعطف والرحمة والعفو والتسامح والشفقة ليميل إليه الطلاب ويقبلوا على درسه وينجذبوا إلى نصحه وارشاده ، ويحاكوه في سلوكه ٠

هـ - ومن الصفات والآداب التي حث الرازي على التحلي بها « الصبر » : لقد أدرك الرازي - من خلال ماقام به في نشر العلم - أن مهنة التعليم شاقة ومتعبة ، فالمعلم يبذل مجهوداً كبيراً في سبيل التربية والتعليم ، من أجل ذلك يحتاج إلى الصبر والمصابرة ، سواء كان ذلك من أجل اعداد نفسه ليكون معلماً ومربياً كفؤاً أو عندما يخوض غمار الحياة العملية ٠

إنه لايستطيع أداء هذه المهمة الصعبة على الوجه الذي يرضي الله إلا من كان ذا صبر وجلد وهمة عالية ، ولذلك يرى الرازي أن الصبر لن يتأتى للمعلم إلا إذا أراد بعمله الآخرة ٠

فالصبر خلق اسلامي عظيم لايستغني عنه المعلم في أي عصر سواء كان في الماضي أم في الحاضر أم في المستقبل ٠

و - من آداب المعلم الاستمرار في طلب العلم :

الاستمرار في طلب العلم أمر ضروري للمعلم ، ولأهمية ذلك يرى الرازي أن الإنسان مهما بلغ علمه لايقف عن البحث والطلب ٠

والمعلم - في العصر الحاضر - في حاجة إلى الأخذ بنصيحة الرازي ، فتجديد المعلومات ومتابعة البرامج التربوية وكل جديد في مجال الوسائل التعليمية أمر

هام وضروري للمعلم ، فهذا العصر -كما يقال - عصر التفجر المعرفي ، فالاستمرار في طلب العلم يمكّن المعلم من السيطرة على أداء رسالته من الناحيتين العلمية والتربوية •

٦ - أشار الرازي - خلال تفسيره - إلى عدد من الأساليب التعليمية العامة ، وهذه الأساليب قد استخدمت في مجال التربية والتعليم في الماضي وأثبتت نجاحها ، وكان لها أثرها الإيجابي في النهضة التربوية والعلمية عند المسلمين ، ومازالت التربية تعتمد على هذه الأساليب اعتماداً كبيراً ، مما يعطي دلالة على أن أساليب التربية الإسلامية - التي أشار إليها الرازي - تتسم بالأصالة والمرونة في نفس الوقت ، وهذه المرونة تجعلها قادرة على الاسهام بفاعلية في التربية الحديثة فبإمكان التربية في الوقت الحاضر الاستفادة منها بالإضافة إلى مااستجد من أساليب حديثة •

وقد أورد الباحث أساليب التعليم والتعلم - عند الرازي - في الفصل الثامن من هذا البحث ، ولابد من ذكر بعضها هنا لبيان مدى الاستفادة منها في تربية العصر الحاضر :

أ - مراعاة ميول المتعلم :

قد يظن البعض أن مراعاة الميول أمر جديد في التربية وأنه من عمل التربية الحديثة ، لكن هذا الظن غير صحيح ، فقد تنبه الرازي وأمثاله من علماء المسلمين إلى هذا الأسلوب منذ القدم ، مما يدل على أن التربية الإسلامية لها فضل السبق في اكتشاف الكثير من الأساليب النافعة والمفيدة للتربية والمربين في أي عصر • فالرازي يرى أن للميل أهمية عظيمة في جذب الإنسان للقيام بالعمل الذي يتفق مع ميله ورغبته ، لكن الرازي لايرى تنمية الميل إلا إذا كان ميلاً إيجابياً متفقاً مع أوامر الشرع مؤدياً إلى الاستقامة على الصراط المستقيم ، كما يـــرى أن الميل موجود عند الإنسان بحكم تكوينه وطبيعته الأصلية ، لكنه

يبقى كامناً لايفعل شيئاً إلا إذا أصبحت لدى الإنسان القدرة على الفعـــل •
(انظـر ص ٢٥٣ مـن هـذا البحـــث)•

وهاهو أحد المربين - في العصر الحاضر - يتفق مع الرازي حول أهمية الميل في التربية ويدعو إلى تطبيق عملي يراعي ميول التلاميذ واتجاهاتهم ، فالميول تتأثر بالعوامل الثقافية والاجتماعية المختلفة ، ويجب تعريض التلميذ لظروف ومواقف تساعد على كشف ميوله ، فقد يكون لديه استعداد وقدرات تظل كامنة لعدم اتاحة الفرصة لها ، وقد يكون لديه بعض الميول الضارة أو المنحرفة ، ولذلك يجب على التربية الحديثة تهيئة الظروف المناسبة أمام التلاميذ لاكتساب الميول النافعة وتوجيه الميول المنحرفة والتخلص من الميول الضارة • (الدمرداش - ١٤٠١هـ ص ٨١، ٨٢)•

يتضح من هذا الاتفاق بين الرازي والدمرداش أن الرازي - على الرغم من بعد المسافة الزمنية - قد سبق التربية الحديثة إلى اكتشاف العلاقة بين التربية والميــول ، ولايستبعد أن تكون التربية الحديثة قد استفادت من فكر الرازي ونظرائه من علماء المسلمين في هذا المجال •

ب - التـــدرج :

تقدم القول بأن الرازي يرى « أن على المعلم أن يقدم للمتعلم الكتب السهلة المختصرة ويترقى به من السهل البسيط إلى الكتب الشريفة ثم إلى المسائل الأكثر خفاءً » • (انظـر ص ٢٥٢ مـن هـذا البحـــث)•

وفي هذا مايدل على أن الرازي قد لاحظ عملية النضج لدى المتعلم التي تستدعي أن تكون المعلومات التي تقدم له مناسبة لعملية النضج لديه • والتربية الحديثة تتفق مع الرازي في نظرته ، فتحرص على هذا التدرج حسب سن التلميذ ، فتراعي ذلك في وضع المنهج وفي المعلومات التي تشتمل عليها المقررات الدراسية ، فتضع لكل مرحلة من المراحل مايناسب النضج العقلي والجسمي للتلاميذ ، لذا

«يجب أن تكون المناهج التربوية ملائمة لمرحلة نمو التلميذ وقدراته وحاجاته» .
(حامد زهران - ١٩٨١م - ص ٦٦) .

وبناء على هذا فإن التربية - في الوقت الحاضر - ستكون ناجحة إذا هي طبقت دعوة الرازي إلى التدرج في العملية التعليمية من أجل تحقيق النمو المناسب والشامل في جميع المراحل دينياً وعقلياً ونفسياً وجسمياً واجتماعياً ، واعداد المعلم تربوياً لينفذ ذلك تنفيذاً ملائماً .

ج - تركز التربية في العصر الحديث على دراسة الفروق الفردية من أجل اعطاء التلاميذ مايناسب قدراتهم من المعلومات والمهارات ، وليست هذه الفكرة بدعاً في عالم التربية كما يظن الكثير من الناس ، فالرازي قد لاحظ الفروق الفردية منذ القرن السادس الهجري ، ففي اشارته إلى الفروق الفردية أوضح « أن الناس مختلفون ومتفاوتون في الذكاء والبلادة والعقل ، ومتفاوتون في المزاج والبنية الجسمية » .

د - ولم يغفل الرازي أسلوب « التكرار » ، فقد أوضح ماله من أثر على تنمية الملكات وترسيخها ، فله أثره في التدريب على المهارات والصناعات المختلفة التي تحتاج إلى الممارسة والتطبيق مرة بعد أخرى حتى يتمكن المتعلم من اتقانها ، كما أن هذا الأسلوب لايُستغنى عنه في المواد التي لابد فيها من الحفظ ، مثل القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، وغير ذلك ، فالحفظ يحتاج فيه إلى التكرار ، وقد أصبح من الثابت لدى المعلمين أن المدرس كلما أعاد شرح الدرس ازداد الطلاب فهماً له ، بل إن المدرس يشعر أنه في المرة الثانية يجيد شرح الدرس أكثر من المرة الأولى ، لكن هذا الأسلوب يكون مجدياً إذا لم يسرف المدرس في استخدامه لئلا يكون التكرار سبباً في احداث السأم والملل لدى التلاميذ .

هـ - ومن الطرق التي نادى بها الرازي « التخصص في علم واحد » وعدم توزيع الجهد على أعمال كثيرة أو علوم متعددة ، لأن ذلك يبدد القدرات ويبعثر الجهود ، فاشتغال الإنسان بصناعة واحدة يؤدى إلى اتقانها والبراعة فيها ، أما ذو الفنين أو الصناعتين فإنه لايتقن واحدة منها . (انظر ص ٢٥٧ من هذا البحث) .

ومما يدل على أن فكرة الرازي فكرة عملية وصالحة للتطبيق أن المعاهد والجامعات في العصر الحديث قد أخذت بهذه الفكرة حيث تعددت التخصصات العلمية ، وتبعاً لذلك تعددت المعاهد والكليات التي تشتمل على تخصصات مختلفة ، وكان لذلك فائدته في اعداد الطلاب في مجالات متعددة يحتاج إليها المجتمع في مختلف المرافق ، كما أن له فائدته في وضع الخيارات أمام الطلاب ليختاروا التخصص المناسب الذي يتفق مع ميولهم وقدراتهم .

و - ينادي الرازي بتنويع أساليب الكلام في التعليم والنصح والإرشاد ، والتنويع في المتكلمين أيضاً ، فاختلاف أسلوب الكلام واختلاف المعلمين أو المتكلمين له أثره الإيجابي في التربية ، ولاسيما في حالتي الترغيب والترهيب ، فإذا لم يُجْدِ أسلوب الترغيب انتقل المتكلم إلى أسلوب الترهيب ، وإذا لم يُجْدِ متكلم استبدل بمتكلم آخر ، فربما يكون المتكلم الآخر أكثر جدوى في النصح والارشاد ، وكذلك الانتقال بالمتعلم من فن إلى فن آخر يُذهب عنه السأم والملالة . (انظر ص ٢٥٨ من هذا البحث) .

لايزال المربون- في الوقت الحاضر - يحتاجون إلى هذا الأسلوب ، فالثواب والعقاب له أثره في التربية إذا استخدم حيث يجب استخدامه . وكذلك عدم شرح المادة في حصتين متتاليتين أو حتى تكرارها في يوم واحد خشية اصابة التلاميذ بالملل والسأم الذي ينفرهم من الدرس والمدرس ، واختلاف المدرسين يكون أفضل بحيث لايدخل المدرس على التلاميذ في اليوم الواحد أكثر من

حصة واحدة • ولاختلاف المدرسين فائدة أخرى ، فتعددهم يتيح الفرصة للتلاميذ للحصول على خبرات متعددة وفوائد علمية وتربوية مختلفة ، فإذا قصر معلم في ناحية سد المعلم الآخر هذه الثغرة • والتربية - في عصرنا - تأخذ بهذا الأسلوب الذى نادى به الرازي ، فالمواد متنوعة ، والمعلمون متنوعون حسب التخصص فلكل مادة معلمها ، والجدول الدراسي يراعي - في الغالب - عدم تكرار المادة أو تكرار المعلم في حصتين متتاليتين بل وعدم التكرار في اليوم الواحد إن أمكن •

ز - أكد الرازي على أسلوب « ضرب الأمثال » باعتباره أسلوباً مهماً في تقريب الأمور المعنوية إلى الذهن ، فالمعنى العقلي قـد يكتنفه الغموض فإذا مُثِّلَ له بما يقع تحت الحس أصبح واضحاً وجلياً ، وقد استخدم القرآن الكريم ضرب المثل لما له من فائدة عظيمة في الترغيب في الإيمان ، حيث يلحق الأمور المعنوية بأمور محسوسة ، فيكون لذلك وقع وتأثير في النفس ، كتشبيه الإيمان بالنور ، والكفر بالظلمة •

وقد أدركت التربية الحديثة فاعلية هذا الأسلوب الذي حث الرازي على استخدامه ، فالتربية الحديثة تعده أسلوباً ناجحاً في تقريب المعنى من أذهان التلاميذ ولاسيما الصغار منهم الذين يعتمدون - في بناء خبراتهم - على الحـواس ، ولذلك يعتمد المعلمون على تمثيل الأشياء المعنوية وتصويرها لتكون مفهومة وقريبة من خيال التلميذ • وقد أوضح الباحث فائدة هذا الأسلوب أثناء حديثه عنه في الأساليب التعليمية عند الرازي •

ح - ويستفاد من أسلوب « الصحبة » عند الرازي في الزام الطلاب بحضور المحاضرات والدروس وتلقي العلم مشافهة من الأساتذة والمعلمين ، حيث يتمكن الطالب من فهم مسائل العلم والتأكد من صحتها ، وإزالة أي مشكلة تحدث بسبب عدم الفهم ، والحوار والنقاش وطرح الأسئلة والإجابة عليها من قبل الأستاذ يؤدي إلى فائدة كبيرة لاتتأتى للطالب من دراسته عن طريق

الانتساب ، ولذلك أدركت بعض الجامعات مدى الفائدة التي تحصل من جراء صحبة المعلم فألغت الانتساب وأكدت على وجوب حضور الطالب وانتظامه في الدراسة ٠

وقد سبق الرازي إلى ادراك فائدة الصحبة ، فأكد على ذلك بقوله : << التعلم لايمكن حصوله في جلسة واحدة ، وإنما يتم وتتحقق مسائله باختلاف المتعلم إلى المعلم في أوقات مختلفة وأزمنة متطاولة ومدداً متباعدة ٠ (انظر ص ٢٦١ من هذا البحث) ٠

ط - ويدعو الرازي إلى الأخذ بأسلوب << الرحلة والسياحة >> من بلد إلى بلد لطلب العلم ، إذا لم يكن العلم المطلوب موجوداً في بلد طالب العلم ٠

والجامعات في هذا الزمان تأخذ بهذا المبدأ فترسل بعض أبنائها المتفوقين في بعثات دراسية إلى بعض الدول لتحصيل العلم والمعرفة النادرة التي تمكن المبتعث من الحصول على العلوم التي تساعد في نهضة بلاده في المجالات التربوية والصناعية والاقتصادية والصحية ، وغير ذلك ٠

وهذا الأمر محمود إذا أدى إلى نهضة الأمة الإسلامية وعزتها وقوتها ، ولاشك أن الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها ٠

ي - المناظرة :

يعد أسلوب المناظرة من الأساليب المتميزة في طلب العلم ، وهو أسلوب له فائدته في كل عصر سواء في الماضي أو الحاضر أو المستقبل ، لذلك وجه الرازي أهل العلم إلى استخدام هذا الأسلوب والتدرب على المناظرة من أجل تحقيق مسائل العلم والوصول إلى الحق والصواب ٠

ولاتقتصر المناظرة - عنده - على علم واحد بل تفيد في كل العلوم ، كما أوضح الرازي الطريقة المثلى التي ينبغي أن تسير عليها المناظرة والأدب الذي يجب

على المتناظرين أن يلتزموا به من أجل الوصول إلى أفضل النتائج وأصحها.
(انظر ص ٢٦٧ من هذا البحث).

ولأهمية هذا الأسلوب نجد رجال التربية في العصر الحديث يؤكدون على استخدام طريقة المناظرة والحوار والمناقشة لما لها من فوائد فكرية واجتماعية. فاعتبرها علماء التربية الحديثة احدى الطرق الفعالة في التعليم، لأنها تهتم بميول المتعلمين ورغباتهم وخبراتهم الماضية، ولأنها مجال واسع لإبراز الفروق الفردية وكشفها للمعلم. وتنمي المناظرة لدى المتعلمين الجرأة الأدبية والقدرة على التفكير السليم، وتنمي القدرة التعبيرية، والقدرة على الاستنتاج وتمحيص الأدلة، كما تعوّد الإنسان على احترام آراء الآخرين، وتعطي الفرد الفرصة ليعبر عن وجهة نظره نحو قضية معينة أو عدد من القضايا، وأسلوب المناظرة يوطد العلاقات بين التلاميذ ويعودهم التفاهم والاحترام المتبادل. (بانبيلة - ١٤٠٤هـ - ص ١٢٩، ١٣٠).

٢ - نتائج البحث :

توصل الباحث - من خلال دراسته للمفاهيم التربوية عند الرازي - إلى النتائج الآتية :-

أولا : السمات والمعالم للتربية - عند الرازي - هي سمات ومعالم التربية الإسلامية ، ويستنتج من ذلك أن التربية الإسلامية هي السائدة والشائعة في عصر الرازي ، فالدولة الإسلامية كانت محكمة للشريعة الإسلامية في معظم شئونها ، وعلماء الشريعة هم المسيطرون على التربية والتعليم ، والرازي واحد من علماء هذا العصر الذين كان لهم عمل بارز في مجال التربية ، فكانت الوظيفة الأولى للرازي هي التعليم والقاء الدروس والمحاضرات والخطابة والدعوة ، مما جعل لديه تجربة تربوية سعادته - وهو يفسر القرآن الكريم - على استنباط تلك المفاهيم التربوية وصياغتها بأسلوب تربوي عملي يساعد المربين والمعلمين على التطبيق ، مع ربط تلك المفاهيم بالقرآن الكريم في الأهداف والوسائل والأساليب ، فكان عملاً تربوياً إسلامية متكاملاً .

ثانياً : يستنتج أن التربية - عند الرازي - ذات صبغة إسلامية خالصة من أي فكر دخيل ، وهذه ميزة لاتوجد في التربية عند المسلمين في العصر الحديث ، فالتربية في معظم الأقطار الإسلامية عبارة عن خليط وأمشاج من أفكار شتى ، فسمات ومعالم التربية الإسلامية تكاد تكون مفقودة ، والسبب في ذلك أن علماء التربية ومعلميها في هذه الأقطار ليست لديهم الفكرة الإسلامية الأصيلة التي كانت لدى الرازي وأمثاله من علماء التربية الإسلامية ، فهناك انفصام وفجوة كبيرة بين تربية الماضي والحاضر .

وهذا يستدعي أن تسد تلك الفجوة بإحداث تغيير جذري في الأهداف والخطط والمناهج التربوية ، وأن يُعد المعلم

ويزود بالثقافة الإسلامية التى تمكنه من التطبيق السليم للتربية الإسلامية ، فلن يصلح أخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها •

ثالثاً : تعطي مفاهيم الرازي تصوراً وانطباعاً إيجابياً عن التربية الإسلامية ، حيث يستنتج المطلع على الفكر التربوي - لدى الرازي - أن التربية الإسلامية كما كانت قادرة فى الماضي على الابداع والبناء الحضاري فهي قادرة فى كل زمان ومكان على البناء وقيادة البشرية نحو التقدم والرقي ، ففكر الرازي يدل على أن هذه التربية تمتلك من المقومات الأساسية مايجعلها البديل الأفضل الذي يؤلف بين الأجناس البشرية ويحقق السلام العالمي ويقرب بين وجهات النظر ، فيعم الخير والاستقرار والنماء ويسلم العالم من الحروب والظلم والأنانية والعنصرية ، فالتربية الإسلامية تربية إنسانية تعد الإنسان الصالح والمجتمع الصالح والأمة الصالحة في كل عصر •

رابعا : ويستنتج من تلك المفاهيم أنها مفاهيم عملية ، لأنها تمس حياة الناس الدينية والدنيوية ، فتطبيقها يحقق للإنسان سعادة الدنيا والآخرة ، بل إنها واجبة التطبيق ولاسيما فيما يتعلق بالعبودية ومايترتب عليها من علاقات ربانية وكونية واجتماعية ، ويحتم ذلك على التربية الانتقال بالناشيء من النظرية إلى التطبيق العملي في الواقع ، فلاقيمة للعلم بلا عمل •

خامساً: ومن النتائج الملموسة - في هذه التربية - قدرتها على استيعاب أي فكرة حديثة في مجال التربية مالم تكن متعارضة مع أهداف التربية الإسلامية ، فهي تربية مرنة اكتسبت مرونتها من مرونة الدين الإسلامي الذي يستوعب ويهذب الثقافة الإنسانية لتكون موافقة للفكر الإسلامي الذي يحرص على الاستفادة من حضارة الأمم الأخرى ، وكون الرازي يدعو إلى استخدام التفكير والبحث ، ونشر العلم ، والاستمرار في طلبه ، والسفر من أجل اكتسابه وأخذ خبرات الأمم الأخرى ، فإنه لدليل على انفتاح التربية عند الرازي ، وأنها لاتحرم إلا ماحرمه الدين الإسلامي •

سادساً: أفكار الرازي تدل على أن التربية الإسلامية تربية ذات تميز واستقلالية لاتتمحي شخصيتها ولاتذوب في أي فكر آخر ، بل إنها تستقبل الثقافات الأخرى وتهذبها وتصوغها صياغة جديدة فتندمج في الثقافة الإسلامية ، وتبقى التربية الإسلامية مهيمنة معتزة بشخصيتها وذاتيتها .

سابعاً: التربية - عند الرازي - تدل على أن علماء المسلمين في الماضي كانت لديهم القدرة على التفكير والإبداع والابتكار ، فخلفوا للأمة تراثاً علمياً ضخماً في كل المجالات بما في ذلك الفكر التربوي ، كما كانت لهم مشاركتهم الفعالة في كل شئون الحياة ، الثقافية ، والتربوية ، والسياسية والإجتماعية والاقتصادية ، وتدل - أيضاً على أن التربية الإسلامية كانت مؤثرة في جميع جوانب الحياة ، فهي الشريان الذي يبعث الحركة والحياة في جسم الأمة الإسلامية ولذلك كانت لها الريادة والقيادة ، فلما ابتعدت عن هذه التربية أصابها الوهن والضعف والتخلف عن ركب الحضارة ، فالتربية اليوم عند المسلمين تفتقر إلى الصفات والمقومات التي كانت تتمتع بها التربية الإسلامية في الماضي .

ثامناً : يظهر من المفاهيم التربوية - لدى الرازي - أنها مفاهيم قادرة على غرس القيم والأخلاق الفاضلة التي تحرك وجدان وعواطف الإنسان من أجل الوصول إلى المثل العليا ، وتنأبه عن الفساد والمعاصي والوقوع في الرذيلة ، وتتميز التربية - عند الرازي بأمرين :

الأمر الأول : أنها تخاطب عقل الإنسان بواسطة الحجج والبراهين المقنعة والأدلة الدامغة .

الأمر الثاني : أنها تخاطب في الإنسان وجدانه فتستثير مشاعره وعواطفه النبيلة وتدفعه نحو الخير وفعل الصالحات والالتزام بما أوجبه الله عليه نحو الدنيا والآخرة .

تاسعاً: النتيجــة الأخيـــرة:

أن هذه المفاهيم التربوية المستنبطة من << التفسير الكبير >> للإمام فخر الدين الرازي تعد مؤشراً قوي الدلالة على أن تراث المسلمين زاخر بالفكر التربوي المتناثر هنا وهناك في مختلف الكتب والموسوعات الإسلامية ، ومازال بحاجة إلى البحث والتنقيب وسبر غوره في كتب التفسير والحديث والفقه والتاريخ واللغة والأدب وغير ذلك ، والأمر يحتاج إلى جهد كبير من أجل إبرازه وتصنيفه بطريقة حديثة ليصبح جاهزاً في متناول يد المربين والمشتغلين بعلم التربية ليستخدموه في تربية الأجيال الإسلامية ويستغنوا به عن أي فكر تربوي مضاد يضر بالإسلام والمسلمين ٠

٤ - التوصيـــــات :

في نهاية هذه الرسالة يرى الباحث إعطاء بعض التوصيات لعلها تفيد من لهم اهتمام بتربية النشء ، فالمفاهيم التربوية لفخر الدين الرازي تشتمل على فوائد كثيرة يستفاد منها في محيط الأسرة ومحيط المجتمع ، ويستفيد منها المربون والمعلمون والطلاب ، وتستفيد منها الأمة الإسلامية عامة •

والفكر التربوي للرازي يساعد على تحقيق أهداف التربية الإسلامية في مجالات عديدة • وهذه التوصيات هي : -

أولاً : في محيط الأســرة :

الأسرة هي المؤسسة الأولى التي تربي الطفل وتعلمه بطريق التلقين ، وطريق المحاكاة ، والطفل شديد التقليد لأبويه ، والأبوان المسلمان يحرصان على غرس العقيدة والفضائل في نفس الولد والاستفادة من التربية الإسلامية في مجال تربية الأطفال لاعطاء المعلومات والآداب التي تحفظ فطرة الأطفال من الانحراف •

وهذه الرسالة تضم كماً كبيراً من الأفكار والمعلومات •

ويحسب الباحث أن الأسرة ستجد فيها مايساعدها على تربية أطفالها وتنميتهم تنمية متكاملة متوازنة في جوانبهم العقلية والروحية والجسمية على ضوء ماورد في هذا البحث عن الطبيعة الإنسانية ، وماورد عن علاقة الإنسان بالله وبالكون والإنسان ، ويستفاد من الأساليب التربوية أيضاً •

ويستفيد الوالدان من آداب العالم والمتعلم في الزام نفسيهما بتلك الآداب ليكونا قدوة صالحة لأطفالهما •

ثانياً : المسئولون عن وضع المناهج والمقررات الدراسية :

الذين يعدون المناهج ويخططون لها ويؤلفون المقررات الدراسية لأبناء الأمة الإسلامية عليهم أن يلتزموا بأهداف التربية الإسلامية وبالطرق والوسائل والأساليب التي تحقق تلك الأهداف • ولعل الباحث قد أبرز في هذه الرسالة مايفيد في هذا المجال حيث حاول ابراز العديد من الأهداف والأساليب وطرق التربية الإسلامية وأوضح مدى الاستفادة منها في الوقت الحاضر ، ويأمل أن يكون في ذلك مايسترعي انتباه واهتمام المسئولين على اختلاف مهماتهم التربوية ، فيختاروا من أفكار الرازي ومفاهيمه التربوية مايساعدهم على أسلمة المناهج أهدافاً وطرقاً ومحتوى ، ولاسيما أن التربية - عند الرازي - تهدف إلى تحقيق السعادة للإنسان في الدنيا والآخرة ، لأن محورها الذي ترتكز عليه هو العبودية لله وحده • وإذا كان المسئولون عن التربية في يومنا هذا يهدفون من عملهم التربوي إلى تحقيق العبودية لله فإنهم سيجدون في هذا البحث مايساعدهم على تلبية هذه الرغبة •

ثالثاً: المعلمـــون :

المعلم هو المسئول عن تنفيذ العملية التربوية بكل أبعادها ، ولايصح بأي حال أن يبدأ عمله من فراغ بل يجب عليه - قبل مباشرة عمله التربوي - أن يكون مدركاً تمام الإدراك لعظم المسئولية الملقاة على عاتقه ، فقبل البدء يحدد الأهداف ويعد الوسائل ، ويختار الأساليب والطرق الخاصة بالمادة التي يدرسها ، وقبل ذلك كله يكون على وعي تام وإدراك تام بأن التربية - في مفهوم الإسلام - لاتتجزأ ، فليس هناك - في داخل الأمة الإسلامية - تربية إسلامية وتربية غير إسلامية وإنما تربية إسلامية واحدة تتكامل من جميع جوانبهـــا لتأديـــة غرض واحد ، فالمنهـــج منهـــج إسلامي وأهدافه أهداف

إسلامية ، ووسائله كذلك ، والمعلم معلم مسلم ، والمتعلم طالب مسلم • ولذلك يجب أن يكون هذا المفهوم راسخاً في ذهن المعلم في أي تخصص وفي أي مادة يدرسها •

لكن هذا المفهوم لايكون واضحاً في ذهن المعلم إلا إذا عمق ثقافته الإسلامية واطلع على ما كتبه المربون المسلمون قديماً وحديثاً عن التربية الإسلامية ومايتعلق بها من أهداف ووسائل وأساليب ، كما ينبغي أن يكون المعلم على دراية بطبيعة الإنسان الذي يقوم بتربيته لكي يراعي تلك الطبيعة فيعالجها بما يناسبها من وجهة النظر الإسلامية •

وسيجد المعلم في هذا البحث مفهوماً متكاملاً عن التربية الإسلامية ، ففي نظرة الرازي إلى الطبيعة الإنسانية مايغني عن الفلسفات التربوية الأجنبية التي لاتتفق مع روح الإسلام ولاتنظر إلى طبيعة الإنسان نظرة متكاملة ، بينما الرازي - بتأثير من القرآن الكريم - يعطي الطبيعة الإنسانية حقها باعتبار الإنسان عقلاً وروحاً وجسداً ومشاعر وعواطف ودوافع وغرائز تجب تربيتها وتلبية حاجتها باعتدال وتوازن بما يتفق مع روح الدين الإسلامي •

ومن خلال هذا البحث سيكون المعلم على وعي بأهداف ووسائل وأساليب ومحتوى التربية الإسلامية ، وسيطلع على بعض الآداب التي يجب على المعلم التأدب بها ليكون قدوة حسنة لطلابه ، وسيجد عدداً من الأساليب التربوية المفيدة ، مثل أسلوب ضرب الأمثال ، وأسلوب المناظرة ، وأسلوب التدرج ، وغير ذلك •

رابعاً : العلماء والمنظّرون للتربية الإسلامية :

ظهر في العصر الحديث بعض الكتاب التربويين الذين ينادون بالبحث عن نظرية تربوية إسلامية ، وهم لا يريدون نظرية جديدة مبتكرة بل يريدون تلمس تلك النظرية من خلال القرآن الكريم والسنة المطهرة والتراث التربوي لعلماء الإسلام ، ثم ابراز ذلك وتوظيفه ليغني المسلمين عن أي فلسفة تربوية أخرى غريبة عن روح الإسلام ، ولعلهم يجدون في هذا البحث مايفيد في هذا المجال .

وقد تكون المفاهيم التربوية - عند الرازي - سبيلاً إلى التعمق في كتب التفسير وغيرها من كتب التراث ، فيكون ذلك سبباً في التوصل إلى نظرية تربوية اسلامية متكاملة .

خامساً : الدول الإسلامية :

يجب أن يكون للأمة الإسلامية شخصيتها المستقلة ، وهذا يقتضي تعميم التربية الإسلامية في كل المجالات التشريعية والتربوية والسياسية والاقتصادية بحيث تسري في كل مرافق الحياة ، ويفرض هذا على الدول الإسلامية أن تعود لماضيها فتحيي تراثها وتنفض عنه الغبار وتستخلص منه مايساعدها على النهوض وبناء الحاضر والرقي والتطور نحو المستقبل .

والفكر التربوي الذي سجله الرازي دليل على أصالة الفكر التربوي لدى الأمة الإسلامية وعلى قدرته على احداث التغيير ، لكنه يحتاج من الدول الإسلامية مجتمعة أن تشجع العلماء والباحثين ووزارات التربية والتعليم

ومراكز البحث العلمي على تبني هذا التراث التربوي بعد تمحيصه وتنقيته ثم الاجتهاد على ضوئه وإضافة كل مالايتعارض معه من جهود المحدثين •

إن من يطلع على فكر الرازي - في حقل التربية - سيقرر أنه لايصح اهمال هذا الفكر ، وهو - لاشك - جزء من الفكر التربوي الذي كانت الأمة الإسلامية تسير عليه وتطبقه في حياتها الماضية ، وتربي عليه أبناءها وتبني به حضارتها •

لذا يجب أن يكون للتراث التربوي الإسلامي نصيب كبيرمن جهود الدول الإسلامية ومن جهود كل الوزارات وكل الجامعات فيها ، ولاسيما وزارات المعارف والتربية والتعليم ، ووزارات الإعلام المسئولة عن الطبع وعن وسائل النشر والتوزيع •

أما الجامعات فمسئوليتها أكبر عن أحياء التراث الإسلامي عامة والتراث التربوي خاصة • ولابد من عقد للمؤتمرات التربوية من أجل إحياء التربية الإسلامية ، ولابد من صرف المال بسخاء في هذا السبيل لتشجيع الباحثين والمؤلفين وطبع مايتوصل إليه من نتاج علمي وتربوى في هذا المضمار•

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ••

المصـــادر والمراجـــع

أولاً : المصـــادر :

١ - القرآن الكريـــــم .

٢ - ابن أبي أصيبعة ، أحمد بن القاسم . (١٩٦٥م) عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، تحقيق نزار رضا . دار مكتبة الحياة . بيروت . لبنان .

٣ - ابن الأثير ، عز الدين أبو الحسن علي . (١٤٠٢هـ) الكامل في التاريخ . دار صادر بيروت ، لبنان .

٤ - ابن الأثير ، مجد الدين المبارك . (١٣٨٩هـ) . جامع الأصول في أحاديث الرسول. تحقيق عبدالقادر الأرناؤوط . مكتبة الحلواني .

٥ - ابن تيمية ، أحمد . (بدون تاريخ) الفتاوي . جمع وترتيب ابن قاسم . مكتبة المعارف . الرابط . المغرب .

٦ - ابن جبير ، أبو الحسين محمد بن أحمد . (١٤٠٠هـ) . رحلة ابن جبير . دار صادر . بيروت . لبنان .

٧ - ابن جماعة ، بدر الدين (١٣٥٤هـ) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم . دار الكتب العلمية . بيروت . لبنان .

٨ - ابن الجوزي ،أبو الفرج عبدالرحمن . (١٤٠٨هـ) فنون الأفنان . تحقيق حسن عتر . ط ١ . دار البشائر الإسلامية . بيروت . لبنان .

٩ - ابن الجوزي ، أبو الفرج عبدالرحمن . (١٣٥٨هـ) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم . ط ١ . دائرة المعارف العثمانية . حيدر آباد . الدكن .

١٠ - ابـن الجوزي ، أبو الفرج عبدالرحمن • (١٤٠٥هـ) • صـيد الخاطـر •تحقيق محمد عبدالرحمن • ط ١ • دار الكتاب العربي • بيروت • لبنان •

١١ - ابن حنبل ، أحمد • (بدون تاريخ) مسند الإمام أحمد • دار صادر • بيروت • لبنان •

١٢ - ابن خلدون ، عبدالرحمن (بدون تاريخ) مقدمة ابن خلدون • دار الفكر • بيروت • لبنان •

١٣ - ابن خلدون ، عبدالرحمن • (١٣٩١هـ) تاريخ ابن خلدون •مؤسسة الأعلمي • بيروت • لبنان •

١٤ - ابن خلكان ، شمس الدين أحمد بن محمد • (بدون تاريخ) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان • تحقيق إحسان عباس • دار الثقافة • بيروت • لبنان •

١٥ - ابن رجب ، عبدالرحمن بن أحمد الحنبلي (١٣٧٢هـ) • ذيل طبقات الحنابلة • مطبعة السنة المحمدية •

١٦ - ابن طباطبا ، محمد بن الطقطقا • (١٣٨٦هـ) الفخري في الآداب السلطانية والدول الإسلامية •دار صادر • بيروت • لبنان •

١٧ - ابن عبدالبر ، يوسف بن عبدالبر القرطبي • (بدون تاريخ) • جامع بيان العلم وفضله • راجعه وصححه عبدالرحمن حسن محمود • دار الكتب الحديثة • مصر •

١٨ - ابن القيم ، شمس الدين محمد بن أبي بكر • (١٤٠٦هـ) الفوائـد •تحقيق محمد عثمان الخشب - ط ٢ • دار الكتاب العربي • بيروت • لبنان •

١٩ - ابن كثير ، أبو الفداء إسماعيل • (١٤٠١هـ) تفسير ابن كثير •دار الفكر • بيروت لبنان •

٢٠ - ابن كثير ، أبوالفداء إسماعيل (١٩٦٦م) • البداية والنهاية •تحقيق علي شيري • دار إحياء التراث العربي •

٢١ - ابن ماجة ، محمد بن يزيد (١٣٧١هـ) سنن ابن ماجة ، مطبعة عيسى البابي الحلبي • القاهرة •

٢٢ - أبو داود ، سليمان الأزدي (١٣٧١هـ) سنن أبي داود • مطبعة عيسى البابي الحلبي • القاهرة •

٢٣ - الأصفهاني ، عماد الدين محمد بن محمد (بدون تاريخ) • خريدة القصر •

٢٤ - البخاري ، محمد بن إسماعيل (بدون تاريخ) • صحيح البخاري •مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده • مصر •

٢٥ - البخاري ، محمد بن إسماعيل (بدون تاريخ) • الأدب المفرد •المكتبة الأثرية •

٢٦ - البغدادي ، إسماعيل باشا • (١٩٥١م) هدية العارفين •طبع وكالة المعارف البهية استانبول ، ومكتبة المثنى • بغداد •

٢٧ - البغدادي ، الخطيب أبو بكر أحمد بن علي • (بدون تاريخ) • الفقيه والمتفقه مطبعة الامتياز •

٢٨ - التبريزي ، محمد بن عبدالله الخطيب (١٣٩٩هـ) • مشكاة المصابيح • تحقيق محمد ناصر الدين الألباني • ط ٢ • المكتب الإسلامي • بيروت •

٢٩ - الحنبلي ، أبو الفلاح عبدالحي بن العماد • (١٣٥١هـ) • شذرات الذهب في أخبار من ذهب • مكتبة القدسي • القاهرة •

٣٠ - خليفة ، حاجي (بدون تاريخ) • كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون مكتبة المثني • بغداد •

٣١ - الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد ٠ (١٤٠٤هـ) سير أعلام النبلاء ٠تحقيق بشار معروف ، ومحيي هلال ٠ ط ١ ٠ مؤسسة الرسالة ٠ بيروت ٠

٣٢ - الذهبي ، شمس الدين محمد بن أحمد (١٤٠٥هـ)٠ العبر في خبر من غبر ٠طبع بيروت ٠

٣٣ - زاده ، أحمد مصطفى طاش كبرى (١٣٩٧هـ) ٠ مفتاح السعادة ومصباح السيادة ٠ مطبعة دائرة المعارف العثمانية ٠ حيدر آباد ٠ الدكن ٠ الهند ٠

٣٤ - السبكي ، تاج الدين عبدالوهاب بن علي ٠ (بدون تاريخ) ٠ طبقات الشافعية الكبري ٠تحقيق عبدالفتاح الحلو ، ومحمود الطناحي ٠ ط ١ ٠ عيسى البابي الحلبي ٠ مصر ٠

٣٥ - السيوطي ، جلال الدين عبدالرحمن بن أبي بكر ٠ (١٣٧١هـ) ٠ تاريخ الخلفاء تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ٠ ط ١ ٠ مطبعة السعادة ٠ مصر ٠

٣٦ - الشاطبي ، إبراهيم بن موسى ٠ (١٩٧٠م) ٠ الموافقات في أصول الفقه ٠ مطبعة المدني ٠

٣٧ - الصفدي ، صلاح الدين خليل (١٣٩٤هـ) الوافي بالوفيات ٠ط ٢ ٠ فرانزشتاينر بفيسبادن ٠

٣٨ - العسقلاني ، ابن حجر ٠ (بدون تاريخ) ٠ فتح الباري على صحيح البخاري ٠ جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ٠ الرياض ٠

٣٩ - الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد (١٤٠٦هـ) شرف العقل وماهيته ٠تحقيق مصطفي عبدالقادر عطا ٠ ط ١ ٠ دار الكتب العلمية ٠ بيروت ٠لبنان ٠

٤٠ - الغزالي ، أبو حامد محمد بن محمد ٠ (بدون تاريخ) ٠ إحياء علوم الدين ٠ دار المعرفة ٠ بيروت ٠ لبنان ٠

٤١ - فخر الدين، محمد بن عمر الرازي. (بدون تاريخ). التفسير الكبير. ط ٣. دار إحياء التراث العربي. بيروت.

٤٢ - فخر الدين، محمد بن عمر الرازي. (١٤٠٢هـ). عجائب القرآن. تحقيق عبدالقادر أحمد عطا. ط١. دار الكتب الإسلامية. القاهرة.

٤٣ - فخر الدين، محمد بن عمر الرازي. (١٤٠٦هـ). عصمة الأنبياء. تقديم ومراجعة محمد حجازي. ط١. مكتبة الثقافة الدينية. القاهرة.

٤٤ - فخرالدين، محمد بن عمر الرازي. (١٣٩٩هـ). المحصول في علم أصول الفقه. تحقيق طه جابر العلواني. ط١ جامعة الإمام محمد بن سعود اللإسلامية الرياض.

٤٥ - القرطبي، أبو عبدالله محمد الأنصاري. (١٣٨٧هـ). الجامع لأحكام القرآن. دار الكتاب العربي. القاهرة.

٤٦ - المحاسبي، الحارث بن أسد. (١٤٠٦هـ). شرف العقل وماهيته. تحقيق مصطفي عبدالقادر عطا. ط١. دار الكتب العلمية. بيروت. لبنان.

٤٧ - مسلم، أبو الحسين بن الحجاج. (١٣٣٤هـ). صحيح مسلم. مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح وأولاده. مصر.

٤٨ - النسائي، أبو عبدالرحمن أحمد بن شعيب بن علي (١٣٤٨هـ) سنن النسائي ط١. المطبعة المصرية بالأزهر.

٤٩ - النووي، أبو زكريا يحي بن شرف (بدون تاريخ). رياض الصالحين. عني به وعلق عليه رضوان محمد رضوان. دار الكتاب العربي. بيروت. لبنان.

٥٠ - اليافعي، عبدالله بن أسعد بن علي (١٣٩٠هـ). مرآة الجنان وعبرة اليقظان. ط ٢ مطبعة دائرة المعارف. حيدر آباد الدكن. الهند.

ثانيا : المراجـــع :

٥١ - أبو العينين ، على خليل مصطفى • (١٤٠٨هـ) • فلسفة التربية الإسلامية في القرآن الكريم • ط ٣ • مكتبة إبراهيم حلبي • المدينة المنورة •

٥٢ - أبو العينين ، علي خليل مصطفي • (١٤٠٨هـ) • أهداف التربية الإسلامية ، ط ١ • مكتبة إبراهيم حلبي • المدينة المنورة •

٥٣ - أمين ، أحمد • (١٩٦٤هـ) • ظهر الإسلام •ط ٣ • مكتبة النهضة المصرية • مصر •

٥٤ - بانبيلة ، حسين عبدالله • (١٤٠٤هـ) • ابن خلدون وتراثه التربوي •ط ١ • دار الكتاب العربي • بيروت • لبنان •

٥٥ - الجارالله ، عبدالله بن جار الله بن إبراهيم • (١٤٠٣هـ)• فضائل القرآن الكريم مؤسسة الجريسي • الرياض •

٥٦ - جلبي ، خالص •(١٣٩٤هـ) • الطب محراب للإيمان • ط ١ • دار الكتب العربية • بيروت ، دمشق •

٥٧ - حمدي ، حافظ أحمد • (بدون تاريخ) • الدولة الخوارزمية والمغولية •دار الفكر العربي •

٥٨ - حنان سلطان ، وغانم العبيدي • (١٤٠٤هـ) • أساسيات البحث العلمي • ط ١ • دار العلوم • الرياض •

٥٩ - الخطيب ، عبدالكريم نجيب • (١٤٠٤هـ) • عسل النحل شفاء نزل به الوحي •ط٣ الدار السعودية • جدة •

٦٠ - خياط ، محمد جميل • (١٤٠٧هـ) • النظرية التربوية في الإسلام •ط ١ • مطابع الصفا • مكة المكرمة •

٦١ - الدمرداش، عبدالمجيد سرحان . (١٤٠١هـ) . المناهج المعاصرة . ط ٣ . مكتبة الفلاح . الكويت .

٦٢ - الزركلي، خير الدين . (١٩٨٤م). الأعلام . ط ٦ . دار العلم للملايين . بيروت . لبنان .

٦٣ - الزهراني، محمد مسفر . (١٤٠٠هـ) . نظام الوزارة في الدولة العباسية .ط ١ . مؤسسة الرسالة، بيروت . لبنان .

٦٤ - زهران، حامد عبدالسلام . (١٩٨١م) . علم نفس النمو . ط ٥ . دار العودة . بيروت .

٦٥ - سركيس، يوسف اليان (١٣٤٦هـ) . معجم المطبوعات العربية والمعربة . مطبعة سركيس . مصر .

٦٦ - شلبي، أحمد .(١٩٨٢م) . التربية الإسلامية . ط ٧ . مكتبة النهضة المصرية . مصر .

٦٧ - الصالحي، رشيد عبدالرزاق .(١٤٠٩هـ) . أعلام التربية العربية الإسلامية . مكتب التربية العربي لدول الخليج .

٦٨ - ضيف، شوقي . (بدون تاريخ) . تاريخ الأدب العربي، عصر الدول والإمارات . دار المعارف .

٦٩ - طعيمة، صابر (بدون تاريخ) . المعرفة في منهج القرآن الكريم .دار الجيل . بيروت .

٧٠ - عبدالباقي، محمد فؤاد . (١٣٦٤هـ) . المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .دار إحياء التراث العربي . بيروت . لبنان .

٧١ - عبدالرحمن صالح عبدالله ، وزميله (١٤٠٨هـ) ، المرشد في كتابة البحوث التربوية ط٥ ، مكتبة المنار ، مكة المكرمة .

٧٢ - العبود ، نافع توفيق ، (١٩٧٨م) ، الدولة الخوارزمية - نشأتها علاقاتها مع الدول الإسلامية ، ط ١ ، مطبعة بغداد .

٧٣ - عبيدات ، ذوقان ، وآخران ، (١٩٨٨م) ، البحث العلمي ، دار الفكر ، عمان .

٧٤ - عليان ، شوكت محمد ، (١٤٠٠هـ) ، الإسلام والمكتشفات العلمية ، ط ١ ، دارالرشيد .

٧٥ - فرحان ، اسحاق أحمد ، وآخرون ، (١٣٩٩هـ) ، نحو صياغة إسلامية لمناهج التربية والتعليم ، ط ١ ، رئاسة المحاكم الشرعية والشئون الدينية ، قطر .

٧٦ - فينكس ، فيليب ، (١٩٨٢هـ) ، فلسفة التربية ، ترجمة محمد لبيب النجيحي ، دار النهضة العربية ، القاهرة .

٧٧ - القطان ، مناع ، (١٣٩٦هـ) ، مباحث في علوم القرآن ، ط ٤ ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، لبنان .

٧٨ - قطب ، سيد ، (١٤٠٢هـ) ، في ظلال القرآن ، ط ١٠ ، دار الشروق .

٧٩ - قطب ، محمد ، (١٤٠٨هـ) ، منهج التربية الإسلامية ، ط ١ ، دار الشروق .

٨٠ - قطب ، محمد (١٤٠٣هـ) دراسات في النفس الإنسانية ، ط ٦ ، دار الشروق ، بيروت ، لبنان .

٨١ - الكيلاني ، ماجد عرسان ، (١٤٠٥هـ) النظرية التربوية الإسلامية ، ط ٢ ، مكتبة دار التراث ، المدينة المنورة .

٨٢ - الكيلانـي ، ماجد عرسان • (١٤٠٩هـ) • فلسفة التربية الإسلامية •ط ٢ • مكتبة هادي • مكة المكرمة •

٨٣ - المبارك ، محمد (١٤٠٠هـ) • بين الثقافتين الغربية والإسلامية •دار الفكر •

٨٤ - مرسي ، محروس سيد • (١٩٨٨م)• التربية والطبيعة الإنسانية في الفكر الإسلامي وبعض الفلسفات الغربية •ط ١ • دار المعارف • القاهرة •

٨٥ - مرسي ، محمد منير ، (١٩٨٥م) • أصول التربية • ط ٢ عالم الكتب • القاهرة •

٨٦ - مرسي ، محمد منير•(١٩٨٧م) التربية الإسلامية • دار المعارف • القاهرة • مصر•

٨٧- المصري ، محمد (١٤٠١هـ) • مناهج التأليف عند العرب •ط ١ • دار المنارة • جده •

٨٨ - المطوي ، محمد العمروسي •(١٩٨٢م) • الحروب الصليبية في المشرق والمغرب • دار الغرب الإسلامية • بيروت • لبنان •

٨٩ - المعارف ، وزارة • (١٣٩٤هـ) • سياسة التعليم في المملكة العربية السعودية •

٩٠ - المنجد ، صلاح الدين • (١٩٧٤م) • الاسلام والعقل • دار الكتاب الجديد• بيروت •

٩١ - المودودي - أبو الأعلى •(بدون تاريخ) • منهج جديد للتربية والتعليم • جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية •

٩٢ - نجاتي ، محمد عثمان • (١٤٠٢هـ) • القرآن وعلم النفس •ط ١ • دار الشروق • بيروت • لبنان •

٩٣ - النجار ، زغلول راغب (١٤٠٠هـ) • أزمة التعليم المعاصر • ط ١ • مكتبة الفلاح • الكويت •

٩٤ – النحلاوي ، عبدالرحمن ٠(١٤٠٣هـ) ٠ أصول التربية الإسلامية وأساليبها ٠ط ٢ ٠ دار الفكر ٠ دمشق ٠ سورية ٠

٩٥ – نخبة من العلماء الأمريكيين ٠ (بدون تاريخ)٠ الله يتجلى في عصر العلم ٠ ترجمة الدمرداش عبدالمجيد سرحان ٠ دار القلم ٠ بيروت ٠ لبنان ٠

٩٦ – الهاشمي ، عبدالحميد محمد ٠(١٩٨٦م) ٠ علم النفس التكويني ٠ ط ٢ ٠مكتبة الخانجي ٠ القاهرة ٠ مصر ٠